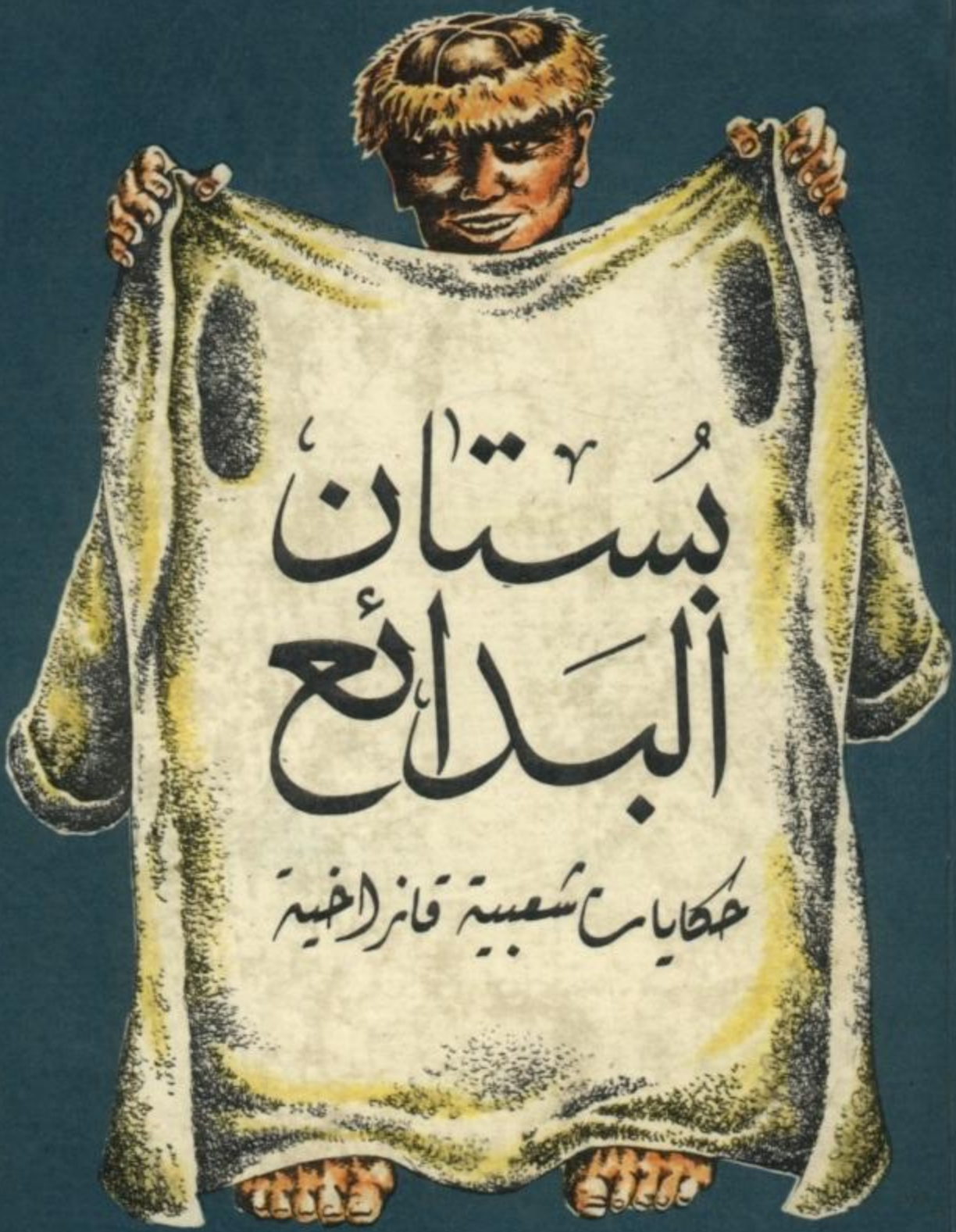

بستان البدائع
حكايات شعبية قازاخية

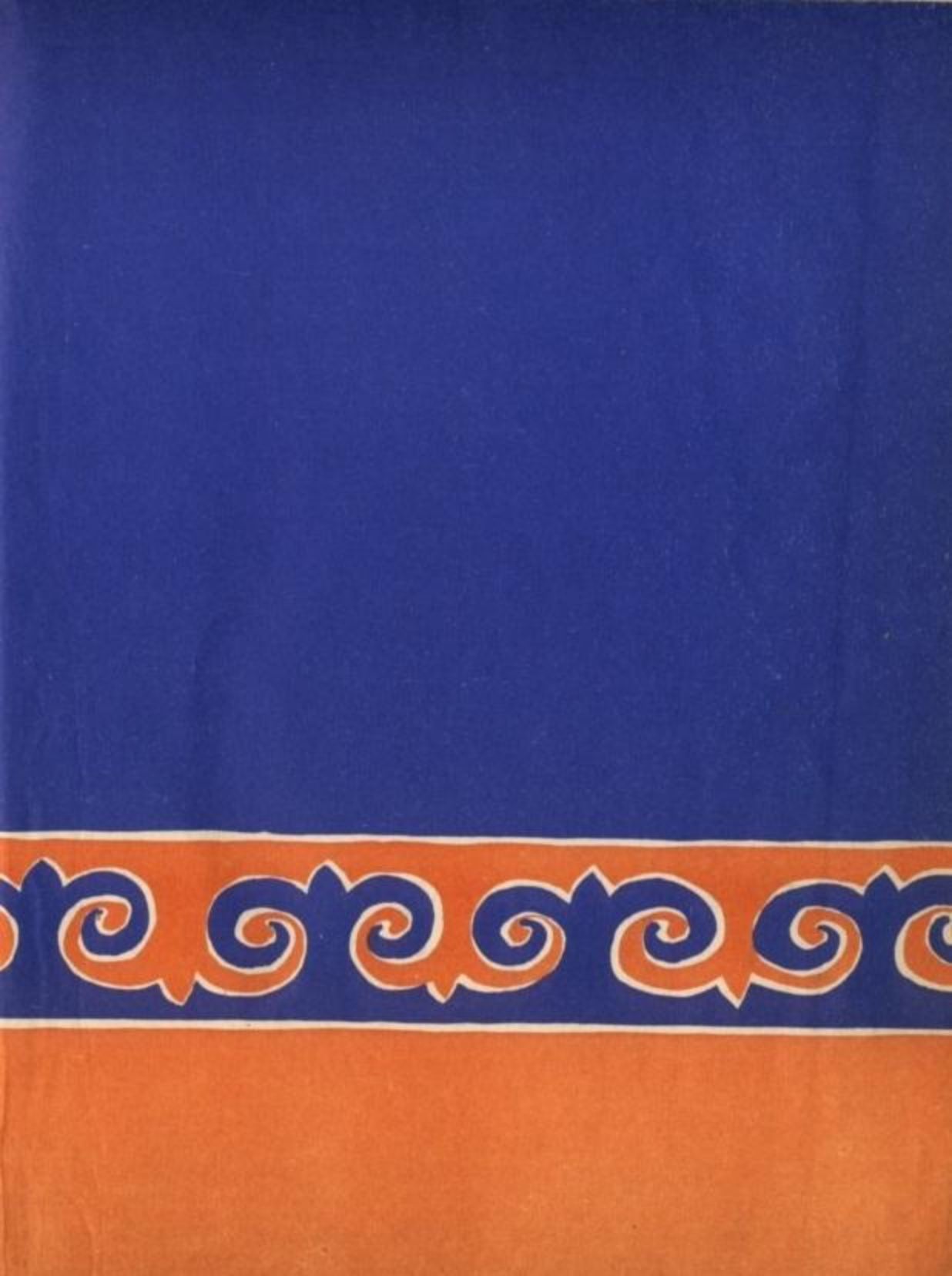

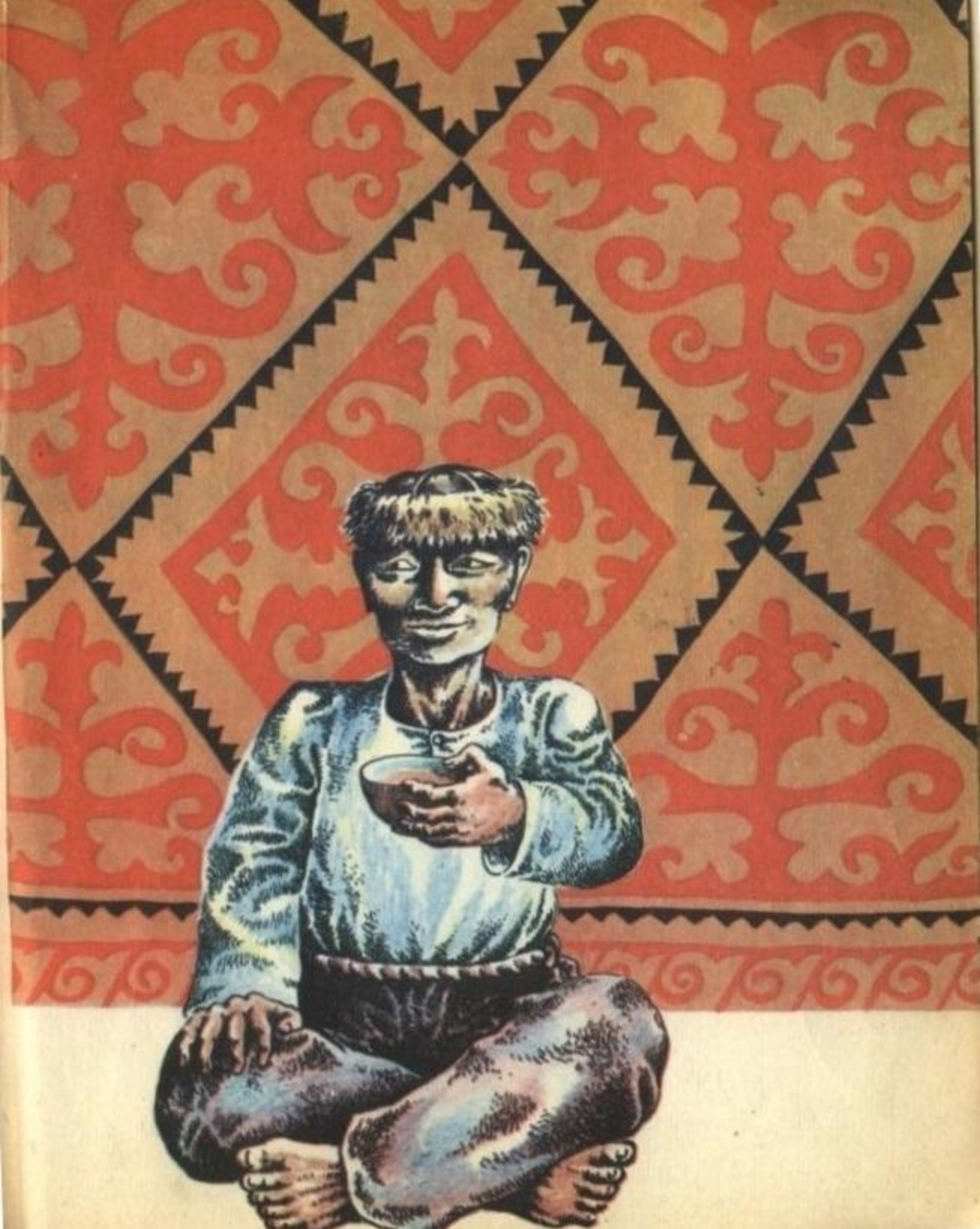

بستان البدائع

حكايات شعبية قازاخية

بستان البدائع

حكايات شعبية قازاخية

دار التقدم
فرع طشقند ١٩٨١

الترجمة: د. أبوبكر يوسف
الرسوم: أرسين بيسينبينوف

ЧУДЕСНЫЙ САД

Казахские народные сказки

На арабском языке

К $\frac{70803 — 149}{016\ (01) — 81}$ 535—81 4803010101

© الترجمة الى اللغة العربية والرسوم — دار التقدم، فرع طشقند ١٩٨١

البستان البديع

في سالف الأزمان عاش صديقان فقيران، كان أحدهما يدعى حسن، والآخر حسين. وكان لحسن قطعة أرض صغيرة يفلحها، أما حسين فكان يرعى قطيعاً صغيراً من الأغنام. وقد ترمل كلاهما منذ أمد بعيد، ولكن بقيت لحسن ابنة جميلة رقيقة، وبقي لحسين ابن قوي مطيع.

وذات ربيع، وبينما كان حسن يستعد للخروج الى حقله، حلت كارثة بحسين، فقد غطى الثلج عشب السهب فماتت الأغنام جوعاً.

وذهب حسين المسكين الى صديقه معتمداً على كتف ابنه، وقال له و هو يبكي:

– ياأخي حسن، لقد جئت لأودعك. فقد هلك قطيعي، وليس أمامي الا الموت جوعاً.

وعندما سمع حسن هذه الكلمات عانق صديقه الراعي وضمه الى صدره قائلا:

– أخي الحبيب. انك تملك نصف قلبي فلا ترفض أن تملك نصف حقلي. هيا، دع عنك الأحزان، وخذ الفأس وأشرع في العمل.

ومن يومها أصبح حسين زارعاً.

ومرت الأيام والشهور والسنون. وذات مرة، وبينما حسين يفلح الأرض، سمع لارتطام فأسه بالتربة وقعاً غريباً. فراح ينبش الأرض بسرعة حتى وقعت عيناه على قدر قديم، ملىء الى حافته بالعملات الذهبية.

وجن جنون حسين من الفرحة، وحمل القدر وأسرع الى كوخ صديقه.

وصاح وهو يقترب من الكوخ.

– أفرح يا حسن، لقد هبطت عليك السعادة. وجدت في حقلك قدراً مملوءاً بالذهب. ودع الفقر الى الأبد!

فاستقبله حسن بابتسامة ود وقال:

– أنا أعلم ياأخي نبل أخلاقك، ولكن هذا الذهب لك وليس لي. لقد وجدت الكنز في أرضك.

وهنا رد حسين:

– يا صديقي العزيز، أنا أعلم طيبة قلبك، ولكنك عندما وهبتني الأرض لم تهبني ماهو خبىء في طياتها.

ولكن حسن أجابه:

– يا صديقي العزيز، كل ماهو على الأرض وفي طياتها ملك لمن يرويها بعرقه.

وظلا يتجادلان طويلا، وكل منهما يرفض أن ياخذ الكنز، حتى قال حسن أخيراً:

– فلتسمع يا أخي ننهي هذا الجدال. ان لديك عريساً هو ابنك، ولدي عروس هي بنتي. وهما يحبان بعضهما البعض منذ زمن طويل. هيا نزوجهما ولنعطهما الكنز. وليعش ابنك وبنتي عيشة النعيم والهناء.

وعندما أعلن الأبوان نيتهما لابنهما وابنتهما كاد هذان يجنان من السعادة. وعلى الفور زوجوهما واحتفلوا بالعرس السعيد حتى آخر الليل.

وفي الصباح، ما أن أشرقت الشمس، حتى جاء الزوجان الى والديهما. وكان الهم بادياً على ملامحهما، وفي أيديهما أمسكا بالقدر المملوء ذهباً.

فانزعج حسن وحسين وسألاهما:

– ماذا حدث ياأولاد؟ ما الذي أيقظكما مبكراً هكذا؟ هل وقع مكروه؟

فاجاب العروسان:

– لقد جئنا لنقول لكما أنه ليس من اللائق أن يأخذ الأبناء ما زهد فيه الآباء. ماحاجتنا الى هذا الذهب؟ ان حبنا هو أثمن من كل كنوز الدنيا.

ووضعا القدر في وسط الكوخ.

وعاد الجدال من جديد، الى أن اتفق أربعتهم على طلب النصيحة من حكيم عجوز كان مشهوراً بين الناس بعدله ونزاهته. وساروا في الفيافي اياماً وليالي عديدة الى أن بلغوا خيمة الحكيم. وكانت خيمة وحيدة، منصوبة في السهوب، سوداء ومتهالكة.

واستاذن الوافدون في الدخول، ثم دخلوا وحيوا الحكيم.
وكان الحكيم جالساً على فرشة ممزقة، وعن يمينه جلس اثنان من تلاميذه، وعن شماله اثنان.
وسأل الحكيم القادمين:
– ماالدافع الذي حدا بكم الى المجيء الي أيها الخيرون؟
وقصوا عليه قصتهم. فصمت الحكيم طويلا، ثم التفت الى أكبر تلاميذه وسأل:
– لو كنت مكاني، فكيف كنت تقضي بين هؤلاء القوم؟
فقال أكبر التلاميذ:
– كنت آمرهم بتسليم الذهب للخان، لأنه مالك كل كنوز الأرض.
فقطب الحكيم حاجبيه عابساً وسأل التلميذ الثاني:
– وأنت، كيف كنت تقضي في هذا النزاع؟
فأجاب التلميذ الثاني:
– كنت آخذ الذهب لنفسي، لأن ما يتخلى عنه المدعي والمدعى عليه يصبح من حق القاضي.
فازداد الحكيم عبوساً، ولكنه سأل التلميذ الثالث بنفس الهدوء:
– فلتقل لنا أنت، كيف تحل هذه المعضلة؟
فأجاب التلميذ الثالث:
– طالما هذا الذهب ليس ملكاً لأحد، والجميع يرفضونه، فان حكمي هو أن يدفنوه ثانية في الأرض.
فاكفهر الحكيم تماماً، ولكنه سأل تلميذه الرابع و كان أصغر التلاميذ:
– وأنت ياصغيري، ماذا تقول؟
فقال التلميذ الصغير:
– يا معلمي، لاتغضب مني وأصفح عن سذاجتي، ولكن قلبي هو الذي حكم. بهذا الذهب كنت أزرع بستاناً في السهوب الجرداء ليستظل بظله المسافرون الفقراء، وليأكلوا من طيبات ثمره.
نهض الحكيم عند سماعه هذه الكلمات، وعانق تلميذه والدموع تتساقط من عينيه وقال:
– صدق من قال: «وقر الصغير كالكبير اذا كان ذكياً». حكمك عادل يا بني. خذ هذا الذهب، وامض الى عاصمة الخان، وابتع أفضل البذور، وعد فأغرس البستان الذي تحدثت عنه. وليبق الى الأبد ذكرى للفقراء عنك وعن هؤلاء الخيرين الذين لم يغرهم بريق الذهب والثراء الكبير.

وعلى الفور وضع الفتى الذهب في كيس جلدي وحمله على كتفه، وانطلق الى غايته.

وبعد سفر طويل في الفيافي والسهوب وصل الى عاصمة مملكة الخان، فقصد سوق المدينة وطاف بها بحثاً عن تجار بذور الثمار.

وقضى نصف نهار في الطواف بالسوق عبثاً. وفجأة سمع خلفه صليل أجراس، وصيحات حادة رنانة. فالتفت الفتى واذ به يرى قافلة تمر بالسوق حاملة بضاعة عجيبة. فقد كانت الجمال محملة بالطيور، آلاف الطيور من شتى الانواع التى تعشش في الجبال والغابات والسهوب والصحارى. وكانت مربوطة من أرجلها، بينما تهدلت أجنحتها المطوية المهروسة كالخرق وتصاعدت فوق القافلة سحب من الريش الملون. ومع كل خطوة من خطوات القافلة كانت رؤوس الطيور ترتطم بأجناب الجمال فتصدر عن مناقيرها المفتوحة صيحات استغاثة وشكوى. و تمزق قلب الفتى من الألم والشفقة على هذه الطيور فشق زحام الفضوليين، واقترب من قائد القافلة وحياه باحترام ثم سأل:

– قل لي ياسيدي من ذا الذي حكم على هذه الطيور الرائعة بهذا العذاب الرهيب، والى أين تقصدون بها؟

فأجابه قائد القافلة:

– اننا نقصد قصر الخان. وهذه الطيور جمعناها لوليمته. وسوف يدفع لنا الخان مقابلها خمسمائة عملة ذهبية.

فسأله الفتى:

– وهل تطلق سراح هذه الطيور لو دفعت لك ضعف ذلك؟

فنظر اليه قائد القافلة بسخرية، ومضى في سبيله.

عندئذ القى الفتى عن كتفه الكس، وفتحه أمام قائد القافلة. فتوقف هذا مذهولا، وعندما أدرك أية ثروة تنتظره أمر الصيادين فوراً باطلاق سراح الطيور.

وانطلقت الطيور فحلقت عالياً في السماء، وكانت من الكثرة بحيث سدت عين الشمس، وتحول النهار الى ليل، وعصفت الريح من خفق أجنحتها.

وظل الفتى يتابعها بنظراته وهي تبتعد، وعندما اختفت عن الانظار تناول كيسه الخاوى ومضى عائداً. وكان قلبه يتهلل من السعادة، وقدماه تخطوان بخفة، ومن شفتيه انسابت أغنية مرحة.

وكلما اقترب من موطنه تصارعته الأفكار الحزينة، واحتدم في صدره الندم.

وراح يقول لنفسه: «بأي حق أتصرف في ثروة الغير وفق هواي؟ ألم أحكم بغرس بستان للفقراء؟ فماذا أقول الآن لمعلمي ولأولئك البسطاء الطيبين الذين ينتظرون عودتي بالبذور؟»–فشيئاً فشيئاً تملكه الأسى، فارتمى على الأرض يبكي ويتأوه، ويطلب من الله الموت. وهذه البكاء والتعب فادركه النعاس.

ورأى في الحلم طائراً صغيراً جميلا يأتي من حيث لا يدري، ويحط على صدره. وفجأة قال الطائر بصوت مغرد ساحر:

– أيها الشاب الطيب! انس همك وحزنك. الطيور التى حررتها لن تستطيع رد ذهبك اليك، ولكنها ستكافئك على طيبة قلبك وعطفك، فلتنهض من نومك بسرعة، هيا أستيقظ!..

وفتح الفتى عينيه فتسمر من الدهشة: فقد كانت السهوب الواسعة من حوله مغطاة بالطيور من كل لون ونوع.

وكانت الطيور تحفر بأرجلها حفراً صغيرة، وتلقى فيها من مناقيرها بالبذور، ثم تدفنها سريعاً بأجنحتها.

ونهض الفتى من مرقده فارتفعت الطيور في التو واللحظة الى عنان السماء، وعاد النهار ليلا، وعصفت الريح من خفق أجنحتها... وعندما سكن كل شيء نبتت فجأة من كل حفرة حفرتها الطيور غرسة صغيرة، وراحت تصعد أعلى فأعلى حتى أصبحت شجرات كثيفة الغصون، مزدانة بالأوراق الرائعة والثمار الذهبية.

كان ذلك بستاناً لامثيل له حتى لدى ملك ملوك الهند. ولم يكن لأشجار التفاح بلحائها الذى يشبه الكهرمان حصر أو عد. وبينها امتدت عرائش الكروم وشجيرات المشمش، والمروج الخضراء المغطاة بالعشب الكثيف والأزهار المتعددة الألوان. وتناهى من كل ركن خرير القنوات والجداول الصافية الباردة المبطنة بالأحجار الكريمة. وعلى الغصون زقزقت ورفرفت عصافر جميلة صداحة كذلك العصفور الذى خطر للفتى فى المنام.

تلفت الفتى حواليه في ذهول وهو لا يصدق أن ما يراه حقيقة وليس حلماً. ولكي يتأكد من ذلك صاح بصوت عال فسمع صياحه الذي ردده الصدى مراراً. ولم يختف منظر البستان من أمام عينيه. عندئذ أسرع الفتى الى خيمة الحكيم وهو يرقص طربا وسعادة.

وسرعان ما انتشر نبأ البستان البديع في كل أنحاء السهوب. وكان أول من أسرع اليه الفرسان الأثرياء على متن جيادهم السريعة. ولكن ما

أن اقتربوا من طرف البستان حتى ظهر أمامهم سور عال ببوابة حديدية بسبعة أقفال. عندئذ نهضوا على سروج جيادهم وحاولوا أن يقطفوا التفاح عبر السور. ولكن كل من لمست يده الثمار سقط على الفور صريعاً. وعندما رأى الفرسان ذلك استداروا وركضوا عائدين الى ديارهم.

ثم جاءت من بعدهم جموع الفقراء من كل ناحية. وعندما اقتربوا من البستان سقطت الأقفال من البوابة فانفتحت أمامهم على مصراعيها. وامتلأ البستان بالرجال والنساء والشيوخ والأطفال. وراحوا يتجولون ويدوسون فوق الزهور ولكنها لم تذبل اوتسقط. وشربوا من الجداول الصافية فلم تتعكر، وقطفوا الثمار من الأشجار ولكنها لم تنقص. ودوت طول النهار أنغام الرباب والضحكات الرنانة والاحاديث العذبة.

وعندما حل المساء وهبط الظلام، شع التفاح نوراً رقيقاً وغنت الطيور بصوت واحد اغنية عذبة هادئة. عندئذ تمدد الفقراء على العشب العطر تحت الأشجار وغابوا في نوم عميق وقد استمتعوا بالسعادة والراحة لأول مرة في حياتهم.

آيسلو الحسناء

كان يعيش في احدى القرى ثلاثة اخوة. وكانوا أقوياء وشجعاناً يفخر بهم كل أقرانهم، وتتطلع اليهم الفتيات أعجاباً، ويمتدحهم الشيوخ. ومنذ الصغر ربطت أواصر صداقة متينة بين هؤلاء الأشقاء، فلم يفترقوا لحظة، ولم يتشاجروا مرة، ولم يختلفوا قط.

وذات يوم خرج الاخوة الى السهب للصيد بالصقر.

وظلوا يطوفون بالسهب طويلا فلم تقع أنظارهم على وحش أو طير. وكانوا على وشك العودة الى قريتهم حينما رأوا فجأة ثعلباً أحمر كالنار يعدو في السهب ملتصقاً بالأرض. وثعلب كهذا فراؤه ثمين! فاطلق الأخ الأكبر الصقر من عقاله، فنشر جناحيه وصعد الى عنان السماء، وانقض كالبرق على الثعلب.

وحث الفرسان جيادهم، وانطلقوا كالريح الى المكان الذي هبط فيه الصقر، فرأوا عجباً: لم يكن الثعلب هناك، وكأنما لم يكن له وجود، بينما كان الصقر جاثماً على لوح حجري. ولم يكن اللوح عادياً. فقد رسم عليه حفار ساحر فتاة رائعة الجمال. وعلى حافة اللوح خط نقش مزخرف: «من يجد صورتي ويحملها الي يصبح زوجي وسيدي».

وقف الأخوة صامتين أمام هذه اللقية الغامضة، وفي قلب كل منهم تاجج حب جارف لتلك الحسناء التي كانت تطل عليهم من الحجر وكأنها حية.

وقال الأخ الأكبر:

— ماذا نفعل الآن يا أخوتي؟ لقد عثرنا على الحجر السحري نحن الثلاثة.

فقال الأخ الأوسط:

– فلنجر القرعة، وليحكم القدر أينا يذهب الى الحسناء.

لكن الأخ الأصغر قال:

– يا أخوتي، نحن الثلاثة وجدنا الحجر. فلنبحث معاً عن الحسناء. فاذا واتانا الحظ وعثرنا عليها، فلتختر هي بنفسها من بيننا زوجها.

واتفقوا على ذلك. ورفعوا اللوح فاذا تحته عجيبة أخرى. كان هناك كنز ثمين في كيس جلدي: ثلاثة آلاف قطعة ذهبية قديمة. وقسم الاخوة النقود بالتساوى فيما بينهم، وانطلقوا يبحثون عن العروس.

وجابوا أنحاء السهوب طولا وعرضاً، وتهرأت السروج تحتهم، وتقطعت أحزمتهم، وهلكت الجياد تعباً. ولكنهم لم يعثروا للفتاة المنقوشة صورتها على الحجر على أثر. وأخيراً وصلوا الى عاصمة الخان. وعلى حدودها قابلوا امرأة عجوزاً فأروها صورة الفتاة المنقوشة وسألوها ان كانت تعرف أين تعيش هذه الحسناء.

فأجابت المرأة:

– وكيف لاأعرف! انها ابنة خاننا. واسمها آيسلو*. وليس في الدنيا كلها مثيل لها في الجمال ومكارم الأخلاق.

ونسي الأخوة تعبهم ومشقة الطريق الطويل وأسرعوا الى قصر الخان. وعندما رأى الحراس النقش على الحجر أفسحوا لهم الطريق الى مخدع ابنة الخان.

وحين رأى الاخوة آيسلو الحية تسمروا في أماكنهم. فقد كانت الحسناء التى تحمل اسم البدر أبهى من الشمس.

وسألتهم آيسلو:

– من أنتم؟ وماالذي جاء بكم الى هنا؟

فاجاب الأخ الأكبر بالنيابة من اخويه:

– ياسيدتي، كنا نصطاد في السهوب، فوجدنا هذا اللوح وعليه صورتك وها نحن قد حملناه اليك بعد أنجبنا نصف الدنيا. فلتفى بوعدك ياآيسلو! اختاري لك زوجاً من بيننا.

فنهضت الحسناء من على البساط الثمين واقتربت من الاخوة وقالت لهم:

---

* «آي» تعني القمر و «سلو» تعني الحسنا بالقازاخية – **الناشر.**

– أيها الفرسان، أنا لا أتراجع عن وعدي. ولكن كيف أحكم بالعدل اذا كنتم متساوين أمامي! كيف أميز بينكم وأختار أجدركم؟ حسنا، فلأختبر حبكم لي. سوف أصبح زوجة لمن يأتيني منكم خلال شهر بهدية نادرة. فهل أنتم موافقون على هذا الشرط؟

فانحنى الاخوة لها، ومضوا من فورهم راحلين، وهم لا يدرون أن ابنة الخان قد أحبت من صميم قلبها أصغرهم. وكان حبها جارفاً حتى أنها منذ تلك اللحظة أخذت تذبل وتذوي، وكأنما أصابها داء خطير، وسرعان ما رقدت طريحة الفراش، ولم تعد تتعرف حتى على أبيها. وتملك الخان الياس، فدعا اليه الأطباء والحكماء من كل أنحاء العالم، ووعد من يشفيها مكافأة ألف ناقة. وامتلأ القصر بالحكماء والسحرة، ولكن صحة ابنة الخان الحسناء كانت تتدهور يوماً بعد يوم.

أما الاخوة فكانوا في تلك الأثناء بعيدين من العاصمة. وساروا طويلا معاً الى أن تشعب الطريق فتفرق الفرسان كل في ناحية، بعد أن اتفقوا على اللقاء في هذا المكان بعد شهر.

مضى الأخ الأكبر الى اليمين، وبعد مسيرة عدة أيام بلغ مدينة كبيرة. وطاف بكل حوانيتها حتى رأى في واحد منها مرآة صغيرة بديعة الصنع في أطار ذهبي.

فسأل الشاب:

– كم تساوي هذه المرآة؟

– المرآة تساوي مائة ذهب، أما سرها فيساوي خمسمائة.

– وما هو سرها؟

– عندما تنظر في هذه المرآة ساعة الفجر ترى الأرض بما عليها من مدن وقرى ورحل.

فقال الشاب لنفسه: «هذه هي الهدية التي أبتغيها!» ودفع المبلغ دون تردد. ووضع المرآة في صدره، وعاد أدراجه الى مكان اللقاء.

أما الأخ الأوسط فقد مضى الى الأمام في الطريق الأوسط. وبلغ هو الآخر مدينة غريبة. ورأى في السوق، التي كان يبيع فيها تجار أجانب بساطاً ساطع الألوان غريب الزخارف.

فسأل البائع:

– كم ثمن هذا البساط؟

– البساط ثمنه خمسمائة ذهب، وسره يساوي نفس المبلغ.

– عن أي سر تتحدث؟

– انه بساط الريح! فهو يستطيع أن ينقل الانسان في لحظة واحدة الى أي مكان في الدنيا.

وأعطى الشاب للبائع كل ما معه من نقود، وطوى البساط، وغادر المدينة متهللا.

أما الأخ الأصغر فقد توجه الى اليسار عند مفرق الطرق. وقاده طريقه الى مدينة أجنبية. وطاف بشوارعها طويلا، وتفحص كل حوانيتها، ولكنه لم يعثر على شيء جدير بمحبوبته. فقد الأمل تماماً وتملكه اليأس واذ به يرى شيئاً براقاً في حانوت صغير قذر يجلس عجوز دميم.

فسأله الفارس:

– ماهذا؟

فمد له التاجر مشطا ذهبياً مرصعاً بالأحجار الكريمة. وبرقت عينا الشاب وسأل:

– ماذا تطلب ثمناً للمشط؟

فضحك البائع بصوت مبحوح ودمدم بسخط:

– اغرب عن هنا! من أين لك أن تشتري هذا المشط! أن ثمنه ألف ذهب، وسره يساوي الفين.

– وماهو سر مشطك اذا كنت تطلب هذا الثمن الكبير؟

فأجاب العجوز:

– اذا مشطت بهذا المشط شعر مريض تعود اليه الصحة، واذا مشطت به شعر ميت بعث حياً.

فقال الشاب محزونا:

– كل ما أملك ألف ذهب. أرجوك بعني المشط بهذا المبلغ، ففيه سعادتي.

تبسم العجوز ابتسامة شوهاء ودمدم:

– حسناً، خذ المشط بالف ذهب، اذا كنت توافق على أن تعطيني فوق ذلك قطعة من لحمك.

وأدرك الشاب أن العجوز ليس بائعاً بل آكل لحوم بشر شرير، ولكنه لم يجبن ولم يتخاذل. فاخرج من جيبه النقود في صمت، ثم استل خنجره وقطع من صدره قطعة لحم، وقدم للعجوز هذا الثمن الدامي. وأصبح المشط ملكه.

وبعد ثلاثين يوماً بالضبط التقى الاخوة عند مفترق الطرق. وتعانقوا وسأل كل منهم أخاه عن صحته وأحواله، وراحوا يتفاخرون بما اقتنوه.

وفكر كل منهم في نفسه: «ترى أية هدية ستعجب آيسلو أكثر من غيرها؟ فالهدايا الثلاث كلها رائعة بنفس الدرجة: المرآة والبساط والمشط».

وقضوا ليلتهم في السمر والحديث. وفي الفجر عندما أضاءت المشرق نجمة الصباح رغب الاخوة في رؤية ما يجرى فى الدنيا فتطلعوا في المرآة.

ومرت الدنيا كلها أمام أعينهم، وظهرت عاصمة الخان. ولكن ماهذا؟ الشوارع أمام القصر غاصة بجموع حزينة. وهناك موكب جنازة. وهاهم يحملون الميت في نعش ثمين، ومن خلفه يسير الخان محنى الظهر من هول المصاب، والدموع تسيل من عينيه. وأدرك الاخوة في فزع أن آيسلو الجميلة هي التي ماتت.

وعلى الفور نشر الأخ الأوسط البساط السحري، فوقف فوقه الفرسان الثلاثة وقد تشبثوا بعضهم ببعض. وارتفع البساط حتى بلغ السحاب، وبعد لحظة حط عند قبر ابنة الخان المفتوح. وتراجع الجمع. ونظر الخان من بين دموعه الى الفرسان الثلاثة الذين هبطوا من السماء فجأة وهو لايدرك ماذا يحدث. أما الأخ الأصغر فأسرع الى الحسناء الميتة فمشط شعرها بالمشط الذهبي.

وشهقت آيسلو وانتفضت ثم نهضت واقفة على قدميها، رائعة كما كانت بل وأروع. وضم الخان ابنته الى صدره. وضجت الجموع وهللت. وتوجه الجميع الى القصر تغمرهم الفرحة والسعادة.

وفي ذلك اليوم أقام الخان وليمة عظيمة دعا اليها كل أهل العاصمة. بل ودعوا حتى ذلك العجوز الفقير الذي كان يجمع الفضلات في السوق. وجلس الاخوة الثلاثة فى صدر المائدة، وكانت آيسلو نفسها تقدم لهم الطعام والشراب. وعاد الفرسان يسألونها من منهم تنوى أن تختاره زوجاً.

وعلا الحزن وجه آيسلو وسالت دمعة على رموشها، وقالت:

– أنا أحب واحداً منكم، ولكنكم جميعاً متساوون أمامي حتى بعد الاختبار، لأن كل منكم جاءني بهدية لا مثيل لها.

وتوجهت الى أبيها في طلب النصح والمشورة. ففكر الخان ثم قال:

– لولا المرآة التي حصل عليها الأخ الأكبر لما عرفتم أيها الفرسان بموت آيسلو. ولولا البساط الذي اشتراه الأخ الأوسط لما وصلتم في الوقت المناسب الى الجنازة. ولولا المشط الذى جاء به الأخ الأصغر لما أعدتم الروح الى ابنتي. انني مستعد أن أهبكم نصف ثروتي عن طيب خاطر، ولكني لا أستطيع أن أحكم لمن منكم اعطي آيسلو زوجة.

وفجأة تردد وسط الجمع صوت العجوز الفقير:
– أيها الخان العظيم، أسمح لي بكلمة.
وكان الخان سعيداً وسمحاً في ذلك اليوم فقال للعجوز:
– تكلم!
فقال العجوز الفقير:
– بعد أن وزنت كل الأمور، ولو كنت قاضياً لحكمت بالتالي: فلتكن آيسلو زوجة لمن دفع أغلى ثمن مقابل الهدية.
فأومأ الخان برأسه موافقاً:
– فليكن كذلك!
فقال الأخ الاكبر:
– أنا دفعت مقابل المرآة ستمائة قطعة ذهبية.
وقال الأخ الأوسط:
– وأنا دفعت مقابل البساط ألف قطعة ذهبية.
وقال الأخ الأصغر:
– وأنا دفعت مقابل المشط ألف قطعة ذهبية و...
وتلعثم الأخ الأصغر وصمت مطأطىء الرأس.
فصاح الخان:
– تكلم! قل الحق!
عندئذ فتح الشاب رداءه كاشفاً عن صدره فرأى الجميع جرحاً غائراً فيه.
وصرخت آيسلو وغطت وجهها بيديها. أما الخان فقد ضم البطل اليه وقال:
– أعطيك ابنتي زوجة. فلتكن صهري ووريثي.
والتفت الى الضيوف وأعلن على رؤوس الأشهاد أنه قد عين الأخوين الأكبرين وزيرين عنده، أما العجوز الفقير الذي أعطى النصيحة الحكيمة فقد جعله كبير القضاة.
وبعد ذلك استمرت الوليمة وامتدت ثلاثين يوماً بلياليها، وأقيمت الأفراح أربعين يوماً أخرى، وبقيت الذكرى حتى يومنا هذا.

الملك سليمان وطائر السبد

كانت قصور الملك سليمان عامرة بالكنوز الثمينة، ولكنه كان يحرص أكثر ما يحرص على خاتم ذهبي لم ينزعه من أصبعه. وكان هذا الخاتم مسحوراً... من يلبسه يعرف لسان الوحوش والطيور والنباتات، ويصبح سيداً مسيطراً على كل دابة حية.

وذات مرة، وبينما كان سليمان في رحلة صيد، أراد أن يرطب وجهه بماء الجدول البارد. وحينما غرف الماء براحته انزلق الخاتم من أصبعه وسقط في الماء. وهم سليمان بالقاء نفسه في الماء لالتقاط الخاتم، ولكن في تلك اللحظة مرت سمكة كبيرة فابتلعت الخاتم، وضربت الماء بذيلها، وغاصت في أعماق الجدول.

وسار سليمان على الشاطىء مهموماً حزيناً، وقضى وقتاً طويلا في السير وهو لا يدري، حتى رأى أمامه كوخاً وحيداً وبجواره شباك صيد نشرت لتجف.

كان الليل قد اقترب، فدخل سليمان الكوخ. وما أن عبر عتبته حتى سمع صوتاً قبيحاً يقول:

— شكراً للاقدار، جاءنا العشاء الى الدار.

وتملك الرعب سليمان الملك، اذ رأى أمامه وسط الكوخ الغولة المهولة. وهي تمد نحوه مخالبها. وأسرع سليمان يستل خنجره ليدافع عن نفسه، واذ به يسمع صوتاً عذبا كشدو البلابل:

— لا تلمسيه ياأماه، أنظري كم هو جميل ومهيب. حتى الملك سليمان لايبدو أجمل وأعظم منه.

والتفت الملك ناحية الصوت، فدق قلبه دقاً عنيفاً واشتعلت في ضلوعه

نار الهوى... فقد رأى على البساط بجوار الموقد فتاة بارعة الجمال تهون في سبيلها الحياة.

وقالت الغولة المهولة:

– أنت محظوظ أيها الغريب اذ أعجبت بك ابنتي «بولوك». سأعفو عنك ولن آكلك, فلترحل سريعاً فعما قريب يأتي، زوجي وعندئذ لن يرحمك.

فقال لها سليمان:

– لن أتحرك من هنا الا اذا أخذت في يدي «بولوك» الجميلة.

وفي هذه اللحظة هاج النهر، وزلزلت الأرض، واهتزت أركان الكوخ، كأنما هب أعصار. واضطربت الغولة وهرولت من ركن لركن، ثم فتحت صندوق الثياب وصاحت في سليمان:

– أدخل أيها الأحمق الصندوق! هيا بسرعة!

وما أن أغلقت عليه غطاء الصندوق حتى اقتحم الكوخ الغول «دياو» العجوز.

وزأر بصوت هادر عملاق:

– أشم رائحة بشر!

فانهالت عليه زوجته الغولة تقريعاً:

– يبدو أنك خرفت تماماً أيها العجوز الأحمق! انها رائحة الفارس الذي أكلناه بالأمس. أما اليوم فلم يدخل بيتنا بشر.

وانقضت الليلة. وفي الفجر مضى «دياو» الى النهر ليصطاد السمك وسرعان ما عاد بصيد وفير.

وأمر زوجته وابنته:

– أعدا الفطور. أما أنا فسأذهب لأبحث عن صيد للغداء, فربما عثرت على فارس أو حصانه.

وما أن خرج حتى فتحت الغولة الصندوق وأخرجت منه سليمان وهي تدفعه في ظهره نحو الباب وتقول:

– اغرب عن وجهي أيها الغريب! يكفيني ما عانيته من خوف بسببك.

ولكن سليمان لم يبرح مكانه ولم يحول عينيه عن «بولوك» الحسناء.

كانت الفتاة تنظف السمك كما أمر أبوها. وها هي تشق بالسكين بطن سمكة كبيرة، واذا هي تشهق من المفاجاة وهي تخرج من بطن السمكة خاتماً ذهبياً. ولكن الخاتم انزلق من بين أصابعها وتدحرج حتى قدمي سليمان. والتقطه الملك ووضعه في أصبعه. وفي التو واللحظة عاد سليمان جباراً وحكيماً كما كان.

وقال وهو لايخفي فرحته:

– أنا الملك سليمان! هل تريدين يا «بولوك» أن تصبحي زوجتي وملكة الديار؟

وأصبحت «بولوك» ملكة، تنام على الوسائد الحريرية، وتأكل في الاطباق الذهبية والفضية، وتلبس الثياب المخملية.

ولم يبخل سليمان عليها بشيء، وترك عنه أمور الحكم وأصبح لا يفكر الا فيها وفي ارضاء رغباتها.

وذات مرة قال لها:

– لو تشائين يا «بولوك» لبنيت لك قصراً من الذهب والماس.

فقالت «بولوك» وهي تزر عينيها بدلال:

– لا حاجة بي الى قصر من الذهب والماس. اذا كنت حقاً تحبني يا مولاي فلتشيد لي قصرا من عظام الطيور.

فاصدر الملك سليمان أوامره بان تأتي طيور الدنيا كلها فوراً اليه وأن تستعد للموت في طاعة وأذعان، فتيك مشيئة ملكة الديار.

وطارت الطيور الى قصر سليمان سحبا سوداء، بلا شدو أو زقزقة. ولبثت تنتظر نهايتها في أذعان: فقد كانت بلا حول أمام جبروت الخاتم السحرى والملك سليمان.

وتفقدت «بولوك» الطيور، ثم قالت بغضب:

– هناك طائر عصى أمرك يامولاي ولم يلب نداءك. وهذا الطائر اسمه السبد.

فثار سليمان، وأمر الغراب الاسود أن يبحث عن الخائن السبد ويأتي به الى القصر.

وغاب الغراب ثلاثة أيام وعاد خاوى الوفاض، اذ لم يجد للسبد أثرا. عندئذ ارسل الملك الصقر السريع الجناحين.

وعثر الصقر على السبد تحت حجر على جبل. وقد اختبأ العاصي هناك فلا يطاله منقار أو مخلب.

عندئذ خاطبه الصقر:

– أيها السبد المبجل، ماذا تفعل؟

– أفكر في فكرة.

– ماذا؟ ماذا قلت؟ أنا لم اسمع.

عندئذ أطل السبد برأسه من تحت الحجر فأطبق عليه الصقر وحمله بين مخالبه الى الملك.

والقى به عند قدمي سليمان، فدق سليمان الأرض بقدمه وصاح فيه:

– لماذا لم تأت ياسبد عندما سمعت ندائي؟

فأجاب السبد:

– كنت أفكر في فكرة.

– وفيم فكرت؟

– كنت أفكر، ماهو الأكثر في الدنيا: الجبال أم السهول.

– حسنا، والى أي شيء توصلت؟

– الجبال أكثر، اذا عددنا جبالا تلك الأكوام التي كومتها حيوانات الخلد في البيداء وهي تحفر جحورها.

– وفيم فكرت أيضا؟

– فكرت من الأكثر: الأحياء أم الأموات.

– فمن هم الاكثر في نظرك؟

– الأموات أكثر، اذا عددنا النائمين أمواتاً.

– وفيم فكرت أيضاً؟

– فكرت من الاكثر: الرجال أم النساء.

– ومن الأكثر؟

– النساء يامولاي اكثر بكثير، اذا اعتبرنا من عدادهن أولئك الرجال الضعاف القلوب، الذين فقدوا صوابهم، فتراهم مستعدين لتلبية كل نزوة نسائية.

وعندما قال السبد ذلك غطى سليمان وجهه براحتيه ليخفي حمرة خجله: فقد أدرك الملك ما يرمي اليه الطائر الصغير. وعلى الفور أطلق سراح رعاياه الطيور، فانطلقت تحلق وهي تشدو وتزقزق، عائدة الى أوكارها الحبيبة.

وهكذا لم يشيد القصر من عظام الطيور. وكان ذلك بفضل طائر السبد الذكي الذي أنقذ الطيور من الهلاك، فاختارته سيدا لها الى أبد الآبدين.

الحلم المشترى

كان سرسمباي ولدا يتيماً، مات أبوه وأمه، فضاق به العيش، ولم يجد أمامه الا أن يعمل راعيا عند البيك. وعرض عليه البيك أن يعطيه مقابل الرعى نعجة عرجاء عندما يأتي الخريف. ورضى سرسمباي بذلك، ومضى يرعى غنم البيك, ويأكل من فضلات طعامه، وينتظر الخريف.

وكان يقول لنفسه: «عندما يأتي الخريف, سأحصل على النعجة العرجاء، وعندئذ أعرف طعم اللحم...».

وذات مرة كان سرسمباي ينتقل بالقطيع الى مرعى جديد فاذا بالذئب يبرز فجأة من خلف أكمة ويقول له:

– أعطني خروفاً! أن لم تعطني واحداً ذبحت عشرة.

– وكيف أعطيك خروفاً ياذئب اذا كان القطيع ليس لي؟ سيقتلني البيك لو نقص القطيع.

– انني جائع جداً. اذهب الى البيك وأطلب منه خروفاً لي.

وذهب سرسمباى الى البيك وروى له القصة كلها.

ففكر الباي على النحو التالى: العشرة أكثر من الواحد. والخروف الواحد أرخص من عشرة خراف. ثم قال للراعي:

– فليأخذ الذئب خروفاً، بشرط ألا يختار. أعصب له عينيه بالمنديل. وما يمسك به فهو له.

وصنع سرسمباي مثلما أمره البيك.

وأنقض الذئب بعينين معصوبتين على وسط القطيع، وذبح نعجة. وهناك مثل يقول: «قليل الحظ يجد العظمة حتى في الكرشة». وهذا ما حدث لسرسمباي. اذ أن النعجة التي أمسك بها الذئب وذبحها كانت

هي النعجة العرجاء التي وعد بها البيك الراعي. وبكى سرسمباي بحرقة على حظه التعيس، حتى أن الذئب أشفق عليه، وقال له:

– ما العمل أيها الراعي، يبدو أن حظك هكذا. حسناً، سأترك لك جلد النعجة فربما بعته واستفدت بثمنه.

ورفع سرسمباي جلد النعجة ووضعه على كتفه وساق القطيع.

وقابله البيك على جواده الأحمر. ووقف البيك في الركاب ومضى يعد القطيع، فوجده سليماً لم ينقص الا العرجاء. ثم ظهر سرسمباي خلف القطيع وفي يده عصى الراعي، وعلى كتفه جلد نعجة، ومن عينيه تتساقط الدموع.

وقهقه البيك حتى اهتز الجواد تحته، وقال:

– يالك من راعي! لم تستطع حماية نعجتك، واذن فلن تستطيع حماية غنمي... اغرب عن وجهي! لقد دفعت لك حسابك.

ومضى سرسمباي هائماً في السهوب.

سار حتى بلغ مدينة بعيدة، فقصد السوق، وتسكع هناك طويلا وسط الحشد ولكن لم يسأله أحد عن ثمن جلد النعجة. وقبيل المساء فقط تمكن الصبي من بيعه لشخص ما بثلاثة قروش.

«سأشتري بالقروش الثلاثة ثلاثة ارغفة. وبالأرغفة الثلاثة سأعيش ثلاثة أيام. وبعد ذلك فليكن ما يكون...».

ومضى نحو المخبز، ولكنه صادف في الطريق عجوزاً مريضاً يسأل احساناً. فاعطاه سرسمباي قرشا، وأبقى لنفسه قرشين.

وأومأ العجوز برأسه، ثم أنحنى الى الأرض وأخذ من الطريق قبضة رمل ومدها للصبي، قائلا:

– خذ يابني، مكافاة لك على طيبة قلبك.

وظن سرسمباي أن العجوز مخبول، ولم يشأ أن يغضبه فأخذ منه الرمل وصبه في جيبه.

وهبط الليل، وخيم الظلام، فأين يضع الراعي الشريد رأسه لينام؟ وتوجه الى «المسافرخانة» لينام، فطلب منه صاحبها قرشا. واضطر سرسمباي الى دفع المبلغ المطلوب.

وأرقد صاحب النزل كل زبائنه على البسط والاحرمة، أما سرسمباي فقد أمره أن ينام على الأرض العارية.

كانت رقدة الصبي مزعجة فرأى أحلاماً مزعجة وهو نائم على الأرض الباردة الصلبة.

وفي الفجر دبت الحركة في «المسافرخانة»، وخرج الرواد الى الفناء, ومضى التجار يحزمون أمتعتهم على الجمال وهم يتحدثون. قال أحدهم:

– رأيت هذه الليلة حلماً عجيباً. وكانما أنا راقد كالخان على مرقد وثير، وفوقي انحنت الشمس الساطعة, وعلى صدري يلهو الهلال المشرق.

واقترب سرسمباي من التاجر وقال له:

– أنا لم أر في حياتي حلما جميلا. بعنى ياعم حلمك! فليصبح هذا الحلم حلمي.

فضحك التاجر وقال:

– أبيعك الحلم؟ تفضل. ماذا ستعطيني لقاءه؟

– معي قرش واحد... هامو.

فصاح التاجر:

– هات قرشك! اتفقنا. منذ الآن أصبح حلمي ملكاً لك ياغلام!

وقهقه التاجر ضاحكاً، وقهقه كل من كان في «المسافرخانة». أما الراعي, فكان مسروراً بما اشتراه فخرج الى الفناء وهو يقفز طرباً.

وسار سرسمباي يبحث عن عمل، فقطع دروباً طويلة، ومر على قرى كثيرة، ولكنه لم يجد فيها عملا ولم يعثر على سقف ينام تحته، ولم تمتد له يد بكوب لبن رائب.

وحل الشتاء. وفي ليلة باردة مظلمة مضى سرسمباى في السهب، وهو ينفخ في راحتيه ليبعث فيهما الدفء. وكانت الريح القارسة تلسع وجهه وتهز بدنه فيتارجح. وأخذ سرسمباى يبكي فتتجمد الدموع على خديه فخر على الارض مهدوداً, ودمدم في يأس:

– لو تريحني الذئاب من هذا العذاب فتأكلني!

وما أن قال ذلك حتى ظهر من وسط الظلام ذئب ضخم؛ منتصب الشعر، متوقد العينين.

وصاح الذئب:

– أخيراً وجدت فريسة! كم سيفرح أولادي.

فقال الغلام بصوت خافت:

– كلني ياذئب، وليفرح أولادك. الموت أفضل لي من هذه الحياة...

ولكن الذئب لم يتحرك من مكانه، بل راح ينظر الى الصبي ملياً. وأخيراً قال:

– ألست أنت سرسمباي الذي أعطاني النعجة العرجاء؟ مرحباً لقد عرفتك. لاتخش شيئاً، فلن أمسك، وربما ساعدتك على النجاة. أركب على ظهري وأمسك جيدا بشعري.

وركب سرسمباي على ظهر الذئب، فانطلق به وسط الثلوج الغزيرة، حتى بلغ طرف غابة فقال له:

– هل ترى تلك النار يا سرسمباي؟ انها نار تركتها عصابة من اللصوص كانوا يستريحون هنا. وهو الآن قد ذهبوا بعيداً ولن يرجعوا قريباً... اذهب وتدفأ عند النار. وفي الصباح ربما يصبح الجو أدفأ. وداعاً!

واختفى الذئب. أما سرسمباي فتوجه الى النار. وبعد قليل أحس بالدفء، بل وأصاب قليلا من الطعام اذ لحق العظام التي تركها اللصوص حول النار. وأحس بالسعادة حتى انه كان على وشك ان يغني، فما أقل مايرضى به المسكين!

وبدأت أشعة الفجر تلوح، واحترقت بقايا الحطب ثم انطفأت النار. وعندئذ دس الصبي يديه في الرماد الدافيء ليتقي البرد. وأحس بالدفء يسري في يديه فأخذ يدفعها أعمق فأعمق، وفجأة أحس بشيء ما يصطدم بأصابعه. واستخرجه سرسمباي من الرماد وشهق... كانت علبة ذهبية! ودق قلب الصبي... ترى ماذا في العلبة؟

وفتح سرسمباي غطاءها. وفي تلك اللحظة بزغت الشمس وظهر طرف قرصها فوق حافة الأرض وسقط أول شعاع منها على العلبة المفتوحة. وصرخ سرسمباي وأغمض عينيه مبهوراً من الوهج الصاعق... فقد كانت العلبة مليئة بالجواهر!...

وضم الصبي العلبة الى صدره وانطلق راكضاً في الغابة وهو لايحس بساقيه من فرط السعادة.

وكان يفكر: «المهم أن أصل بسرعة الى العمار! سوف أعيش الآن في رغد وسأنسى الشقاء... ثروتي تكفي مائة شخص».

ولكن الغابة كانت تزداد كثافة، وتملك سرسمباي الخوف والقلق من توغله في الغابة الى هذا الحد.

وقال لنفسه: وماذا سأفعل بثروتي في هذه الأدغال الكثيفة الموحشة؟»

ولكنه لمح ضوءاً بين الأشجار فاتجه نحوه فاذا به وسط فسحة واسعة في الغابة. وهناك وسط الفسحة، على شاطىء نهر غير متجمد المياه انتصبت خيمة كبيرة بادية الثراء، مغطاة بكليم أبيض.

وقال سرسمباي لنفسه: «أي قوم يعيشون هنا ياترى؟ ألن يؤذوا صبياً مسكيناً مثلي؟»

خبأ سرسمباي العلبة الذهبية في تجويف بشجرة بلوط عتيقة، ودخل الخيمة محيياً:

– السلام عليكم.

وكان هناك موقد مشتعل، وبجواره جلست فتاة صغيرة مستغرقة في التفكير. وعندما رأت الفتى الغريب هبت واقفة وحملقت فيه بعينين مدهوشتين مزعورتين.

وأخيراً سألته:

– من أنت، أيها الصبي، وكيف جئت الى هنا؟

حدق سرسمباي في الفتاة دون أن يقدر على التفوه بكلمة. فقد كانت حسناء لم ير لها مثيلا ولم يسمع عن جمالها الا في أغاني المنشدين. ولكن ملامح الحزن العميق كانت بادية عليها، وكان وجهها شاحباً بلون الثلج.

ثم تمالك الصبي نفسه وقال:

– أنا سرسمباي اليتيم. أهيم في الدنيا بحثاً عن عمل ومأوى ومطعم، وقد ضللت طريقي فصادفت بيتك. ومن أنت أيتها الفتاة؟

فتقدمت الفتاة نحوه وقالت وهي ترتعش من الانفعال:

– اسمي ألتين – كيز، وليس هناك في الدنيا فتاة أتعس مني. ولكن ماذا بوسعك ان تفعل لي يا سرسمباي؟ انت نفسك في خطر رهيب... اهرب من هنا باسرع ما تستطيع، اركض اذا استطعت أن تنجو من هذه البقعة المهلكة اللعينة. هل تعرف الى أين ألقى بك حظك البائس؟ هذه الخيمة هي بيت الغولة المهولة. وسوف تاتي قريباً، وعندئذ سيدركك الهلاك. انج بنفسك قبل فوات الأوان!...

وفي هذه اللحظة دوى خلف الباب ضجيج وصرير ووقع أقدام. وازدادت الفتاة شحوباً.

وقالت في رعب:

– فات الأوان!

وامسكت بيد سرسمباي وسحبته بعيداً عن الموقد وغطته بكليم. وكتم سرسمباي انفاسه، ولكنه كان يرى من خلال ثقب صغير مايحدث في الخيمة.

وانفتح الباب على مصراعيه ودخلت الخيمة الغولة المهولة. كانت شفتاها حمراوين، وأنفها معقوفاً كالخطاف، وشعرها مشعث، منتصب، وأسنانها بارزة كاسنان الذئبة. وطافت على الخيمة بعينين كليلتين، وجلست بجوار الموقد، ومدت الى النار اصابعها الطويلة المعروقة. وهكذا ظلت جالسة بعض الوقت وهي تزفر زفرات ثقيلة، بينما وقفت التين – كيز غير بعيد بلاحراك.

وبعد أن تدفأت الغولة قالت بصوت أبح:

– يا التين – كيز، تعالي هنا.

خطت الفتاة وهى ترتعش خوفا نحو الغولة ثم توقفت، فامسكت هذه بها بأصابعها الخطافية وشدتها اليها.

وتأوهت التين – كيز من الألم، وشد سرسمباى قبضتيه وهو على وشك أن ينقض على الغولة، ولكن الغولة صرخت بغضب ودفعت الفتاة بعيدا عنها صائحة:

– ياملعونة! مالك تشحبين وتذبلين يوماً بعد يوم؟ ام انك لا تعرفين لماذا أبقي عليك في خيمتي ؟ كان ينبغي أن آكلك منذ وقت طويل، ولكني أؤجل ذلك على أمل أن تعقلي وتسمني ولتسمعي ولتذكري. اذا عدت غدا و وجدتك كما أنت هكذا نحيفة فسأشويك حية في هذه النار!

وتمددت الغولة على الفراش وراحت تشخر. أما التين – كيز فجلست الى النار تبكي طول الليل.

وفي الصباح هددتها الغولة مرة ثانية، وخرجت من الخيمة. ودوى خلف الباب ضجيج وصرير ووقع اقدام ثم سكن كل شيء.

وخرج سرسمباي من تحت الكليم وسأل الفتاة:

– خبريني يا التين – كيز، كيف أصبحت أسيرة عند هذه الغولة الشريرة؟

فشرعت التين – كيز تروي له:

– كنت أعيش في قريتنا مع أبي وأمي في سعادة وسرور. وذات مرة ذهب والداي في زيارة، وقال لي أبي وهو يودعني: «ستبقين يابنيتي الحبيبة وحدك طول النهار. لاتخرجي يابنيتي، من البيت ولاتفتحي لأحد». ولكن سرعان ما شعرت بالملل فخرجت الى عتبة الدار. وأسرعت نحوي صديقاتي ودعونني الى الذهاب الى السهوب لنجمع الزهور. ويا لى من حمقاء، فقد ذهبت معهن. وبينما أنا أجمع الزهور رأيت

عجوزاً مهدمة تسير نحوي وهي تتوكأ على عصى. وقالت عندما رأتني: «ماأجملك يا صبية، ماأحلاك يابنية. هل تسكنين بعيداً؟» – «كلا، ليس بعيداً، هذه هي خيمتنا». – «اذن خذيني الى بيتك واسقيني ماء». ولم يتبادر الى ذهني أي سوء فأخذتها الى القرية وسقيتها ماء. ولم تنصرف من الخيمة ظلت تتطلع الي وتقول: «ماأجملك، ياصبية ماأحلاك، يابنية! تعالي أمشط لك شعرك». فوضعت رأسي على ركبتيها، واخرجت هي مشطا ذهبيا وراحت تمشط لي شعرى. وعلى الفور أحسست برغبة في النوم، فأغمضت عيني في نوم عميق. ولم أعرف كم من الزمن نمت، وعندما أفقت وجدت نفسي في هذه الخيمة. لقد مر منذ ذلك زمن طويل ولم أشاهد أحداً الا هذه الغولة معذبتي. وها آنذا أنتظر الموت في كل يوم.

وعندما انتهت ألتين – كيز من روايتها أخذت تبكي ثانية وتتوسل الى سرسمباي أن ينجو بجلده قبل أن تعود الغولة.

ولكن سرسمباي كان يرد على توسلاتها بابتسامة رقيقة، ثم عانقها كأخته وقال لها:

– لن أتركك أبدا ياألتين – كيز. سوف نهرب معا...

فأجابته ألتين – كيز:

– شكرا، ياسرسمباى على كلماتك الطيبة، ولكن ما تقوله لن يتحقق أبداً. فلو هربنا لأدركتنا الغولة في الطريق، وحتى اذا لم تلحق بنا فسنهلك من البرد وسط الثلوج.

– فلننتظر حتى حلول الربيع ثم نهرب...

فزفرت ألتين – كيز بمرارة وقالت:

– الشجعان كثيراً ما يتهورون. يبدو أنك نسيت أن الغولة ستأكلني اليوم.

فهتف الفتي بحماسة:

– لا ياألتين – كيز! لن تموتي. لقد فكرت في الأمر. ان الغولة ماكرة ولكنا سنكون أمكر منها. الخيمة مظلمة، وسالبس ثوبك وأخرج لملاقاتها بدلا منك... فأنا أكبر وأسمن منك... ربما أسعدنا الحظ فخدعناها واستطعنا أن نبقى حتى حلول الدفء...

وألاحت ألتين – كيز بيديها معترضة وهي تقول انها لن تقبل أبدا هذه التضحية من سرسمباي. ولكن الراعي كان عنيداً وحازماً، فقال لها:

– اذا رفضت هذا يالتين ـ كيز فساهاجم الغولة اليوم وأموت قبلك.

عندئذ وافقت الفتاة. وتبادلا الثياب. واختبأت ألتين – كيز تحت الكليم، أما سرسمباي فجلس بجوار الموقد.

ودوى خلف الباب ضجيج وصرير ووقع أقدام، واندفعت الغولة الرهيبة الى داخل الخيمة.

وبعد أن استدفأت على النار صاحت بصوت أبح:

– يالتين ـ كيز، تعالي هنا!

فاقترب سرسمباي بشجاعة من الغولة، فنظرت اليه بعينيها الكليلتين و دمدمت:

– يبدو أنك كبرت خلال اليوم!

وراحت تجس بدن سرسمباي دون أن تفطن الى الخداع، ثم قرصته وقالت وهي تقهقه:

ـ يالك من فتاة مكارة! أنا خمنت من زمان أنك تحسبينني حمقاء. وما أن هددتك كما ينبغي حتى تغيرت... حسناً اذا كان كذلك فلتعيشي بعض الوقت لتسمني...

ومرت الأيام والليالي في شقاء وهم وقلق.

حتى قال سرسمباي لصاحبته ذات يوم:

– ياعزيزتي ألتين ـ كيز. ينبغي أن نستعد للهرب. لقد لاحظت ان الغولة اصبحت أكثر شراسة، فهل فطنت الى نوايانا؟ فلو عرفت بوجودي لهلكنا. سأصنع قوساً وأذهب للصيد، وسأصطاد بعض الطيور ليكون لدينا زاد للطريق. وبعد ثلاثة أيام سأعود سراً، ثم نهرب.

فقالت الفتاة وعيناها مغروقتان بالدموع:

– أفعل ماتراه يا سرسمباي. لكن أرجوك كن على حذر أثناء الصيد، وعد سليماً معافى.

فأجابها سرسمباي:

– لا تبكي يالتين ـ كيز ولا تحزني. واذا شعرت بالشوق الي فلتذهبي الى النهر ولتنظري في الماء. فاذا رأيت ريش أوز عائما. فأعلمي اني على قيد الحياة وأبعث اليك بتحياتي.

وودعا بعضهما بعضا. وسارت ألتين – كيز قليلا مع صديقها ثم عادت بسرعة خشية أن تعود الغولة فجأة فتجد الخيمة خاوية.

أما سرسمباي فسار مبتعداً بحناء النهر.

وفي أول يوم اصطاد ثلاث أوزات برية، فنزع ريشها والقى به في الماء. وفي اليوم الثاني اصطاد أيضاً ثلاث اوزات ونزع ريشها والقى به في الماء.

وفي اليوم الثالث رأى غزالاً صغيراً، ومن فوقه يحوم سرب من الغربان السود وهي تخفق بأجنحتها في صخب وتريد أن تنقر عيني الغزال. وأشفق الصبي على الغزال فطرد عنه الغربان.

وجاء الغزال العجوز ركضاً وقال:

– شكراً لك، ياسرسمباي. سوف أرد لك جميلك!

ومضى سرسمباي في طريقه، فاذا به يسمع نغاء متشكياً. فأطل في حفرة فرأى حملا جبلياً يصيح ويحول أن يخرج منها بلا طائل.

وأشفق عليه الصبي فأخرجه من الحفرة. وجاء الخروف الجبلي الكبير فقال له:

– شكراً لك، ياسرسمباي. سوف أرد لك جميلك!

ومضى سرسمباي في طريقه فاذا به يسمع صياحاً رفيعاً... ماهذا؟ وتطلع فاذا أمامه صقر صغير قد سقط من عشه. فأشفق عليه الصبي ورفعه من الأرض ووضعه في العش.

وجاء الصقر الكبير فقال له:

– شكراً يا سرسمباي. سوف أرد لك جميلك!

وهكذا لم يصطد سرسمباي في هذا اليوم شيئاً. بينما اقترب المساء. وهنا تذكر الصبي أنه لم يلق في النهر منذ الصباح ريشة واحدة، فانقبض قلبه. ترى ماذا تظن التين – كيز المسكينة الآن وهي واقفة بجوار النهر؟ وأسرع سرسمباي عائداً ركضاً.

أما التين – كيز فكانت تنتظره وتشتاق اليه. وماأن تخرج الفولة من الخيمة حتى تركض الفتاة الى النهر. فترى مياهه تصخب وتتدفق، وعلى صحفتها تسبح ريشات الأوز. فتبتسم الفتاة. «اذن سرسمباي حي!».

وجاءت في اليوم الثالث، آخر أيام الفراق، وأخذت تحدق في الماء. ولم تحول عنه عينيها. وظلت تحدق ساعة وساعتين، وثلاث ساعات...

والماء يتدفق ويصخب، ولكن ريش الأوز لا يظهر على صفحته...

وارتمت الفتاة على الشاطىء، وغطت وجهها براحتيها وانتحبت بحرقة ومرارة:

– لم يعد سرسمباي على قيد الحياة! مات الشجاع وهو لا يعلم أنني على استعداد أن أموت ألف مرة بشرط أن يعيش هو سعيداً...

واخذت المسكينة تبكي وتندب ولم تلاحظ ان الغولة أصبحت بجوارها. وكانت ترتجف من الغضب. وأمسكت الغولة باسيرتها من كتفيها وسحبتها الى الخيمة لتفتك بها.

وصاحت بها:

– انكشفت الاعيبك ايتها الماكرة! تريدين أن تهربي؟ وجدت من ينقذك؟ فلتعلمي اذن انك لن تهربي ولن يخلصك أحد. لقد حلت نهايتك!... الان ساجهز عليك!

وفي هذه اللحظة اصطفق الباب، ثم انفتح على مصراعيه، واذا سرسمباي واقف على العتبة. وانفلتت التين – كيز نحوه، وتعلقت برقبته، ولكن الغولة أطبقت عليها بقوة ولم تفلتها.

وصاح الصبي:

– مهلا يا غولة. اسمعيني. اطلقي سراح التين – كيز ساعطيك فدية كبيرة.

– ستعطيني فدية؟ يالك من وقح! أية فدية لديك أيها الصعلوك؟

فجاء سرسمباى بالعلبة الذهبية من تجويف الشجرة، وفتحها أمام الغولة. وماأن نظرت الغولة هذا الكنز الثمين حتى صرخت صرخة جشع، واطلقت الفتاة. فقد تغلب الطمع على الغضب.

– خذ البنت، خذها! وهات أحجارك!

ولكن سرسمباى لم يكن من المذاجة بحيث يعطيها العلبة في يدها مباشرة.

بل صاح وهو يبعثر الجواهر في جميع الجهات:

– هاهي الأحجار، ياغولة، فاجمعيها!

وتدحرجت الجواهر على الأرض وهي تبرق كالنجوم. وانقضت الغولة تجمعها في طرف ثوبها، بينما أمسك سرسمباي بالتين – كيز من يدها وانطلق بها خارج الخيمة.

وركضا معاً على غير هدى عبر الفسحة، ثم عبر الغابة دون أن يلتفتا خلفهما. وكانت الاغصان تخدشهما، وأشواك الأحراش تجرحهما، وجذوع الأشجار تسد عليهما الطريق. وخارت قوى التين – كيز، وتمزق قدماها وكانت تسوي جدائلها وتمسح العرق المتصبب من وجهها أثناء الجري.

وفجأة سمع الهاربان خلفهما ضجيجا وطقطقة. وتزلزلت الارض، وتساقطت الاشجار، فقد كانت الغولة تطاردهما.

وقال سرسمباى:

– فلنجر بسرعة ياألتين – كيز! أملنا كله الان في اقدامنا.

فقالت له التين – كيز:

– لم يعد لدي قوة، يا سرسمباي. رأسي يدور، وساقاي تخوران. اهرب وحدك! فالى ان تنتهى الغولة من أكلي تكون أنت قد ابتعدت بعيداً...

– ماهذا الذى تقولين، يا ألتين – كيز؟ لن اتركك وحدك أبدا! انت عندي أعلى من أي شيء في الدنيا.

وواصلا الركض، بينما اخذت الغولة تقترب منهما أكثر فاكثر. وأصبح صوتها مسموعاً. كانت تسب وتتوعد:

– مَهما يكن سالحق بكما! مهمايكن سآكلكما!

وسقطت التين– كيز وهي لاتكاد تتنفس، وقالت بصوت خافت:

– الوداع ياسرسمباى... دعني وانج بنفسك... أنا لن أنجو...

نبكى الصبي وقال:

– فلنمت اذن معا!

ورفع الفتاة وحملها على ظهره، وركض وهو يلهث. وفجاة، ظهر الغزال العجوز، وكانما انشقت عنه الارض، وقال:

– أنا لم أنس جميلك ياسرسمباى. اركبوا على ظهرى ياأبنائي، امسكوا بعنقي. لن تستطيع الغولة الملعونة ان تلحق بنا.

وحملهما الغزال العجوز في غمضة عين الى جبل عال وقال:

– الغولة لن تعثر عليكما هنا.

وجلس الصبي والفتاة عند سفح الجبل متلاصقين، ولكن قبل ان يستردا أنفاسهما نظرا فاذا الغولة تهرول نحوهما مباشرة وهي تعول وتصرخ وتثير سحب الغبار.

وقفز سرسمباى واقفا وحمى بجسمه صاحبته، وأمسك بحجر حاد في يده استعداداً للقتال.

وفجأة ظهر أمامهما الخروف الجبلي العجوز وكأنما انشقت الأرض عنه، وقال:

– أنا لم أنس جميلك ياسرسمباي. اركبوا على ظهري ياأولاد وامسكوا بقروني. سأنقذكم من المحنة.

وعندما وصلت الغولة الى الجبل كان الصبي والفتاة على قمته. وجن جنون الغولة فأخذت تقرض الجبل بأسنانها وتحفره بمخالبها. واهتز الجبل وأصبح على وشك الانهيار.

وفجأة حط الصقر العجوز على الجبل وقال:

– أنا لم أنس جميلك ياسرسمباى. اجلسوا ياأولاد على جناحي بسرعة. انت انقذت ابني ياسرسمباي، وسوف انقذك انت وصديقتك.

وقفز الصبي والفتاة على الصقر، فحلق بهما مرتفعا، وفي نفس اللحظة انهار الجبل على الغولة ودفنتها الصخور.

وطار الصقر يوما وليلة. كان تحت السحاب، وفوق السحاب. وها هو يهبط في قرية وسط السهوب.

ونزلت التين – كيز الى الأرض، ونظرت حولها، ثم صاحت من فرط السعادة:

– هذه قريتي!

وهرع أمها وأبوها على صوت صياحها، وارتميا على ابنتهما يعانقانها ويقبلانها ويلاطفانها.

– أين كنت طول هذه المدة يا التين – كيز؟ ماذا حدث لك يابنيتي؟ ومن الذي نشكره على انقاذك؟

فروت لهما التين – كيز كل شيء وأشارت الى سرسمباي:

– هاهو منقذي!

وكان سرسمباي واقفاً مطأطىء الرأس من الخجل، وقد غطاه التراب، وتمزقت ثيابه، وحفيت قدماه.

وقاده الأب والأم من يديه الى الخيمة، والبساه أبهى الثياب، وأجلساه في مكان الشرف. وقالا له:

– أبق عندنا ياسرسمباي العزيز، وعش معنا الى الأبد! سوف نرعاك كالوليد، وسنحترمك كالشيخ العجوز.

ومرت السنون. وعاش سرسمباي في القرية لا يفارق التين – كيز. وتقاسم معها الافراح والأتراح، والنعيم والشقاء. ولم يكن في السهوب فارس أشجع وأنبل من سرسمباى، ولم يكن في الدنيا فتاة أجمل وارق من التين – كيز. وبلغا مرحلة ربيع العمر فتزوجا، وعاشا في سعادة. وسرعان ما رزقا بولد كان مفخرة للأب وهناء للأم.

وذات مرة كان سرسمباى مستلقيا بعد العمل على العشب العطر،

وبجواره جلست التين – كيز وقد مالت فوقه، بينما أخذ ابنه يلهو فوق صدر أبيه. وضحك سرسمباي من فرط السعادة، وقال بفرح:

– ها قد تحقق الحلم الذي اشتريته، وأنا طفل، بقرش من أحد التجار في «المسافرخانة». أنظروا أيها الناس: انني نائم على مرقد وثير: على أرض وطني المقدسة. ومن فوقي انحنت الشمس: انها أنت يا التين – كيز الحبيبة. وعلى صدري يلهو هلال مشرق، ابننا العزيز، بكرينا... فأى ملك لا يحسدني في هذه اللحظة!

وتذكر سرسمباى طفولته التعيسة، فاراد ان يلقي نظرة أخرى على أسماله التي كانت على جسده عندما طرده البيك، طاف بها في الدنيا حتى التقى بالتين – كيز في خيمة الغولة الرهيبة. وأحضرت له زوجته رداءه الطفولى المهلهل. وأمسكه سرسمباي بين يديه وهز رأسه أسى، فقد كان الرداء مليئا بالثقوب، ولم تبق فيه سوى الخيوط. ورأى وسط الثقوب جيبا... وكان في الجيب شيء. ماهذا؟ ودس سرسمباى يده في الجيب واخرج حفنة من الرمل. وتذكر ذلك الشحاذ الذى تصدق عليه في السوق بقرش، وتذكر هدية الشحاذ الغريبة، فتنهد، وبعثر الرمل في الريح. وحملت الريح حبات الرمل الخفيفة وذرتها في السهوب. واذا بالسهوب كلها تمتلىء بالقطعان التي لا تعد ولا تحصى من الأبقار والخيول والأغنام والجمال.

خرج الناس من البيوت يسالون:

– لمن هذه القطعان الغفيرة؟ لمن الثروة الهائلة؟

فاجابهم سرسمباي:

– هذه القطعان الغفيرة لي ولكم، وهذه الثروة الهائلة لي ولكم.

ست الحسن ميرجان و ملك البحار

كان ياما كان، كانت هناك أرملة مسكينة، وعندها ابنة وحيدة. وكانت هذه البنت حسناء لا مثيل لها، واسمها ميرجان. وذات يوم ذهبت البنات الى النهر للاستحمام وأخذن معهن ميرجان.

وعند ما نزلن الماء قلن لها:

– كم أنت جميلة يا ميرجان! لو رآك الملك لقال لك: «ميرجان يا نور عيني، خذي كل ثرواتي وكوني زوجة لي».

فخجلت ميرجان وغضت بصرها. وقالت:

– لماذا تمزحن هكذا يا صديقاتي؟ لو رآني الملك لما نظر الي. فأنا أفقر من في القرية.

وما أن قالت هذا حتى دومت المياه، ودوى من أعماق القاع صوت جبار:

– ميرجان يا نور عيني، خذي كل ثرواتي وكوني زوجتي!

وهرعت البنات المذعورات الى الشاطىء والتقطن ملابسهن وهرولن معاً الى القرية. ونسين ميرجان.

ورأت ست الحسن ميرجان وهي واقفة على الشاطىء ثعباناً هائلا متكوماً على ثيابها سبع حلقات، وقد رفع رأسه عالياً دون أن يحول عينيه عنها.

وقال الثعبان:

– يا نور عيني ميرجان. أنا ملك مملكة قاع البحار. انني أحبك أكثر من حياتي. فلتكوني زوجتي! وسأهدي لك قصري البلوري، هيا قرري. اذا وعدتني بالزواج أعطيتك ثوبك، واذا لم تقبلي أخذته الى القاع، فماذا ستفعلين اذن؟

وارتبكت ميرجان، ووعدته بالزواج وهي تموت رعباً. واختفى الثعبان كأن لم يكن، مخلفاً على صفحة المياه دوائر وأمواجاً تتراقص. ولبست الفتاة ثوبها كيفما كان وهرولت في اثر صديقاتها. ودخلت الخيمة وارتمت أمام أمها وأجهشت بالبكاء.

فسألتها أمها بقلق:

– ماذا حدث ياحبيبتي؟ من أهانك؟

فروت ميرجان لأمها ماحدث ثم راحت تتأوه:

– وماذا أفعل الآن؟ لقد وعدته. فهل يمكن التنصل من الوعد؟

فأخذت أمها تمسد رأسها وتضمها الى صدرها وتطيب خاطرها:

– اطمئني يابنيتي. يبدو أن الثعبان الرهيب كان مجرد خيال. فهذه الحوادث لا تقع. اجلسي في البيت ولا تخرجي.

ومر أسبوع، واطمأنت ميرجان فعاودها المرح. ولم تكن أمها تسمح لها بمغادرة الخيمة مسافة ذراع، ولا تتركها وحدها فترة طويلة.

وذات مرة أطلت الأم من الباب فصعقت:

– يا لطيف! حلت نهايتنا! من النهر تزحف الى بيتنا ثعابين سوداء لا حد لها.

فامتقع وجه ميرجان وقالت:

– انهم قادمون ليأخذوني!

وأوصدتا الباب، وحصنتاه بكل ما لديهما من أثاث، واختبأتا تحت الكليم وقد احتبست أنفاسهما رعباً.

بينما مضت الثعابين تزحف وتزداد اقتراباً، وضجيجها يعلو في السهاب. وزحفت حتى الخيمة فوجدت الباب موصداً، ففحت الثعابين وتحاملت على الخيمة حتى اقتحمتها، وأمسكت بميرجان الغائبة عن الوعي، وحملتها الى النهر. وركضت الأم المسكينة خلف الثعابين وهي تعول وتمد يديها نحو ابنتها،فلم تلحق بها. وغاصت الثعابين في الماء وأخذت معها ست الحسن ميرجان.

وعادت الأم الى بيتها الخاوي وهي تترنح من الفاجعة وارتمت على الأرض تنوح وتعدد:

– هلكت بنتي ميرجان! الثعبان الملعون حرمني منها الى الأبد!

ومرت الأيام والشهور والسنون. وهرمت الأرملة الوحيدة وتقوس ظهرها، وأبيض شعرها. وظلت تنتظر وتحدق في السهوب بعينيها الكليلتين حيث أخذت الثعابين السود ابنتها.

وذات مرة كانت الأم جالسة حزينة على عتبة الدار، واذا بها ترى امرأة شابة تسير نحوها وعليها أفخر الثياب، وفي يدها اليمنى صبي، وفي يدها اليسرى صبية.

وارتجفت الأم وصاحت:

– ميرجان! يابنيتي! أهذه أنت؟

وتعانقتا وتبادلتا القبلات، ثم دخلتا الخيمة. وأخذت الأم تنظر الى ابنتها وحفيديها وهي لا تصدق عينيها.

– من أين جئت يا ميرجان؟

– جئت من مملكة قاع البحار. وزوجي هو ملكها.

– وكيف تعيشين تحت الماء؟

– ليس هناك من هو أسعد مني. ولكني اشتقت اليك يا أمي، وأردت أن أريك أبناءنا.

– وهل يمكن يا بنيتي أن تعودي الى الثعبان الملعون؟ هل يمكن أن تهجري أمك المسكينة؟

وقالت الأم لنفسها: «هذا لن يكون أبداً! لن أفترق عن ميرجان بعد الآن!».

وقالت ابنتها:

– ياأمي الحبيبة، سامحيني، ولكني لا أستطيع أن أبقى لديك طويلا. ينبغي أن نعود في المساء الى بيتنا في قصرنا في قاع البحر. زوجي في انتظارنا. انني أحبه وأحترمه. فهو ثعبان فقط عندما يظهر على الأرض، أما في مملكته فهو فارس رائع.

– طيب، يبدو أن خظنا هكذا. ولكن كيف ستجدين طريقك الى مملكة قاع البحار؟

– على النحو التالي: أقترب من النهر وأنادي: «أحمد ياأحمد، أنا زوجتك، تعال يا نور عيني وأصعد من القاع». فياتي زوجي على الفور ويأخذنا الى القصر.

فقالت الأم لنفسها: «حسناً، الآن أعرف ما العمل».

وأخذت تبكي وترجو ابنتها:

– اذا كنت لا تريدين البقاء معي الى الأبد، فلتقضي ليلة واحدة في دارك الحبيبة.

وأشفقت ميرجان على أمها العجوز فوافقت على البقاء عندها حتى الصباح. وفرحت العجوز، وبدت عليها ملامح الشباب.

وانتهى النهار، وحل الليل، ونام الطفلان، ونامت ست الحسن ميرجان. عندئذ نهضت العجرز بهدوء من الفراش. وبحثت في الظلام عن الفأس حتى وجدته وتسلت من الخيمة.

وذهبت الى النهر ووقفت فوق الشاطىء العالي وصاحت بصوت مرتفع:

– أحمد ياأحمد، أنا زوجتك! تعال يانور عيني وأصعد من القاع.

وفي نفس اللحظة ظهر الثعبان من الماء، ووضع رأسه على الشاطىء وقال برقة:

– أخيراً جئت ياحبيبتي ميرجان. لقد طالت غيبتك واشتقت اليك.

ولم تتوان العجوز فأهوت بالفأس على الثعبان فقطعت رأسه... وتدحرج الرأس على الشاطىء. أما مياه النهر فأصبحت حمراء حمراء...

وفي الصباح استيقظت ميرجان، وألبست طفليها ثيابهما وودعت أمها:

– الوداع ياأمي، سأعود اليك بعد عام.

ووصلت ست الحسن الى النهر وهي تقود الصبي من يده وتحمل الصبية على صدرها. ونادت على زوجها:

– أحمد يا أحمد، أنا زوجتك، تعال يانور عيني وأصعد من القاع.

ولم يظهر أحد. وانتظرت ميرجان قليلا، ثم عادت تنادي:

– أحمد ياأحمد. أنا زوجتك، تعال يا نور عيني، وأصعد من القاع.

ولكن ملك مملكة قاع البحار لا يخرج من أعماق الماء. وانقبض صدر ميرجان، وتملت النهر فرأت مياهه حمراء حمراء...

وأدركت ميرجان السبب فبكت وراحت تقبل ولديها وهي تقول:

– مات أبوكما.. أنا المذنبة في وفاته.. فماذا أفعل معكما الآن وقد أصبحتما يتيمين؟

ونظرت من خلال دموعها الى الطفلين ثم قالت:

– كوني يابنيتي سنونوة وحلقي فوق صفحة المياه، أما أنت يابني فكن بلبلا، وأصدح في الفجر بالغناء، أما أنا فسأصبح وقوقاً وسأتنقل من مكان الى مكان وأبث لوعتي على زوجي!..

و ما أن قالت ذلك حتى تحولوا ثلاثتهم الى طيور ورفرفوا بأجنحتهم وتفرقوا في مختلف الجهات.

حظ عبد القادر

كان ياما كان، كان هناك اخوان. وكان الأخ الأكبر عاقلا كادحاً، وكان الأصغر فاشلا وكسولا وحقوداً.

وذات مرة جاء عبد القادر الى أخيه وقال بأسى:

قل ياأخي لماذا تسير الأمور على هذا النحو؟ أنا وأنت من أصل واحد وعشيرة واحدة، من أم واحدة وأب واحد، ولكن حظنا مختلف. أنت يحالفك التوفيق في كل شيء، وأنا لا يحالفني التوفيق في أي شيء. غنمك تتوالد وتسمن وغنمي تنفق، الواحدة تلو الأخرى. حصانك يفوز بالسبق، وحصاني يرميني عن ظهره في نصف الطريق. مائدتك عامرة دائماً باللحم و«الكوميس»*، أما أنا فلا أجد حتى حساء بدون لحم. لديك زوجة حنون، أما أنا فلا تنظر نحوي بنت من البنات. الشيوخ يحترمونك، أما أنا فيسخر مني حتى الصبيان ...

فابتسم الأخ الأكبر وقال:

– يبدو أن حظي يساعدني.

– فلماذا لا يساعدني حظي اذن؟

– لكل حظه ياعبد القادر. حظي يحب العمل والكد، ولكن حظك, فيما يبدو، ينام تحت الشجرة.

فقال عبد القادر لنفسه: «مهلا، سأبحث عن حظي حتى أجده وأجبره على مساعدتي».

وفي نفس اليوم انطلق يبحث عن حظه.

---

* الكوميس: شراب مخمر من لبن الخيول – **الناشر.**

وسار وسار، وقطع الفيافي والقفار، وفجأة برز أمامه أسد من وراء صخرة وسد عليه الطريق. وتملك الخوف عبد القادر ولكنه لا يستطيع أن يهرب، فالسهوب حوله ممتدة مكشوفة. فما العمل؟

وخاطبه الأسد:

– من أنت؟

– أنا عبد القادر.

– والى أين تقصد؟

– أبحث عن حظي.

فقال الأسد:

– اسمع اذن ياعبد القادر. عندما تعثر على حظك أسأله ماذا أفعل لكي أزيل الآلام في بطني. لم تنفعني أية أعشاب. وقد تعذبت كثيراً وساء حالي. فاذا وعدتني أن تجيب طلبي أطلقت سراحك، والا أكلتك.

وأقسم عبد القادر أن يأتي للأسد بالنصيحة أو بالدواء، فأخلى الأسد سبيله.

ومضى عبد القادر، فاذا به يرى وسط الحقل الذي لفحته الشمس رجلا عجوزاً وامرأة عجوزاً وفتاة نادرة الجمال. كانوا جالسين يبكون بحرقة كأنما فقدوا عزيزاً.

فتوقف عبد القادر وسألهم:

– لماذا تبكون يا أهل الخير؟

فأجاب العجوز:

– مصيبة كبيرة ألمت بنا. منذ ثلاث سنوات اشتريت هذا الحقل، ودفعت كل ما أملك. وفلحته غير باخل بقواي ورعيته كأم ترعى وليدها. ولكنا لم نجمع محصولا واحداً. اذ ينبت الزرع جيداً، وفي الربيع يخضر الحقل كله مبشراً بمحصول طيب، وفي منتصف الصيف، ومهما نروي الحقل بسخاء يذبل الزرع ويجف حتى جذوره. ولا أحد يدري سبب هذه المصيبة. لقد دنا أجلنا أيها الرجل الطيب، فليس لدينا حظ.

فقال عبد القادر:

– رغم أن لي حظاً، الا أنه ينام في مكان ما تحت شجرة. وها آنذا ذاهب للبحث عنه.

فشرع العجوز يرجو عبد القادر:

– ياولدي الطيب، كفاك الله شر الريح المعاصفة، وسدد خطاك

الى النجاح. فان حالفك التوفيق وعثرت على حظك فلتسأله عما اذا كان يعرف لماذا يهلك زرعنا. سأكون لك الى أبد الدهر من الشاكرين.

فوعده عبد القادر أن يعود اليه بالجواب، وواصل سيره.

وبعد مسيرة أيام وصل عبد القادر مدينة كبيرة اتضح أنها عاصمة المملكة. وما أن ظهر في شوارعها وسط الحشد حتى انقض عليه الحراس وقادوه الى قصر الملك.

وطار صواب عبد القادر من هذه المفاجأة واستعد لأسوأ العواقب وهو لا يدري جريرته. بيد أن الخان استقبله بابتسامة ود قائلا:

– فلتنزل علي ضيفاً أيها الغريب. ولتخبرني من أنت والى أين تقصد.

فخر عبد القادر على ركبتيه وراح وهو يتلعثم يروي قصته للملك.

وبعد أن سمع الملك قصته أمره:

– أنهض وأقترب مني يا عبد القادر. لا تخف، أنا لا أخاطبك كعبد بل كصديق. وعندي رجاء اليك. عندما تجد حظك أسأله لماذا أعيش أنا ملك هذه المملكة الجبارة تعيساً حزيناً في قصري الذهبي. وسوف أكافئك بسخاء على الرد الذي تأتيني به أياً كان.

ومن جديد واصل عبد القادر سيره. وقضى في التجوال ثلاثة أعوام. حتى وصل الى جبل أسود عال، فرأى عند صخرة حادة شجرة وارفة وتحتها ينام مخلوق عريان حافي القدمين، قذر الثياب ملبد الشعر, يشبه في صورته الانسان.

فقال عبد القادر لنفسه: «أمن المعقول أن هذا حظي؟» وراح يوقظ هذا الكسول:

– هيا استيقظ، حان وقت العمل! أنظر كيف يكد حظ أخي ولا يبخل بجهد من أجله. فلماذا لا تريد أن تخدمني؟ أستيقظ، أنهض بسرعة!

وظل طويلا يصرخ في النائم ويوقظه. وأخيراً تململ الحظ وتمطى، ورفع رأسه، وأخذ يفرك عينيه متثائباً.

– آه، أهو انت ياعبد القادر؟ عبثاً تتسكع في الدنيا وتدمي قدميك. كان الأفضل لو رقدت مثلي تحت شجرة وارفة، ونعمت بالهدوء. فالحظ لا يساعد الا الأذكياء والكادحين مثل أخيك، أما الأغبياء الكسالي مثلك فلا ينفعهم الحظ. ولكن طالما جئت الي فلتجلس ولتخبرني كيف وجدت الطريق الي، وماذا رأيت, ومن قابلت، وعم تحدثت، وماذا تريد مني...

وبدأ عبد القادر يتحدث والحظ يصغي اليه وهو يتثاءب. وأصغى حتى النهاية ثم لقنه ماذا يقول لطالبي النصيحة عندما يعود، وقال أخيراً:

– أرى من حديثك ياعبد القادر أن فيك جوانب كثيرة سيئة، ولكن فيك أيضاً جوانب طيبة. وأريد أن أكافئك على هذه الجوانب الطيبة. عد الى البيت، وستجد أمامك حظاً كبيراً, لا يناله كثيرون. فاياك أن تضيعه ببلاهتك. وداعا!

وتمدد الحظ ثانية على العشب تحت الشجرة، وارتفع شخيره مدوياً في جنبات الوادي. وحاول عبد القادر أن يوقظه ثانية ليعرف منه مستقبله بصورة أوضح، ولكن هيهات ... تصبب عرقاً وعلا لهاثه،لكن الحظ لم يستيقظ. فوقف عبد القادر قليلا، ثم استدار وعاد ادراجه متبعاً آثار اقدامه.

ووصل الى العاصمة فتوجه الى الملك. وفرح الملك بمجيئه فصرف كل الخدم والحاشية والحراس، وأجلس ضيفه الى جواره.

– حسناً، تكلم يا عبد القادر!

فقال عبد القادر:

– لقد كشف لي حظي سبب حزنك وتعاستك. فأنت تحكم البلاد، والناس يلقبونك بالملك ظناً منهم أنك رجل. ولكنك في الحقيقة امرأة. وصعب عليك اخفاء الحقيقة، كما أن عبء الحكم ومجهود الحرب ثقيل عليك وحدك. فلتختاري لك زوجاً جديراً، وسيعود المرح الى قلبك.

فتمتم الملك المزيف في خجل:

– الحق ماقال حظك ياعبد القادر.

ونزع من على رأسه طاقيته الثمينة فتهدلت جدائل الشعر الأسود علي البساط الملون، فرأى عبد القادر أمام عينيه فتاة أجمل من البدر ليلة اكتماله.

وتضرجت الفتاة – الملك خجلا وقالت:

– أنت يافارس أول من عرف سري، فلتكن زوجي وملك مملكتي.

ذهل عبد القادر من هذه الكلمات، وعندما أفاق من ذهوله هز رأسه وأشاح بيديه:

– كلا، كلا، لا أريد أن أكون ملكاً. ان حظي في انتظاري.

ومضى في طريقه.

وهاهو العجوز وزوجته وابنته يستقبلانه محيين:

– بماذا جئتنا ياعبد القادر العزيز؟

فقال عبد القادر:

– فلتسمعوا ما أقول. في الماضي القديم دفن أحد الأثرياء في أرض حقلكم اربعين جرة مليئة بالذهب خوفاً من غارات الأعداء ولهذا لا ينبت في حقلكم الزرع. فلتستخرجوا الذهب وستصبح ارضكم خصبة، وتصبحون أنتم أغنى أهل الناحية.

رقص المساكين طرباً وهم يبكون ويضحكون من الفرحة. واخذوا يعانقون عبد القادر. وقال له العجوز:

– أنت أسعدتنا ياعبد القادر، فلتبق معنا. ساعدنا في حفر الحقل واستخراج الذهب. وخذ لنفسك نصف الكنز وتزوج ابنتنا. ولتكن ابني وزوج ابنتي.

وأعجب الشيخ وزوجته عبد القادر، وأعجبته أكثر ابنتهما، ومع ذلك لم يبق عندهم حتى للمبيت. وقال لهم:

– كلا، أن حظي في انتظاري.

ومضى في طريقه.

سار طويلا حتى بلي حذاؤه وتسلخت قدماه، ومضى يعرج على الدرب الخالي. ورأى حجراً فجلس عليه، واستغرق في التفكير:

«ها هو الطريق يوشك على الانتهاء فاين الحظ الذي وعدت به؟»

وفي نفس اللحظة رأى الأسد أمامه:

– حسناً ياعبد القادر، هل جئتني بالنصيحة؟ أم بالدواء؟

– لم أحضر دواء، ولكن هناك وسيلة للتخلص من دائك. كل مخ أغبى رجل في الدنيا، وستشفى على الفور.

– شكراً ياعبد القادر، سوف أبحث في كل مكان عن هذا الغبي. ربما تساعدني في ذلك؟ حدثني عن الناس الذين رأيتهم في رحلتك، وعم تحدثت معهم. ولن أخلي سبيلك حتى تخبرني بكل شيء.

ولم يكن أمام عبد القادر خيار آخر فأخبره بحديثه مع حظه تحت الشجرة، وحدثه عن الملك – الفتاة، وعن الشيخ وابنته الجميلة.

ولمعت عينا الأسد، وقضقض بانيابه، انتصب شعر لبدته. وقال:

– يالك من أحمق ياعبد القادر! أي حظ أفلته من يديك. لقد رفضت الحكم والجاه والاحترام، ورفضت الثروة والرخاء، ورفضت عروسين رائعتين ... لو أني ذرعت الدنيا ثلاث مرات فلن أجد شخصاً أغبى منك. ان مخك هو الذي سيشفيني!

وانقض الأسد على عبد القادر. وسقط عبد القادر من الرعب على الأرض كخروف مذبوح. وكان هذا ما أنقذه، اذ اصطدم الأسد بالصخرة

وسقط ميتاً.

فصاح عبد القادر من شدة الفرح:

– ياله من حظ! كنت هالكاً لا محالة فاذا بي أنجو. يا له من حظ!

وعندما عاد عبد القادر الى قريته لم يتعرف عليه أحد: فقد ظلت ملامحه كما هي لكن طبعه تغير. وكأنما ولد الفتى من جديد وأصبح شخصاً آخر. صار مرحاً دائماً، بشوشاً، ولم يعد يشكو من شيء أو يحسد أحداً. وأصبح يعمل من الصباح الى المساء والأغنية لا تفارق شفتيه. وكان الجميع يمتدحونه على حصافته وطيبة قلبه. ويوماً فيوماً تزايدت ثروته، وتزوج وأنجب أطفالا وعاش سعيداً مكرماً.

وعندما يسأله أصدقاؤه:

– كيف الحال، ياعبد القادر؟

يجيب عليهم بابتسامة:

– أنا أسعد أهل الأرض!

جيرنشي و قره‌شاش

في سالف الزمان كان يعيش رجل حكيم يدعى جيرنشي شيشين. وكان له عقل صاف واسع كالبحر، وكان الكلام ينساب من بين شفتيه كشدو البلابل ولكن جيرنشي كان أفقر أهل السهوب. وعندما كان يرقد في كوخه الطيني كانت قدماه تطلان خارج العتبة. أما في الأيام السيئة الطقس فكان المطر والريح يتسربان الى داخل الكوخ عبر الشقق الكثيرة.

وذات مرة كان جيرنشي راكباً مع رفاقه، وكان النهار على وشك الانتهاء، فحث الفرسان خيولهم لكي يصلوا الى القرية قبل حلول الظلام. وفجأة رأوا نهراً عريضاً يسد طريقهم. وكانت هناك قرية على الشاطىء الآخر، أما على هذا الشاطىء فكانت عدة نساء يجمعن الروث لاستخدامه وقوداً.

اقترب منهن القرسان وحيوهن بأدب وسألوهن أين يكمن عبور النهر.

عندئذ خرجت من بينهن فتاة شابة تدعى قره شاش. وكانت ترتدي ثوباً بالياً مرقعاً، الا أنها كانت رائعة الجمال ... كانت عيناها كنجمتين، وفمها كالبور، وقدها كغصن البان.

وقالت الفتاة:

– توجد مخاضتان. المخاضة اليسرى قريبة لكنها بعيدة، والمخاضة اليمنى بعيدة ولكنها قريبة.

وأشارت الى دربين.

ولم يفهم مغزى كلامها الا جيرنشي، فأدار حصانه الى اليمين.

وبعد مسيرة قليلة رأى المخاضة. وهنا كان قاع النهر رملياً والماء ضحلا، فعبر النهر دون عناء، ووصل القرية بسرعة.

أما رفاقه فقد اختاروا المخاضة القريبة, ثم سرعان ما ندموا على ذلك. فما أن بلغوا منتصف النهر حتى غاصت قوائم الخيل في طين القاع. فاضطر الفرسان الى الترجل في أعمق موضع، وخاضوا في الماء ممسكين بأعنة الجياد. وكان المساء قد حل عندما وصلوا القرية مبللين متعبين مقرورين.

وأوقف جيرنشي حصانه عند الخيمة الأخيرة في طرف القرية، وكانت أفقر خيمة، فأدرك على الفور انها خيمة والدي الفتاة التي دلتهم على الطريق ومكث هنا ينتظر رفاقه.

وخرجت والدة قره شاش لاستقبال الفرسان، ورجتهم أن يترجلوا وينزلوا في الخيمة للراحة من عناء الطريق. وكانت الخيمة في الداخل فقيرة كما هي في الخارج. وبدلا من الأبسطة فرشت ربة الدار للضيوف جلود غنم جافة.

وبعد فترة دخلت قرة شاش حاملة على كتفيها جوالا مملوءاً بالروث. وكان الوقت ربيعاً، وقبيل المغيب سقط مطر غزير. وعادت النساء بروث مبلل، فباتت الأسر دون عشاء.

لكن قرة شاش هي وحدها التي جلبت روثاً جافاً. فأشعلت النار، وأدفأت الضيوف وجففت لهم ملابسهم.

فسألها الضيوف:

– كيف استطعت أن تحفظي الروث من البلل؟

فروت لهم الفتاة أنه عندما بدأ المطر رقدت فوق الجوال وحمته بجسدها من المطر. وقد تبلل ثوبها، ولكن ما أسهل تجفيف الثوب على النار. ولم يكن في وسعها أن تفعل غير ذلك لأن أباها راع، وسيعود ليلا جائعاً ومبللا، وبدون النار سيتعب كثيراً. أما بقية النساء فقد أحتمين بالأجولة عندما بدا المطر فبللن الثياب والروث معاً.

وعندما سمع الضيوف رد الفتاة أعجبوا بذكائها.

وأرادوا ان يعرفوا أي عشاء ينتظرهم.

فقالت لهم قره شاش:

– أبي رجل فقير ولكنه كريم. وعندما يعود بقطيع البيك سيذبح لكم خروفاً اذا حصل عليه، فاذا لم يحصل عليه ذبح لكم نعجتين.

ولم يفهم أحد غير جيرنشي مغزى ماقالته وأعتبروه مزاحاً.

وجاء والد قرةشاش. وعندما رأى ضيوفاً في داره أسرع الى البيك يرجوه خروفاً ليذبحه لضيوفه.

لكن البيك طرده ولم يعطه شيئاً.

عندئذ ذبح الراعي نعجته الوحيدة التي كانت على وشك أن تضع حملا، وصنع لضيوفه «بيشبرمقاً»* لذيذاً.

وعندها أدرك الضيوف مغزى كلمات قرةشاش وكان جيرنشي أثناء العشاء جالساً قبالة قرةشاش. وأسره جمالها وذكاؤها، فوضع راحته على قلبه سراً دليلا على حبه الشديد لها.

ولم تكن قرةشاش تحول بصرها عنه فلاحظت هذه الحركة، فلمست عينيها بأطراف أصابعها، وأرادت بذلك أن تقول له أن مشاعره لم تغب عن نظرها.

عندئذ مسح جيرنشي على شعره، يريد بذلك أن يسأل هل سيطلب أبوها مهراً من الغنم بعدد مافي رأس جيرنشي من شعر.

فمسحت قرةشاش بيدها على صوف فروة الخروف التي كانت تجلس عليها، مشيرة بذلك الى أن أباها لن يزوجها حتى لو أعطوه فيها مهراً بقدر ما في الفروة من شعر.

وتذكر جيرنشي فقره فطأطأ رأسه حزيناً.

وأشفقت الفتاة على الشاب، فقلبت زاوية الفروة ومست باصبعها الظهر الجلدي الأملس، ملمحة لجيرنشي على أن أباها سيزوجها حتى بدون مهر لو كان العريس جديراً بها.

وكان الراعي يتابع حديثهما الصامت طوال الوقت. وفهم أنهما أحبا بعضهما البعض، وتأكد من أن جيرنشي ذكي كابنته. ولذلك وافق بكل سرور على زواجهما عندما طلب جيرنشي يد قرةشاش.

وبعد ثلاثة أيام أخذ جيرنشي عروسه الى قريته.

وسرعان ما ذاعت شهرة قرةشاش الجميلة الذكية في جميع انحاء السهوب حتى وصلت الى قصر الخان.

وعندما سمع الخان أحاديث وزرائه الخبيثة عن قره شاش التي لا مثيل لجمالها وذكائها في الدنيا كلها، امتلأ قلبه بالحقد والحسد على جيرنشي الفقير، وعزم على أن ينتزع منه زوجته.

---

* بيشبرمق (حرفياً: خمسة أصابع) أكلة قازاخية من لحم الضان المسلوق مع شرائح العجين تؤكل باليد أي بالأصابع الخمسة ومن هنا جاء الاسم – **الناشر.**

وذات يوم وصل الى دار جيرنشي رسول من الخان وأمره باسم الخان أن يمضي مع زوجته الى القصر فوراً.

ولم يعد هناك مفر من الذهاب فذهبا.

وما أن رأى الخان قرەشاش حتى قرّر أن يتخذها زوجة له بأية وسيلة فأمر جيرنشي أن يبقى تحت خدمته في القصر.

وأصبح جيرنشي يخدم نهاراً في قصر الخان الفخم، ويعود في المساء متعباً الى كوخه والى زوجته قره شاش.

وهنا كان يضع رأسه على حجر زوجته الحبيبة مستمتعاً بالحرية، ويقول:

– ما أعظمها من سعادة أن يجلس المرء في كوخه. انه أوسع من كل قصور الخان!

وفي ذلك الوقت تبرز قدماه خارج العتبة.

ومرت الأيام والخان لا يكف عن التفكير في وسيلة يقضي بها على جير نشي ويستولى على قرەشاش. وكان قد كلف جيرنشي بمهام كثيرة، لكن جيرنشي كان يؤديها دائماً بسرعة ومهارة، فلم يجد الخان مبرراً لاعدامه.

وذات مرة كان الخان يمضي مع حاشيته عبر السهوب. وكان يوماً شديد الريح. وساقت الريح أمامها كتل «الكوم المتدرج»* فقال الخان لجيرنشي:

– الحق بالكوم الدوار وأعرف منه من أين يتدحرج والى أين. واياك أن تعود بدون جواب والا فقدت رأسك.

وركض جيرنشي وراء الكوم المتدحرج فلحق به وغرز فيه رمحه. ومكث قليلا ثم عاد ادرجه.

فسأله الخان:

– حسناً، ماذا قال الكوم المتدحرج؟

فأجابه جيرنشي:

– أيها الخان العظيم، ان الكوم المتدحرج يهديك تحياته، واليك ما قاله: «من أين أتدحرج والى أين أمر لا تعلمه الا الريح وأين سأتوقف أمر لا يعلمه الا الخور. وهذا شيء معروف ولا يحتاج الى سؤال. فاما

---

* الكوم المتدحرج: نبات ينمو في السهوب وتتكسر قممه الجافة بسهوله عندما تهب الريح فتصبح على هيئة أكوام تتقلب متدحرجة في السهوب – **الناشر.**

انك أحمق اذ تسألني هذه الأسئلة، واما أن الأحمق هو الذي أرسلك لتسألني عن ذلك».

فاستشاط الخان غضباً، ولكنه تمالك نفسه ولم يقل شيئاً. الا أنه أوغر حقداً على جيرنشي.

وذات مرة أمر الخان جيرنشي – مهدداً اياه بالموت – ان يحضر اليه في وقت ليس بالنهار ولا بالليل، وليس ماشياً على قدميه أو راكباً حصاناً، وبحيث لا يدخل القصر ولا يبقى في الخارج.

واغتم جيرنشي في البداية، ولكنه تشاور مع قرەشاش فوجدا حلا.

ذهب جيرنشي الى الخان في الفجر، راكباً كبشاً، وتوقف تحت عارضة البوابة بالضبط.

وهكذا فشل مكر الخان، فوجد حيلة أخرى.

فعندما جاء الخريف أمر أن يحضر اليه جيرنشي، فلما حضر أعطاه أربعين خروفاً وقال:

– اني أعطيك أربعين خروفاً، وعليك أن ترعاها طوال الشتاء ولكن اذا لم تضع في الربيع حملانا مثلها مثل النعاج فسوف آمر بقطع رأسك.

وعاد جيرنشي الى المنزل وقد تملكه حزن عميق وهو يسوق أمامه الأربعين خروفاً.

ولما رأته قرەشاش حزيناً سألته:

– ماذا بك يازوجي؟ لماذا تبدو حزيناً هكذا؟

فاخبرها جيرنشي بأمر الخان الجنوني.

فهتفت قرەشاش:

– ياحبيبي، هل تستحق هذه التفاهات منك أن تحزن! أذبح في الشتاء الأربعين خروفاً، وسترى في الربيع أن الأمور ستمضي على أحسن صورة.

ففعل جيرنشي ما نصحته به قرەشاش.

وجاء الربيع.

وذات يوم دق رسول الخان باب كوخ جيرنشي وأعلن أن الخان قادم بنفسه في اثره، ليعرف هل وضعت خرافه حملاناً.

وطأطأ جيرونشي رأسه حزناً، وقد أحس أن الموت سيدركه الآن لا محالة.

ولكن قرەشاش قالت له:

– لا تحزن ياعزيزي. اذهب واختبىء في السهوب، ولا تظهر حتى المساء. أنا التي سأستقبل الخان.

واختفى جيرنشي في السهوب وبقيت قرةشاش في الكوخ. وسرعانما سمعت وقع حوافر الخيول وصوتاً منذراً يصيح:

– أيه! من هناك! أسمعني صوتك!

وعرفت قرةشاش على الفور صوت الخان، فخرجت من الكوخ وانحنت محيية. فسألها الخان بغضب:

– وأين زوجك؟ لماذا لا يخرج لمقابلتي؟

فأجابته قرةشاش باحترام:

– أيها الخان الجبار، ارأف بحال زوجي المسكين. لقد غاب عن البيت طمعاً في ارضائك. فما أن سمع أنك قادم لزيارتنا حتى تملكه الحزن لأننا قوم فقراء وليس لدينا ما نقدمه لاكرام ضيوفنا الكبار. عندئذ مضى زوجي الى السهوب ليحلب السمانة التي استأنسها ويصنع من لبنها شراب الكوميسلك. تفضل أيها الخان العظيم فادخل كوخنا، وسيعود زوجي عما قريب فيضيفك كما يليق بك.

فجن جنون الخان من الغضب وصاح:

– أنت تكذبين أيتها المرأة السافلة! من ذا الذي سمع بأن طيور السمان تحلب!

فقالت قرة شاش بكل هدوء:

– ماالذى أدهشك أيها الخان الجليل؟ ألا تعرف أن مثل هذه العجائب بل وأكثر تقع في هذا البلد الذي يحكمه هذا الخان الحكيم؟ أليست خرافك الأربعون هي التي ستضع حملاناً بين يوم وآخر؟

وأدرك الخان أن هذه المرأة البسيطة تسخر منه. وتملكه خجل شديد فلم يدر ماذا يفعل، فشد لجام حصانه وأدار عنقه بشدة وهوى عليه بالسوط، فانطلق به حتى اختفى عن الأنظار.

ومن يومها ترك عنه جيرنشي وقرة شاش، فعاشا معاً في سعادة حتى آخر العمر.

حصان الخان جاني بيك

كان لدى الخان جاني بيك حصان أصيل، كالعاصفة عندما ينطلق. وكان الخان فخورا به، وكان هذا الجواد بالنسبة له أعز ما يملك. وفجأة مرض الجواد فحزن الخان حزناً لا مثيل له. وهجر أعماله وأفراحه وزهد في الطعام والشراب. وسمع الجميع انذاره الرهيب:

– لو جرؤ أحد على القول بان حصاني الحبيب مات فسأدق له خازوقاً في حلقه.

وسيطر الرعب على الحاشية، وأصبح خدم الخان يتحركون مكتومي الانفاس. ولم يبتعد السياس عن الحصان المريض لحظة واحدة. ولكن الحصان خر على الأرض، وسرعان ما نفق. ولم يعد ثمة أمل في النجاة من الموت الرهيب، فراح الأزواج يودعون زوجاتهم والأباء أبناءهم.

عندئذ ذهب جيرنشي شيشين الحكيم الى الخان، فحدق فيه الخان بعينين ملتاعتين وساله:

– هل تريد ان تتحدث معي عن الحصان؟

– نعم أيها الخان العظيم.

– ماذا حدث للحصان؟ تكلم!

– سيدي .. اطمئن. لم يحدث للحصان شيء. انه مثلما كان من قبل، سوى أنه لا يتناول العلف، ولا يفتح عينيه ولا يحرك سيقانه ولا يهز ذيله.

فصرخ الخان:

– آذن فحصاني مات!

– هو كذلك يا مولاي. ولكن فليلاحظ سيدي أن شفتيه هو، لا شفتاي، هي التي نطقت بالكلمة المحرمة التي يعاقب من يقولها أشد العقاب. ولا أظنك يامولاي سترضي بأن تحكم بالموت على نفسك.

وهكذا استطاع جيرنشي الحكيم بفصاحة لسانه أن ينقذ نفسه ومن حوله من الموت.

الحداد وزوجته الوفية

في سالف الأزمان عاش في مدينة من المدن حداد ماهر. وكانت يداه تستطيعان أن تصنعا كل ما يمكن أن يخطر على بال انسان.. الشيء الوحيد الذي لم تكن يداه تستطيعان صنعه هو كسب ما يكفي من الخبز له ولزوجته. فقد كان سكان هذه المدينة فقراء، ولم يجد الحداد عملا فكان أكثر الجميع بؤساً وفقراً. ولكن اليأس لم يتملكه أبداً، فكان دائما يمزح مع زملائه ويغني، لكن قلبه أصبح من الهم أشد سواداً من الفحم. كان هو شخصياً مستعداً أن يتحمل كل المحن، لكن أشد ماكان يعذبه أن يرى زوجته الشابة تعاني من الفاقة وهي الحسناء النادرة الجمال التي لا يولد مثلها الا مرة كل مائة عام. ولهذا قرر الحداد أن يتوجه الى عاصمة الخان بحثاً عن عمل، فربما كان سكانها الأغنياء في حاجة الى مصنوعات يديه.

وقال الحداد لزوجته مودعاً:

– ياحياتي! انني أمضي الى أماكن بعيدة وسأغيب ثلاثة أعوام. فهل ستتذكرينني حتى أعود؟ هل ستبقين وفية لي أثناء غيابي؟

فانحنت الحسناء الى الارض وقطفت زهرة زرقاء وأعطتها لزوجها قائلة:

– ياحبيبي! خذ هذه الزهرة وحافظ عليها كما سأحافظ أنا على عرضي. وأينما كنت، ومهما غبت فلتعرف: طالما لم تذبل الزهرة فلن يذبل حبي لك ...

وعندما وصل الحداد الى العاصمة دخل الى أحد المقاهي ليشرب كوب شاي بعد عناء الطريق. ورأى هناك بين رواد المقهى ثلاثة رجال حسني

الهندام جالسين في صمت لا يمدون أيديهم الى الطعام أو الشراب، وكأنما أثقلت قلوبهم بلوى. وعندما رأى هؤلاء الثلاثة القادم الجديد أخذوا يتفحصونه بنظرتهم حتى أن الحداد أحس بالحرج، فقال لهم:

– ما لكم تحدقون في أيها السادة الكرام؟ أنا حقاً فقير ولكني شريف. جئت الى العاصمة من مكان بعيد بحثاً عن عمل. أنا أسطى، حداد، ومن يعهد الي بعمل فلن يندم طول العمر ..

تبادل الرجال الثلاثة النظرات فيما بينهم، ثم دعا أكبرهم الحداد وقال له بمودة:

– فلتسمع أيها الحداد بانتباه كل كلمة أقولها لك. نحن الثلاثة وزراء الخان، وهذا مالا يعرفه صاحب المقهى ولا ينبغي ان يعرفه. ونحن نطوف على الأسواق والأنزال والمقاهي وغيرها من أماكن التجمعات لا من باب التسلية وحب الاستطلاع بل لأمر في غاية الأهمية. لقد أمرنا الخان أن نشيد له قصراً من الذهب والفضة، ووعد بمكافأة اذا نفذنا رغبته وبالموت اذا لم يشيد القصر في الموعد المحدد. ونحن الآن في ورطة كبيرة لأن الوقت يمضي بينما لم نجد في العاصمة كلها أسطى يستطيع القيام بهذه المهمة غير العادية. فهلا ساعدتنا أن لم يكن بالعمل فبالنصح؟

فقال الحداد وهو يتهلل فرحاً:

– أيها الوزراء الحكماء. ان الأقدار هي التي ساقتني الى باب هذا المقهى. اعطوني القدر المطلوب من الذهب والفضة، وأعطوني سبعين مساعداً وساشيد لكم في الموعد المحدد قصراً ليس له مثيل عند أي خان.

وفي نفس اليوم بدأ الحداد العمل. واشتعلت الاكوار ورن المعدن النفيس تحت ضربات المطارق، وجرى المساعدون النشطاء هنا وهناك تنفيذاً لتعليمات الأسطى الأكبر. وفي الموعد المحدد تم بناء القصر. وبالفعل لم يزين قصر مثله أية عاصمة من قبل. حتى الذهب والفضة اللذين شيدت بهما جدران القصر وسقوفه لم يكونا يساويان شيئاً بالمقارنة بجماله.

وعندما رأى الخان القصر الجديد صاح معجباً كطفل، وزاد على الفور راتب وزرائه ثلاثة أضعاف. ثم قال:

– أريد أن أرى الأسطى الذي شيد على الأرض هذه المعجزة السماوية!

وجاءوا بالحداد، فعانقه الخان برقة كابنه وأكثر، وقال هذه الكلمات التي لم يسمعها منه أحد من قبل:

– منذ هذه اللحظة ستكون أقرب مستشار وصديق لي. أنا لا أريد أن يستغل موهبتك ومهارتك أحد من رعاياي أو من الحكام الأجانب. ولذلك فتسكن معي هذا القصر الرائع وستعمل لي وحدي.

ومنذ تلك اللحظة امتلأت قلوب الوزراء حقداً وحسداً على الحداد الماهر، رغم أنهم كانوا مدينين له بحياتهم وبالثروة الكبيرة التي وهبها لهم الخان، وراحوا يفكرون مجتمعين وعلى انفراد في طريقة يقضون بها عليه افتراء ودساً.

وسكن الحداد القصر. وكان يقدم للخان كل يوم أعجوبة جديدة، وكانت كل هدية تفوق سابقتها سحراً واتقاناً، ولذلك ازداد الوزراء حقداً عليه. وراحوا يراقبون كل خطوة من خطواته حتى لاحظوا أنه بين الحين والحين يستخرج من صدره زهرة زرقاء ويتطلع اليها طويلا وهو يتمتم بكلمات ما، ويقبل الزهرة بحنان ثم يخبئها في صدره من جديد.

وذهب الوزراء الى الخان وقالوا له:

– أيها الخان العظيم! الحداد الذى تحبه ليس الا ساحراً ومشعوذاً. لقد شيد القصر ونال رضاك بمعونة زهرة شيطانية يخفيها عن الأعين. ويخيل الينا أن هذا الشرير يدبر شيئاً ضدك وضد حياتك المقدسة.

وكان الخان وسواساً وسريع الغضب. فأمر بأن يستدعوا الحداد على الفور، وعندما جاء صاح فيه بغضب:

– ماهذه الزهرة التي تخبئها في صدرك وتخفيها عني؟ أعترف اذا كنت تطمع في الرأفة.

وفطن الحداد فوراً الى من وشي به، فأخرج الزهرة اليانعة وروى للخان بكل صدق ماكان بينه وبين زوجته الحسناء وكلماتها التي ودعته بها.

لكن الوزير الأول قاطعه قائلا:

– هذا الوقح يتجاسر على الكذب أمام مولاه! اننا نعرف أن زوجته نسيته منذ زمن بعيد ويسعدها أن تتزوج من أول رجل تصادفه. ليس هناك امرأة لا تغريها النقود والهدايا. فاذا سمح لي الخان العظيم برهنت له على ذلك.

فقال الخان:

– حسناً.

ثم أمر بأن يوضع الحداد تحت الحراسة حتى عودة الوزير الأول بالبراهين ولكن دون أن يمسوا الحداد بأذى.

وانطلق الوزير الأول الى المدينة التي تعيش فيها زوجة الحداد، واتصل هناك بأحد الرجال المشبوهين وبعد أن رشاه كشف له عن غرضه- فقال الرجل له:

- ليس في الدنيا كلها امرأة أكثر استقامة وحباً لزوجها من زوجة الحداد. ليس هناك سوى جالماويظ كمبير* التي تستطيع ان تساعدك.

وعلى الفور جاء الى الوزير بعجوز شريرة.

وقالت جالماويظ كمبير بصوت أخف:

- لو كان معك أيها الغريب ألف دينار فسأعمل كل مكرى ودهائي لاعرفك بهذه المرأة.

وعندما حصلت جالماويظ كمبير على الالف دينار أخذت نصفها لنفسها، وجاءت بالنصف الآخر الى زوجة الحداد وقالت لها:

- يابنيتي، أن زوجك يجول في المدن الغريبة ويبدو أنه نسيك تماماً. خذي هذه النقود التي أرسلها اليك أحد الرجال المحترمين لتقضي بها حاجتك. انه يكن لك كل الحب. وهو شهير وثري، فاذا كنت معه لطيفة فسيلبسك الذهب ويهبك السعادة.

فأجابتها المرأة الشابة:

- أيتها العجوز الطيبة. هاتي هذا الرجل ليزورني. سأترك باب البيت مفتوحاً. فلتدليه على الباب وانصرفي الى بيتك. وسأستقبله الاستقبال اللائق به.

وذهبت العجوز الى الوزير وقالت له:

- لقد انقضت زوجة الحداد على النقود، وهي موافقة على كل شيء. ستزورها اليوم مساء. فلتدفع لي الآن أتعابي.

وأعطى الوزير للعجوز حفنة ذهب وقد أسعده هذا التوفيق.

وعندما حل المساء دخل الوزير بيت الحداد. واستقبلته الزوجة الحسناء بالابتسامات والمزاح واجلسته بجوار الفرن، ووضعت أمامه شراب الكوميس واللحم والحلوى، وفجأة دوت طرقة حادة على الباب.

فسأل الوزير مذعوراً:

- ما هذا؟

---

* جالماويظ كمبير: الغولة المهولة - **الناشر.**

وكانت زوجة الحداد تعرف جيداً سبب الطرقة. فقد علقت في النهار مطرقة زوجها على الباب، ولما هبت الريح اهتزت المطرقة وطرقت الباب. ولكن زوجة الحداد تظاهرت بأنها هي الأخرى قد فزعت، فأشاحت بيديها وقالت بسرعة:

– يا ضيفي الغالي، يبدو أن أخي يطرق الباب. انه لن يمكث هنا طويلا. أرجوك اختبىء في الغرفة المجاورة قليلا.

وفتحت له الباب.

وما أن خطا الوزير داخل الغرفة حتى دفعته زوجة الحداد في ظهره، فهوى في خفرة مظلمة عميقة. أما هي فوقفت على حافة الحفرة تقهقه.

وفي تلك الأثناء، كان الحداد تحت الحراسة في قصر الخان. وأخرج الزهرة الزرقاء ونظر اليها. كانت يانعة وعطرة مثلما في يوم فراقه عن زوجته الحبيبة. فقبل الحداد الزهرة بحنان.

وفي اليوم التالي ألقت زوجة الحداد في الحفرة بكوم من صوف الغنم وأمرت أسيرها ينظفه قائلة:

– أعمل بجد والا فلن تحصل في الظهر على رغيف الشعير.

وقضى الوزير أياما طويلة في الحفرة وهو يعمل ويحصل عند الظهر على رغيف الشعير، بينما ظل الخان ينتظره الى أن مل الانتظار.

فقال ذات يوم للوزير الثاني:

– يبدو أن صاحبك الاكبر لم ينجح في مسعاه طالما لم يجرؤ على المجيء الي. الويل لكم اذا كنتم قد افتريتم على الحداد.

فكاد الوزير أن يموت من الخوف، وقال:

– أيها الخان العظيم. لم نقل لك الا الحق. مرني أن أبرهن لك على ذلك.

فقال الخان:

– حسناً.

ومر بعض الوقت وحدث للوزير الثاني ما حدث للوزير الأول بالضبط. فبعد أن ضيع نقوده وقع في الحفرة المظلمة. وهناك لمح في الظلام رجلا ينظف الصوف فسأله:

– من أنت؟

فسأله الوزير الأول بدوره:

– ومن أنت؟

وعرفا بعضهما البعض فأخذا يسبان و كل منهما يلوم صاحبه ويحمله مسئولية هذه البلوى. وكانت زوجة الحداد تقهقه وهي تصغي الى

شجارهما. ثم ألقت في الحفرة بمغزل وأمرت الوزير الثاني أن يغزل الصرف. وقالت له محذرة:

– لو أهملت في عملك فلن تحصل على رغيف الشعير في الغداء.

وفي تلك الأثناء استخرج الحداد الزهرة الزرقاء فرأى أنها ما زالت يانعة وعطرة كما كانت.

أما الخان، فعندما طال غياب الوزير الثاني، أرسل الى زوجة الحداد بالوزير الثالث وقال له:

– اذا لم تعد بعد ثلاثة أسابيع فسوف أعلقك أنت والوغدين السابقين على المشانق.

ومضى الوزير الثالث حائراً مهموماً، وهو يتوقع شراً، وسرعان ما التقى بصاحبيه في قاع الحفرة الرطبة. وراح كل منهم يحمل الآخرين تبعة ماحدث. بينما أخذت زوجة الحداد تقهقه وهي تقف على حافة الحفرة.

وأعطت للأسير الجديد نولا وأمرته:

– عليك أن تنسج لي في ثلاثة أسابيع بساطاً. فهيا أعمل بهمة ولاتتكاسل، والا فلن تحصل في الغداء على رغيف الشعير...

وذات يوم أمر الملك يحضروا الحداد اليه. فقال له:

– حتى الان لم يعد وزرائي الثلاثة من عند زوجتك. وربما تكون قد أهلكتهم بسحرها. فاذا اتضح أن الأمر كذلك فسأقطع رأسيكما معاً. اما اذا كان الوزراء قد أدعوا عليك كذباً فسأعاقبهم العقاب. سأمضي بنفسي الى مدينتك وسوف ترافقني في سفري.

ومضت قافلة الخان الكبيرة فوصلت المدينة بعد بضعة أيام. وعندما اقتربت من بيت الحداد طلب هذا من الخان الاذن له بأن يخطر زوجته بقدوم ضيف كبير، فوافق الخان، ودخل الحداد البيت.

ومأأن رأته زوجته الحسناء حتى ارتمت عليه، وفي لحظة روى كل منهما للآخر ماحدث له أثناء فراقهما. ثم أدخل الحداد الخان الى البيت في صحبة حراسه.

واستقبلت زوجة الحداد ضيفها الكبير بالتحية والانحناء. وكانت جميلة الهيئة، تفيض حركاتها بالاعتداد، وتقطر كلماتها ذكاء حتى أن الخان رق قلبه وقبل أن يتناول الطعام من يدي امرأة من البسطاء.

وسألها الخان وهو جالس على بساط جميل يشرب الكوميس:

– خبريني أيتها المرأة، ألم يأت اليك في غياب زوجك ثلاثة من وزرائي الواحد منهم تلو الآخر؟

– أطال الله عمر الخان العظيم. ان مكان الوزراء هو الى جوار مولاهم. فما الذي يجعلهم يأتون الى بيت امرأة فقيرة وحيدة؟

فصمت الملك، ولكي يخفي خجله راح يتفحص الرسم الجميل في البساط ثم سألها:

– من أين لك أيتها المرأة بهذا البساط الفخم؟

– لقد نسجه خدمي يا مولاي العظيم.

فرفع الخان حاجبيه دهشاً:

– خدمك؟ ولكن زوجك قال لي انه تركك في فقر شديد. فمن أين جئت بالنقود لتنفقي على الخدم؟

– خدمي يا مولاي لا يحتاجون الى انفاق. انهم يصنعون كل ما آمرهم به لقاء رغيف من الشعير في اليوم.

فعبس الخان وقال:

– هذا لا يمكن تصديقه.

فقالت زوجة الحداد:

– سترى يا مولاى خدمي بعينيك وسيؤكدون لك كل ما قلته.

وغابت المرأة خلف الباب.

وأطلقت سراح الوزراء الثلاثة من الأسر وقالت لهم همساً:

– يا للمصيبة! لقد رجع زوجي! ولو رآكم هنا فسيقضى عليكم. لقد عاقبتكم على وقاحتكم، ولكني لا أبغي موتكم. هاكم موسى، وهيا أحلقوا بسرعة شواربكم ولحاكم، وهاكم ثيابي القديمة فالبسوها بسرعة وسأخرجكم من البيت، على أنكم صديقاتى.

ففعل الوزراء كل ما أمرتهم به دون معارضة. وعندئذ أمرتهم أن يمسكوا بأيدي بعضهم البعض وخرجت بهم الى الغرفة التي كان الخان جالساً فيها يحيط به حراسه.

وعندما رأى الوزراء مولاهم أمامهم تسمروا في أماكنهم جامدين، أما الخان فنظر اليهم طويلا في دهشة وأخيراً قال:

– يالهم من خدم غريبين! منظرهم وقاماتهم تشبه الرجال، أما بملابسهم فيشبهون النساء. يخيل الى أنني أعرف وجوههم. من هؤلاء المسوخ؟

فأجاب الحداد بدلا من زوجته:

– انهم الذين افتروا علي أمامكم وأرادوا تشويه سمعة زوجتي الشريفة. تلك هي الحقيقة يامولاي.

وعلى الفور خر الوزراء على ركبهم وأعترفوا بسوء أعمالهم.

وأصغى اليهم الخان وهو يغلى غضباً، ولكن ما أن بدا الوزراء يروون ما حدث لهم في بيت الحداد حتى ارتعشت شفتا الخان واهتزت كتفاه، وانفجر ضاحكاً حتى أنه سكب الكوميس كله على ردائه الحريرى. وبعد ان شبع ضحكاً اعتدل في جلسته وقال:

– منذ زمن بعيد لم أضحك كما ضحكت اليوم. ومنذ هذه اللحظة سأعين هؤلاء الأغبياء الثلاثة الذين ضحكت عليهم امرأة، وكنت اعتبرهم وزرائي، سأعينهم مهرجين في بلاطي، – والتفت الى الحداد قائلا، ـ أما أنت أيها الأسطى المجيد فستذهب معي أنت وزوجتك الوفية الى عاصمتي ضيفين عزيزين، وسأكافئك حسب قدرك وخدماتك.

* * *

مر ما مر أعوام ودهور، وطوى التراب عظام الخان ووزرائه الخبثاء الذين أصبحوا مهرجين، والحداد وزوجته الجميلة. لكن القصر الذي شيده الأسطى العظيم ما يزال قائماً الى الآن في مكانه يخلب الأنظار بجماله المدهش.

كل شيء مصيره الزوال ولا يخلد الا ما يصنعه عقل الانسان ويداه.

أسم عجيب

كان لدى أحد الآباء ثلاثة أبناء: الاثنان الأكبر من زوجته الأولى، والابن الأصغر – وكان يدعى أسبان – من زوجته الثانية. ورغم أن أسبان كان فتى طيباً ذكياً، متسامحاً الا أن أخويه أضمرا له الكراهية منذ الصغر. وتحمل الفتى منهما كل الوان الاذى والسخرية، وبكى كثيراً في السر بكاء مرآ، لكنه لم يشكهما الى أبيه أبداً ولم يمكربهما أو يلحق بهما ضرراً.

ومرت الأيام والأعوام وكبر الأولاد وشاخ الأب. وبعد وفاته قسم الأولاد فيما بينهم ماتركه أبوهم فلم يعط الاخوان الأكبر للأصغر سوى خيمة سوداء وبضع غنمات. وقالا له وهما يضحكان:

– عندما يرد البقر الماء تلحس العجول القطرات!

فلم يشأ الفتى أن يتشاجر مع أخويه وقال لنفسه :

«سأعيش كيفما كان. ونقاء الضمير أفضل من الثروة...»

وبعد فترة أعجب أسبان بفتاة فقيرة فتزوجها وعاش معها في ظل الحب والوئام.

ومر عام، وذات مرة دعا الاخوان أخيهما الأصغر وقالا له:

– علمنا من «الأذن الطويلة»* أن أسعار الثيران قد ارتفعت في عاصمة الخان. ونريد أن نسوق الى هناك قطيعاً لبيعه. فهيا ساعدنا في سياقة الثيران الى هناك. فاذا حالفنا التوفيق فسنعطيك ثوراً.

---

* الأذن الطويلة: «تعبير يطلق على تبليغ الأخبار في السهوب من فارس الى فارس – **الناشر.**

فأجابهما أسبان:
– شكراً على الوعد، ولكنى مستعد لمساعدتكما دون مقابل.
فتبادل الاخوان نظرات ماكرة وقالا:
– عظيم. مادمت ترفض المكافأة فهذا أفضل. كان أبونا دائماً يمدحك لقلبك الطيب. استعد للسفر. سنمضى في الفجر.
وفي الصباح ودع الشاب زوجته، فعانقته وقالت وهى تبكى:
– تصحبك السلامة يا نور عينى. عد الي بالتوفيق. وعندما تعود سيكون ابنك البكر فى انتظارك في مهده.
كان أسبان قد خبر مشقة العمل في رعى الثيران وسط السهوب. وكان اخواه يعرفان ذلك، فأخذاه معهما حتى يلقيا عليه العبء وينفقا عن نفسيهما المشقة. ولكنه عندما تذكر ما قالته زوجته عن ابنهما البكر لم يعد يلاحظ التعب أو طول الطريق، وبدا أسعد الجميع.
ووصل الاخوة الى العاصمة، فاستأجروا قرب السوق حظيرة ماشية وقضوا ليلتهم فيها مع الثيران. وما أن استعدوا للنوم حتى تردد وقع حوافر خيول، ثم وصلت فصيلة من الفرسان حراس الخان.
وقال قائد الفصيلة:
– أيها التجار. دعوا ثيرانكم هنا واتبعونا، الخان أمر باحضاركم.
وارتعش الاخوان الأكبر خوفاً، ولكن الأصغر طمأنهما:
– نحن لم نرتكب أية مخالفة، ولن يؤذينا الخان. المهم ان تكونا مهذبين معه وترد على أسئلته بحكمة.
وبالفعل فقد استقبلهم الخان في قصره بمودة وقال لهم بلا صرامة:
– لكل شهر اعشابه، ولكل مكان عاداته. ومن عاداتنا ان كل من يأتي الى العاصمة ليبيع سلعة ما ينبغى أن يأتي الى الخان ويحل أحد الألغاز التي تطرح عليه. فمن يعرف الحل يحصل على مكافأة وعلى حق البيع، ومن لا يعرف الحل نطرده من المدينة. فهيا استعدوا للاختبار.
فهمس الاخوان الأكبران:
– لقد ضعنا!
فقال أسبان بصوت خافت:
– اعتمدا علي.
فمضى الخان يقول:
– اليكم ثلاثة ألغاز ولتكن الاجابة حسب ترتيب أعماركم. الأكبر أولا هاهو اللغز الأول: «أعلى من الحصان وأقصر من الكلب». فما هذا؟

والثاني: «من الحي يولد ميت ومن الميت يولد حي» فما هذا؟ والثالث: في عش واحد أربعون صقراً» فما هذا؟

وبينما كان الاخوان الأكبران يقطبان جبينبهما ويطرفان بأعينهما تقدم الأصغر خطوة الى الأمام وقال:

– هل يأذن لى الخان العظيم بالكلام؟ لقد حلّلت جميع ألغازك.

فذهل الخان وصاح:

– لا يمكن!

فقال الفتى:

– «الأعلى من الحصان والأقصر من الكلب» هو السرج، أليس كذلك؟ و«الميت الذي يولد من الحي» هو البيضة و«الحي الذي يولد من الميت» هو فرخ العصفور. و «في عش واحد أربعون صقراً» هي السهام في الجعبة.

فهتف الخان:

– لقد حلها. اذا أجبت على ثلاثة أسئلة أخرى فسأمنحك هدية ثمينة.

فقال أسبان مبدياً أتم استعداده:

– أنا مستعد يا مولاي.

فسأله الخان:

– أي الأحجار أثقل حجر؟

– ذلك الذي يسقط على الرأس يا مولاي.

– صحيح! وما هو الشيء الأشد حدة من السيف؟

– اللسان أحد من السيف.

– مضبوط! وما الذي لا يعرفه كل واحد في العالم؟

لا أحد، ولا حتى أعظم الحكماء. لا يعرف ما الذي سيحدث له بعد دقيقة.

فنظر الخان الى الفتى باعجاب وقال:

– ان عقلك كبير أيها الشاب. أريد أن أعرف أصلك واسمك، فربما احتجت اليك.

وبعد أن سمع الخان جواب الفتى أمر كبير وزرائه يعطيه كيس ذهب، ثم قال للاخوين الأكبر:

– بالرغم من أن ذكاءكما لم يسعفكما في حل الألغاز الا أنني سأسمح لكما بالبقاء في العاصمة اكراماً لأخيكما الأصغر الى ان تفرغا من بيع ماشيتكما.

فشكر الاخوة الخان وانصرفوا في صحبة الحراس الى الحظيرة حيث كانت ثيرانهم تجتر العلف في هدوء. ولم يغمض للاخوة جفن طوال الليل: فلم ينم الأصغر من شدة الفرحة، ولم ينم الاخوان الأكبر من الحسد والغيرة من ذكاء أخيهما وهدية الخان اليه.

وفي الفجر افتتحت السوق ودبت فيها الحركة. ولم يمض وقت طويل حتى كان الاخوة قد باعوا ثيرانهم وربحوا ربحاً طيباً، ورحلوا عن المدينة.

وعندما أصبحوا في وسط المقفرة بدأ الاخوان الأكبر يقسمان الدخل، فقال لهما أسبان:

– اسمحا لى يا أخوتي أن أضم الى نقودكما ما وهبني الخان حتى نتساوي أنصبتنا من الذهب.

فأخذ الأخوان نقوده دون خجل ولكن كرمه زاد من جشعهما وأرادا أن يستوليا على نصيب أسبان كله.

فتخلفا عن أثناء السير واتفقا فيما بينهما:

– هيا نقتل أسبان وندعى أن ثعباناً لدغه. ليس هنا شهود فلن يكشفَ أحد أمرنا.

واستلا خنجريهما وحثا جواديهما.

وعندما رأى اسبان الخناجر المشرعة أخذ يستعطف أخويه:

– ياأخوتي، لماذا تسفكون دمي؟ خذوا نقودي ودعوني أعيش. لا تطفئوا النار فى خيمتي...

ولكنَ أخويه الشريرين ضحكا رداً على استعطافه:

– هذا لن يكون! اذا رأفنا بك فستسلمنا للخان، وعندئذ يقتلنا بناء على وشايتك، وتحصل أنت على أملاكنا. كلا، أنت ذكي حقاً ولكنك لن تخدعنا.

فقال أسبان يائساً:

– حسناً، اذا لم يكن في قلبيكما رحمة أقتلاني. ولكن استجيبا عنى الأقل لرغبتي الأخيرة.

– ماذا تريد أن تطلب منا؟

– اذا عدتما الى البيت ووجدتما زوجتي قد ولدت ولداً فقولا لها أن تسميه «مغيث». هذه شيئتي الأخيرة...

فقهقه الأخوانَ وقالا:

– هذا الطلب لا يكلفنا شيئاً. حسناً. نعدك بأك ننفذه.

وانهالا على أخيهما بالخناجر...

* * *

مرت عشرة أعوام. وكبر الخان ولكنه كان لايزال متمتعاً بكامل قواه. لكن كبير وزرائه هرم جداً ولم يعد قادراً على خدمة سيده لا بالعمل ولا بالمشورة. وعندئذ تذكر الخان ذلك الشاب الذكي الذي حل ألغازه بسرعة، وقرر ان يأخذه الى بلاطه ويجعله كبير وزرائه.

وأمر الخان بتسريج الجياد ومضى مع حاشية كبيرة الى المكان الذى كان يعتقد أن قبيلة أسبان ترعى فيه. واستمر البحث فترة طويلة. وذات يوم اقترب الركب من احدى القرى فسمع الفرسان صيحة امرأة:

– يامغيث! يا مغيث!

فلوح الخان بسوطه وقال:

– اتبعوني! هناك امرأة تستغيث، فلنخف الى نجدتها.

وحث الحصان فانطلق يعدو بأقصى سرعة.

وعندما رأى المرأة أمامها الخان وحاشيته الكبيرة والفرسان المسلحين ارتعشت رعباً وغطت وجهها بيديها. فسألها الخان برقة:

– ماذا حدث ياامرأة؟ لماذا تصرخين مستغيثة؟ من الذي اهانك؟

فتمامكت المرأة نفسها واجابت:

– أيها الخان العظيم، لم يهنى أحد. ان «مغيث» هو اسم ابني. وقد مضى مع الأولاد الى السهوب وحان وقت غدائه، ولذلك كنت أناديه: يا مغيث!

فدهش الخان وقال:

– ياله من اسم غريب! أول مرة اسمع هذا الاسم. كيف خطر لك ولزوجك أن تسمياه بهذا الاسم؟

فروت له المرأة أنه منذ عشر سنوات توجه زوجها مع اخويه الى العاصمة لقضاء بعض الشئون، وفي طريق العودة مات زوجها من لدغة ثعبان، وطلب قبل وفاته أن يسمى ابنه البكري بهذا الاسم.

فاستغرق الخان في التفكير. وظهر الانفعال على وجهه، وسأل المرأة:

– خبريني، كيف كان يدعى زوجك؟ أليس أسبان؟

فأجابت المرأة:

– بلى يا مولاي. كان اسمه أسبان.

فهتف الخان بقوة:

– كل شيء مفهوم! هذا الرجل الحكيم لم يمت من لدغة ثعبان بل من حقد بني الانسان. وعندما طلب أن يسموا ابنه «مغيث» فقد أراد في ساعة الموت أن يخبر الناس بمصيره الرهيب. خبريني أيتها المرأة، هل اعطاك الاخوان القاتلان الذهب الذي كان ملكاً لأسبان؟

فوقفت المرأة حائرة، ثم قالت:

– اعذرني أيها الخان العظيم على غبائي، فأنا لا أفهم عم تتحدث. لم يكن لدينا في يوم من الأيام فلس واحد، والآن بصفة خاصة. لقد سلبني الشقيقان آخر ما تبقى لدي من ماشية تركها لنا والد زوجي.

فاستشاط الخان غضباً وقال:

– احضروا القتلة!

وجاءوا بالاخوين. وأدركا أن الكذب والانكار لن يقيداهما بشيء فاعترفا بجريمتهما.

وأمر الخان بنقلهما الى المكان الذي قتلا فيه أسبان وقطع رأسيهما هناك، وأعادة كل ما نهباه من أسبان الى أرملته.

وفي تلك الأثناء جاء «مغيث» من السهوب مهرولا. وركض نحو أمه، ولكن الخان دعاه اليه وأمسكه من كتفيه وسأله:

– هل تستطيع يا مغيث أن تحل الألغاز؟

فأجاب الفتى بشجاعة:

– أستطيع.

– قل لي اذن ما هذا: «الأنشوطة الملونة طالت من تل الى تل».

فأجاب الصبي دون تفكير:

– قوس قزح!

فابتسم الخان وتهلل:

– شاطر! أنت ذكي كأبيك. ستذهب معي الى القصر. وهناك ستدرس وتخدمني. وعندما تكبر وتحصل المعارف سأعينك وزيراً.

فالتصق «مغيث» بأمه وقال:

– مولاي، أليس لديك خدم كثيرون؟ ألا يوجد بين ابناء شعبنا مستشار للخان أذكى من صبي حافي القدمين؟ أما أمي فليس لها خادم غيري وناصح غيري ونصير غيري بعد وفاة ابيء اسمح لي أن أبقى معها.

فلم يجد الخان ما يرد به على الصبي وتركه مع أمه.

الاخوة الجوالة

كان ياماكان، في سالف العصر والأوان، رجل عالم فاضل. وكان له ثلاثة أبناء. والمثل يقول: ابن الصياد يشحذ السهام، وابن الخياط يحيك الثياب. ومن ثم فقد انكب ابناء العالم على كتب الحكمة منذ الصغر. ولم يكن أكبرهم يستطع ظهر الحصان بعد، بينما بدأ الناس يقصدون الاخوة طلباً للنصيحة.

وذات يوم جاءهم رجلان بناقتين وقعود. وقال الرجلان:

– جئنا نعرض عليكم قضيتنا. لكل منا ناقة. والناقتان ترعيان معاً دائماً في السهوب. ومنذ فترة قريبة ذهبنا لاحضارهما فوجدنا قعودين حديثي الولادة. وكان أحدهما حياً والآخر ميتاً. ونحن الآن لانعرف لمن هذا القعود؟ وأية ناقة منهما ولدته. فالناقتان ترضعانه وتلاطفانه بنفس الدرجة، وهو يلاطفهما بنفس الدرجة.

فقال الأخ الأكبر:

– خذا الناقتين الى النهر.

وقال الأخ الأوسط:

– وانقلا القعود الى الشاطىء الآخر.

وقال الأخ الأصغر:

– وعندئذ تحل قضيتكما من تلقاء نفسها.

ففعل الرجلان مثلما أشار الاخوة.

وعندما أصبح القعود وحده على الشاطىء الآخر تملكه الخوف فراح يهرول ويصرخ مستعطفاً. وقلقت الناقتان ايضاً وصاحتا. وأخذت احداهما

تهرول بخذاء الشاطىء حينما انقضت الأخرى من الشاطىء المرتفع الى الماء وسبحت الى القعود. وهنا أدرك الرجلان ان هذه الناقة هي أمه.

وانتقلت أخبار الاخوة الأذكياء من فارس الى فارس ومن راجل الى راجل وعمت أرجاء السهوب. وكان العالم العجوز سعيداً وفخوراً بأبنائه.

ومرت الأعوام، وهرم الأب وكبر الأطفال، وعندما بلغوا سن الرشد قال العالم لهم:

– ليس الذي يعلم كثيراً هو من عاش كثيراً، بل من رأى كثيراً. من يعرف قيمة الذهب الحقيقية؟ ليس الغنى بل الصائغ. ومن الذي يعرف جيد الطعام؟ ليس من أكل بل من أعده. ومن الذي يستطيع ان يدل على الطريق الصحيح؟ ليس من عزم على السفر بل من سافر. فلتدعوا الكتب هنا ولتسعوا في الأرض لكي تدرسوا كتاب الحياة، أحكم الكتب.

وبارك الأب أبناءه، ورحل هؤلاء عن دارهم في سياحة طويلة.

ومضى الاخوة في طريق من آلاف الطرق وهم يتبادلون الحديث.

فقال الأخ الأكبر:

– منذ فترة قصيرة مر في هذا الطريق جمل متعب.

فصرخ الرجل وقال:

– وهذا الجمل أعور العين اليسرى.

وقال الأخ الأصغر:

– ويحمل عسلا:

واذا بهم يرون رجلا مضطرباً لاهث الأنفاس. وسألهم الرجل:

– ألم تروا جملا مر من هنا؟ لقد سرق اللصوص جملي.

فسأله الأخ الأكبر:

– جملك قطع طريقا طويلا وأصابه التعب. اليس كذلك؟

فقال الرجل:

– بلى.

وسأله الأخ الأوسط:

– وهو أعور العين اليسرى؟

فصرخ الرجل وقال:

– نعم، نعم!

وسأله الأصغر:

– وكان يحمل عسلا؟

نعم عسلا. خبروني بسرعة أين هو؟
فأجاب الاخوة:
– هذا مالانعرفه. نحن لم نره.
فغضب الرجل وقال:
– كيف تدعون أنكم لم تروا الجمل اذا كنتم تعرفون كل أوصافه؟ لا بد أنكم سرقتم الجمل وأخفيتموه في مكان ما.
وأخذ يصيح ويصرخ فسمعه جنود الخان كانوا مارين بالقرب منهم. فخف الجنود نحوهم واخذوهم الى الخان.
وبدأ الخان سؤالهم:
– تقولون انكم لم تروا الجمل المسروق. فكيف استطعتم أن تصفوه لصاحبه بهذه الدقة؟
فقال الأخ الأكبر:
– لقد عرفت أن الجمل قطع طريقاً طويلا من أثره. فالحيوان المتعب يجرجر سيقانه، فتصبح آثارهما طويلة.
وقال الأخ الأوسط:
– وعرفت أن الجمل أعور العين اليسرى لأنه العشب كان مأكولا على جانب الطريق الأيمن فقط.
وقال الأصغر:
– لم يكن من الصعب أن أعرف أن الجمل كان يحمل عسلا، فقد كانت أسراب الذباب تحلق فوق الطريق.
وأعجب الخان بفطنة الاخوة وبرصانتهم وهم يتحدثون أمامه. ولكنه أراد ان يتأكد مرة أخرى من فطنتهم. فلف خلسة رمانة غير ناضجة في منديل، وعرضه على الاخوة وسألهم:
– ماذا في يدي؟
فقال الأخ الأكبر:
– شيء مستدير.
وقال الأوسط:
– ولذيذ جداً.
وقال الأصغر.
– انها، باختصار، رمانة أيها الخان العظيم.
فهتف الخان:
– مضبوط، لم أر في حياتي مثلكم في دقة الملاحظة انكم مازلتم شباناً،

ولكن وزرائي الكبار السن لا يساوون شيئاً بالمقارنة بكم. ابقوا عندي ثلاثه أيام لفض المنازعات بين رعاياي بالدور. فاذا وجدت احكامكم عادلة فساعينكم وزراء عندي.

وعندما سمع الوزراء العجائز ذلك حقدوا على الاخوة حقداً شديداً وعزموا على الحاق الأذى بهم بكل وسيلة حتى لا يقاسمهم الاخوة المنصب والثروة والحظوة لدى الخان.

وفي اليوم الأول قام الأخ الأكبر بالفصل في القضايا. وجيء اليه برجلين، فقال أحدهما:

– انا راع فقير. وبالامس ذبحت أفضل خرافي بسبب العوز وبعت لحمه اليوم في السوق. ووضعت المبلغ المتحصل في كيس نقودي، ولكن هذا الرجل سرقه من جيبي.

وأنكر الرجل الثانى ذلك وقال:

– الراعي كذاب. انا معى كيس نقود ولكنه كيسي. وهذا الماكر يفتري علي ويريد أن يستولى على ما ليس له.

فقال الأخ الأكبر القاضي:

– أعطني هذا الكيس. وسنعرف حالا نقود من هذه.

وأمر خدم الخان أن يحضروا قدحاً به ماء ساخن، وألقى بقطع النقود فيه. وعلى الفور غطت سطح المياه طبقة من الدسم كأنما كان يطهى فيها لحم ضأن. ولم يعد هناك أدنى شك في صدق أقوال الراعي. فأعطى له القاضي نقوده وأمر الحراس بالقبض على اللص.

وفي اليوم الثاني قام الأخ الأوسط بالفصل في القضايا.

وجاءه بيك بدين كالكيس المحشو، وهو يسحب معه أحد المساكين البائسين.

وقال البيك:

– هذا الشقي توسل مني رطلا من اللحم ديناً، بحجة أن ابنه يحتضر. وأقسم أن يرد لي الدين ولو اضطر الى قطع اللحم من ساقه. وها قد توفى ابنه منذ زمن طويل، والايام تمضى وهذا الماكر لا ينوي أن يرد لي اللحم أو يدفع ثمنه.

فسأل القاضي الرجل المسكين:

– لماذا لم ترد للبيك دينه؟

فأجاب المسكين وهو يرتعش خوفاً:

– أنالا أملك شيئاً. ولن أستطيع أن أرد له دينه قبل الخريف.

فصاح البيك:
– ولكني لست مستعداً للانتظار حتى الخريف!
فقال القاضي:
– اذن سأحكم بما يأتي: خذ أيها البيك سكيناً واقطع قطعة لحم من ساق المدين وزنها رطل تماماً! فاذا جاءت القطعة اصغر او اكبر ولو مقدار حبة شعير فسآمر بجلدك بالسوط.
وذهل البيك من المفاجأة، ثم ولى هارباً وهو يتعثر في أطراف ردائه. وضحك الجميع منه، أما المسكين فشكر القاضي على حكمه الرحيم.
وفي اليوم الثالث أصبح الأخ الأصغر قاضياً. وجاءه شابان. وكان المدعي فيهما هو الأطول قامة والأعرض صدراً. وراح يشكو:
– صاحبي هذا انتزع مني ديناراً ذهبياً.
فقال المدعى عليه:
– لقد كسبت الدينار من عمل شريف. ولم يدر بذهني أبداً أن أعتدي على أحد.
فسأل القاضي المدعي:
– وهل كان هناك شهود عندما اعتدى عليك صاحبك؟
– كلا، لم يكن هناك أحد.
فقال القاضي:
– سيكون من الصعب الحكم في قضيتكما. سأفكر قليلا في الأمر.
وأثناء ذلك رفها عني بالمصارعة. ومن ينتصر سيحصل مني على مكافأة.
واستغرق القاضي في التفكير، اما الشابان فأمسك أحدهما بتلابيب الآخر وأخذا يتصارعان. ولم يمض ربع ساعة حتى كان المدعي قد طرح خصمه أرضاً ثلاث مرات.
فقال القاضي:
– يكفي هذا. لقد ظهرت الحقيقة، وهاهو حكمي. لقد اتضح حتى للجاهل من منكما الأقوى. فالمدعي طرح المدعى عليه أرضاً ثلاث مرات على مرأى من الجميع. فهل يصدق أحد أن الضعيف يستطيع أن ينتزع النقود من القوي؟ كلا، المدعى عليه برىء. أما أنت أيها المفتري الوقح فتستحق العقاب جزاءاً على افترائك وادعائك. ولكني سأسامحك مكافأة لك على تفوقك في المصارعة كما وعدت. هيا تصالحا وحاولا أن ترجعا صديقين.
وحيا الحاضرون جميعاً هذا الحكم العادل واحكام الاخوة الثلاثة، وأعرب الخان أيضاً عن رضاه. لكن الوزراء العجائز أظهروا سخطهم وغضبهم.

وحاولوا أن يقنعوا الخان بأن الاخوة الثلاثة أفاقون محتالون، ومن غير الحكمة الثقة في غرباء مجهولين، وهم على الارجح جواسيس أرسلهم الأعداء للتآمر عليه. ولكن الخان صاح بالوشاة وأعلن قراره للجميع:

– أعين الحكماء الشبان الثلاثة وزراء لي. في النهار يعاونونني في شئون الحكم، وفي المساء يسرون عني بالروايات والأحاديث، وفي الليل يسهرون على حمايتي.

ومرت الأيام. وازداد الخان تعلقاً بالشبان الثلاثة. وكان في أوقات المساء يسمع أحاديثهم بالساعات وينام وقد هدهدته الروايات العجيبة. وكان الاخوة يخدمونه بالدور، ويحيطهم هو برعايته، ولكنه ميز بصفة خاصة الأخ الأصغر. ولهذا حقد عليه الوزراء العجائز أكثر من حقدهم على الآخرين. وقرروا أن يقضوا عليه.

وذات يوم، وعندما كان الأخ الأصغر ملازماً للخان، ألقى الوزراء حية سامة في مخدع الخان خلسة. وقدروا أن الخان عندما يرى الحية سيرتاب في الوزير الشاب ويتهمه بسوء النية، وعندئذ يصبح من الممكن القضاء على الاخوة مستغلين غضب الملك.

وحل الليل. وأوى الخان الى فراشه، بينما راح للوزير الشاب يروي له الأساطير القديمة ببلاغة وروعة وكأنه يقرأ من كتاب. وكان الملك يصغى بانتباه، فلم يواته النوم الا بعد منتصف الليل.

كان الشاب على وشك أن يطفىء المصباح عندما رأى الحية الرهيبة تزحف نحو فراش الخان. فلم يرتبك الشاب واستل سيفه وقطع رأس الأفعى، وألقى بجسدها الممزق تحت سرير الخان. وكان على وشك أن يعيد سيفه الى غمده عندما أفاق الخان على الضجة.

وحينما رأى وزيره أمامه مستلا سيفه قفز من سريره صائحاً:

– النجدة! يريدون قتلي!

فاندفع الى الغرفة حراس الخان وقبضوا على الشاب والقوا به في السجن الى الصباح.

وفي الصباح جمع الخان كل الوزراء وعقد مجلساً للنظر في أمر السجين وتقرير مصيره.

وتحدث الوزراء حسب أسبقية أعمارهم. ورددوا جميعا نفس الشيء وهم يتبارون في البلاغة، فاتهموا الشاب بالخيانة والغدر والتآمر على حياة سيده وولي نعمته، وطالبوا باشد العقاب واقساه له. وكان الخان يصغى

اليهم ويهز رأسه ويزداد عبوساً. وتهلل الوزراء فرحاً ولكنهم كتموه في قلوبهم، وأصبحوا على يقين من نجاح مسعاهم الخبيث.

وأتى الدور على الأخ الأكبر فقال:

– اسمح لي أيها الخان العظيم أن أروي لك حكاية قديمة كتلك التي كنا نرويها لك أنا واخوتي ليالي كثيرة بجوار فراشك.

في سالف الأوان كان يعيش شاه عظيم. وكان يحب أكثر شيء ذلك الببغاء المتكلم الذي كان موضوعاً في قفص ذهبي في مخدع الشاه. وكان الببغاء الحكيم يقدم النصح للشاه في الأمور الصعبة ويفرج عنه كربه ويسليه وقت فراغه.

وذات مرة اقترب الشاه من القفص فرأى الببغاء مهموماً حزيناً فسأله الشاه:

– ماذا بك ياصديقي الطائر؟

فأجابه الببغاء:

– لقد حضر الي أصدقائي من وطني البعيد، ونقلوا ان أختي ستتزوج وتريد أن أحضر عرسها. فلتأذن لي يامولاي أن أطير الى وطني. وسآتي اليك بهدية ثمينة تقديراً لعطفك.

فسأله الشاه:

– وكم يوماً تستغرق الرحلة؟

– اربعين يوماً يامولاي. في اليوم الأربعين سأكون هنا.

ففتح الشاه باب القفص واطلق سراح الطائر.

فقال وزير الشاه الذي حضر هذا المشهد:

– أستطيع ان اؤكد لك يامولاي أن هذا الطائر الماكر قد خدعك ولن يرجع الى القفص أبداً.

فالأشرار يامولاي الخان لايثقون بأحد ويرتابون في كل شيء. وكان هذا الوزير شريراً.

ومر أربعون يوماً وعاد الببغاء وقد أوفى بوعده. وفرح الشاه كثيراً وسأله مازحاً:

– ماهي الهدية التي جئتني بها ياصديقي؟

ففتح الطائر منقاره ووضع على راحة الملك حبة صغيرة ودهش الشاه، ولكنه كان يعرف مدى حكمة الببغاء، فنادى بستانيه ذا اللحية البيضاء وأمره أن يغرس الحبة. وبعد يوم واحد نبتت شجرة تفاح باسقة، وبعد يومين أزهرت، وبعد ثلاثة ازدانت بالثمار العطرة.

وقطف البستاني أنضج تفاحة وحملها الى الشاه. ولكن الوزير استوقفه في الطريق، وسبه لأنه يحمل التفاحة في يديه، وأمره أن يذهب لاحضار طبق من الذهب. وانصرف البستاني العجوز، فدهن الوزير التفاحة بالسم، وعندما عاد البستاني ذهب معه الى الشاه. وروى البستاني للشاه قصة هذه الشجرة العجيبة ووضع التفاحة أمامه وانصرف. فقال الوزير:

– مولاي، هذه التفاحة تبدو جميلة، ولكن الجمال كثيراً مايكون خداعاً. ان الشك يراودني في أنها مسممة. فلتأمر بأن يحضروا من السجن أحد القتلة المحكوم عليهم بالاعدام وليأكل هو أولا من هذه التفاحة.

وعمل الشاه بنصيحة وزيره. وأتوا بشرير مكبل بالقيود وأجبروه على أكل قطعة من التفاحة فخر صريعاً على الفور.

وجن جنون الشاه، وانطلق الى الغرفة المجاورة وأخرج الببغاء من قفصه وكسر عنقه.

وبعد فترة خطر للشاه أن يرى الشجرة بنفسه. فخرج الى البستان وصاح منادياً البستاني. فخف اليه شاب ممشوق القوام جميل الوجه. فسأله الشاه:

– من أنت؟

– أنا بستانيك يامولاي.

فدهش الشاه:

– ولكن بستانيي كان عجوزاً مهدماً.

فقال الشاب الجميل:

– انه أنا يامولاي. فبعد أن قتلت أنت الببغاء فكرت أنا بأنني لن أنجو من غضبك فقررت أن آكل تفاحة مسممة حتى أتخلص من العذاب، فقطفت واحدة وقضمتها وعلى الفور عاد الي شبابي.

فذهل الشاه، واقترب من شجرة التفاح السحرية وكأنه في حلم، وقطف تفاحة وقضم منها. فشعر بلذة لا توصف تسري في بدنه، وأحس بنفسه شاباً قوياً كما كان وهو في الثامنة عشرة.

وأدرك أنه جنى على الببغاء المخلص، فأخذ ينتحب من هول الفجيعة والندم، ولكن لات ساعة مندم. فالحكام يستطيعون القضاء على الحياة، أما على اعادتها فليسوا بقادرين.

فصاح الخان ونهض من مكانه وعيناه تقدحان شرراً:

– كفى، اصمت! أنت وأخوك متآمران مع أخيكما وتريدان تبرئة

الشرير من اثمه لكي لا يحل بكم العقاب ولتنقذاه وتنقذا نفسيكما. واذن، وحسب كلامكما، فهو ليس مذنباً أمامي بل أنا المتسرع وأنا الذي ظلمته. حسناً فلماذا اذن رفع سيفه على مولاه؟

فأجاب الاخوان:

– هذا ما لا نعرفه. اسأله هو عن هذا.

فصاح الخان بالحراس:

– احضروا السجين.

وجاءوا بالأخ الأصغر أمام مجلس الخان و وزرائه.

فسأله الخان وهو يحدق في عينيه مختبراً:

– خبرني ولا تخف عني شيئاً، فلن ينجيك المكر من العقاب، لماذا شرعت سيفك بالأمس عند سريري؟

فأجاب الشاب بهدوء:

– لكي أنقذك من الموت يامولاي.

– ومن كان يتهددني بالموت غيرك؟

– الحية التي كانت ستلدغك، والتي مزقتها بالسيف.

فسأله الخان مندهشاً:

– الحية؟ ما هذا الكذب! أية حية يمكن أن تتسل الى مخدعي؟

– وزراؤك المحنكون يامولاي، والذين تعتمد عليهم، يستطيعون أن يردوا على السؤال أفضل مني.

وهرول الخان الى مخدعه، وبعد فترة قصيرة عاد على مهل مطأطىء الراس. واقترب من الأخ الأصغر وعيناه مغرورقتان بالدموع، وعانقه وقال بانفعال:

– سامحني ياصديقي الوفي ومنقذ حياتي. الآن عرفت الحقيقة. أطلب ما تريد مني تكفيراً من اساءتي. واقسم أمام الجميع أنني لن أرد لك طلباً.

فقال الشاب:

– أرجوك يامولاي أن تطلق سراحنا نحن الثلاثة وتعفينا من الخدمة. اسمح لنا أن نواصل تجوالنا، فان طريقنا لم ينته بعد، ولم نبلغ في قراءة كتاب الحياة الا منتصفه.

لم يتوقع الخان هذا الطلب. فثارت ثائرته، واحمر وجهه غضباً، ولكنه لم يستطع أن يخل بوعده.

وترك الاخوة بلاط الشاه.

ابنة الحطاب

في سالف الأزمان عاش حطاب عجوز فقير مع ابنته البالغة تسعة أعوام في كوخ بائس. ولم يكن لديه من متاع الدنيا سوى فأس متآكلة وفرس عرجاء وحمار عجوز. ولكن الحكماء يقولون: «سعادة الغني أمواله، وسعادة الفقير عياله». وبالفعل فكلما كان الحطاب ينظر الى ابنته الصغيرة، كان ينسى كل همومه وأحزانه.

كانت الفتاة تدعى آينة – كيز. وكانت لطيفة وذكية وبشوشاً الى درجة أن كل من يراها يحبها للوهلة الأولى. وكان الأولاد يأتون من المضارب البعيدة ليلعبوا معها، ومن القرى النائية يفد الشيوخ ليتحدثوا معها.

وذات يوم ربط الحطاب حملا من الحطب على ظهر فرسه العرجاء وقال مودعاً ابنته:

– يا حبيبتي آينة ـ كيز، انا ذاهب الى السوق وسأعود في المساء، فلا تقلقي في غيابي. واذا بعت الحطب فسأحضر لك هدية.

فأجابته ابنته:

– حالفك النجاح يا أبي. اذهب على بركة الله، ورجائي أن تأخذ حذرك، فالناس يقولون ان السوق مكان ملعون، البعض يغتني والآخر يفلس. فلتعد بسرعة، وسوف انتظرك على الغداء.

وحث الحطاب فرسه بالسوط ومضى الى السوق.

وعند ما وصل السوق انتحى جانباً وراح ينتظر الزبائن. ولكن الوقت كان يمضي دون أن يقترب منه أحد.

وفي تلك الأثناء كان أحد البكوات الشبان يطوف بالسوق، متباهياً بلحيته السوداء وردائه الحريري. وعند ما رأى الحطاب العجوز المهلهل الثياب قرر أن يسخر منه.

فسأله «البيك»:
– اسمع يا شيخ، هل تبيع الحطب؟
فأجاب الحطاب:
– نعم أبيع.
– ماذا تريد مقابل حملك؟
– درهماً.
– وهل تبيعني الحطاب بهذه الحالة، كما هو عليه، مقابل هذا الثمن؟
لم يفهم الحطاب ما يقصده المشتري بهذه الكلمات، ولم يتوقع منه شراً فأجابه:
– نعم.
فقال البيك:
– حسناً. هاك الدرهم. اتبعني بفرسك.
وعند ما وصلا الى فناء دار البيك شرع الحطاب في فك الرباط لكي يضع حمل الحطاب بجوار المنزل. ولكن البيك دفعه في صدره بغلظة وصاح بصوت عال:
– ماذا تريد أن تفعل أيها العجوز الأحمق؟ أتريد أن تعود بالفرس؟ لقد اشتريت منك الحطاب «بتلك الحالة كما هو عليه»، واذن فالفرس الآن ملكي. وما دمت قبضت الثمن فلتغرب عن وجهي، وبسرعة!...
وحاول الحطاب أن يعترض، ولكن البيك لم يصغ اليه، بل أشاح بيديه وصاح بصوت أعلى من ذي قبل، وأخيراً أمسك بكم العجوز وسحبه الى القاضي.
والحكماء يقولون: «البيك الشرير يحول الجواد الأصيل الى فرس عجوز والقاضي الشرير يحول ما كسبته بعرق الجبين الى ملكية للآخرين». وبعد أن سمع القاضي المتخاصمين مسد لحيته، ونظر الى رداء البيك الحريري، وأصدر حكمه مؤملا في المكسب: لقد حصل الحطاب على الثمن الذي طلبه كاملا، وهو وحده المذنب فيما حل به ما دام قد وافق على شروط المشتري.
قهقه البيك طويلا بعد حكم القاضي وقد سره ما فعله، أما الحطاب فبكى بحرقة، ومضى الى قريته محنى القامة.
كانت آينة – كيز قد أحرقت كثيراً وهي تسوي الطعام حتى جاء والدها. وعند ما دخل البيت والدموع في عينيه دمر قلب الفتاة من القلق. وارتمت على صدر أبيها وراحت تسأله عن سبب حزنه. فروى لها الحطاب ما

حل به، فأخذت تسري عنه بكلماتها الذكية وقبلاتها الرقيقة، ولكنها لم تتمكن من تهدئة خاطره الا بعد وقت طويل.

وفي صباح اليوم التالي مرض الحطاب من شدة الفجيعة، فقالت له آينة – كيز ملاطفة.

– يا أبي العزيز، أنت اليوم مريض ولا ينبغي أن تنهض من فراشك. فلتسمح لي بأن أذهب أنا الى السوق، فربما حالفني الحظ أكثر منك فأبيع الحطاب بسعر جيد.

ولكن العجوز لم يسمح لها بالذهاب، فظلت آينة – كيز ترجوه وتلح عليه حتى قال لها:

– حسناً، فتذهبي يا آينة ـ كيز اذا كنت تريدين ذلك. ولكن فلتعلمي أنني لن أطمئن حتى أراك مرة أخرى بجانبي.

ووضعت آينة – كيز على الحمار العجوز على حمل الحطب، وساقته الى المدينة.

وعند ما توقفت في السوق لاحظت بعد قليل ذلك البيك الشاب ذا اللحية السوداء والرداء الحريري. كان البيك يخطر في السوق وقد رفع أنفه عالياً وعند ما رأى الفتاة ضحك ضحكة ماكرة واتجه نحوها، وسألها:

– انت يا صبية.. هل تبيعين الحطب؟

فأجابته آينة – كيز:

– نعم.

– وماذا تريدين مقابل حملك؟

– درهمين.

– وهل تبيعين الحطاب بهذه الحالة، كما هو عليه، مقابل هذا الثمن؟

– نعم لو أعطيتني النقود أيضاً «بهذه الحالة، كما هي عليها».

فقال البيك بعجلة وهو يكتم ضحكه في لحيته:

– حسناً، حسناً. سوقي الحمار واتبعيني.

وقرب منزل البيك سألته آينة – كيز:

– يا عمي، أين أربط حمارك؟

دهش البيك لاذعان الفتاة وأشار الى عمود وسط الفناء، فربطت آينة – كيز الحمار اليه وطالبت بالنقود. فمد لها البك درهمين ساخراً، ولكن آينة ـ كيز قالت له:

– لقد اشتريت منى الحطاب يا عمى «بتلك الحالة كما هو

عليه» وأخذت الحمار مع الحطب، ولكنك وعدتني أن تعطيني النقود «بتلك الحالة كما هي عليها». ولذلك فانا أريد أن آخذ، عدا الدرهمين، يدك ايضاً.

صعق البيك في البداية من كلام الفتاة، ثم انهال عليها بعد ذلك بالسباب والوعيد، ولكن آينة – كيز لم تتراجع. وعندئذ ذهبا الى القاضي.

واستمع اليهما القاضي، ولكنه لم يستطع في هذه المرة أن يتوصل الى حيلة ينقذ بها البيك رغم أنه مسد ذقنه طويلا وتطلع الى رداء البيك الحريري. وأصدر حكمه التالي: على المشتري أن يدفع للفتاة درهمين مقابل الحطب وخمسين ديناراً تعويضاً عن يده.

وجن جنون البيك، وكان مستعداً أن يتخلى عن الحطب وعن الفرس العرجاء والحمار، ولكن فات الأوان.

وقال البيك لآينة – كيز وهو يسلمها النقود:

– لقد غلبتني يا فتاة، ولكن اياك أن تتباهى أمام أحد بذلك. فلن يلحق العصفور بالصقر. فرغم كل شيء أنا اذكى منك. أتريدين أن تتأكدي من ذلك؟ حسناً، هيا نتراهن فلنذهب الى القاضي، وليرو كل منا أغرب وأطرف قصة في حياته. والفائز هو صاحب القصة الأحسن في حكم القاضي. وتذكري شيئاً آخر: اذا لم يصدق أحدنا قصة الآخر واتهمه بالكذب فانه يخسر فوراً. هل توافقين على أن تجربي حظك؟ أنا سأراهن بخمسمائة دينار، أما انت فتستطيعين المراهنة بالخمسين ديناراً...

فأجابت آينة – كيز:

– انا موافقة يا عماه، وسأراهن برأسي.

وغمز البيك للقاضي بعينه وبدأ يروي حكايته:

– ذات مرة وجدت في جيبي ثلاث حبات قمح فألقيت بها من النافذة. ابعد قليل نبت تحت نافذتي القمح، وكان من الكثافة والارتفاع الى درجة أن راكبي الخيول والايل كانوا يضلون فيه طريقهم ويسيرون عدة أيام. وذات مرة حدث ما يلي: دخل القمح أربعون كبشاً من خيرة كباشي وضاعوا هناك. وعبثاً صحت أناديهم وبحثت عنهم بلا جدوى، اذ لم يظهر لهم أثر. وحل الخريف ونضج القمح فحصده خدمي، ولكنهم لم يعثروا حتى على عظام الكباش. ثم درسنا القمح وطحناه، ونسي الجميع ما كان من أمر الكباش. وذات يوم طلبت من زوجتي أن تخبز لي رغيفاً طازجاً، بينما جلست أقرأ القرآن. وأخرجت زوجتي الرغيف من الفرن وقدمته لي، فكسرت لقمة ورحت امضغها. وفجأة صاح شيء ما في فمي بصوت كالثغاء... ففتحت فمي، واذ بكبش يقفز منه، ثم تبعه الثاني، فالثالث.. وهكذا خرج الأربعون كبشاً

وراحوا يقفزون. وقد سمنت كباشي حتى أن الواحد منها كان بحجم الثور ابن الأربعة أعوام.

وعند ما فرغ البيك من روايته وصمت هز القاضي رأسه مستنكراً، ولكن آينة – كيز لم تحرك ساكناً وقالت:

– انني أرى يا عماه أن قصتك حقيقة خالصة. فالأشخاص الأذكياء مثلك تقع لهم حوادث أكثر غرابة من ذلك. فلتسمع الآن ما سأرويه:

– ذات مرة زرعت وسط قريتنا بذرة قطن. فماذا حدث؟ نبت في اليوم التالي في هذا المكان شجيرات قطن بلغت في ارتفاعها السحب وامتد ظلها لمسيرة ثلاثة أيام. وعند ما نضج القطن جمعته ونظفته وبعته وبثمنه اشتريت أربعين جملا. وحملتها بالأقمشة الغالية، وساق أخي الأكبر القافلة الى بخارى. وغاب أخي ثلاثة أعوام فلم نسمع عنه خبراً، وأخيراً سمعت أن شخصاً ذا لحية سوداء هاجمه في الطريق فنهبه وقتله. ولم آمل في العثور على القاتل، ولكن الصدفة ساعدتني. فالآن عرفت أن القاتل هو أنت، اذ أراك ترتدي رداء حريرياً هو رداء أخي المسكين.

عند ما قالت آينة – كيز كلماتها الأخيرة قفز القاضي من مجلسه، أما البيك فقد هوى على الأرض. فماذا يفعل؟ اذا قال ان الفتاة كاذبة فسيضطر الى دفع الخمسمائة دينار حسب الاتفاق، واذا قال انها صادقة فسيكون عليه أن يدفع فدية أخيها ويرد اليها أربعين جملا محملة بغالي الثياب...

وأخيراً لم يطق البيك صبراً فصرخ:

– فليقطع لسانك! كذابة أيتها الملعونة! خذي الخمسمائة دينار، وخذي ردائي أيضاً، واغربي من هنا بسرعة قبل أن أدق عنقك!

التقطت آينة – كيز النقود الذهبية ولفتها بالرداء وركضت عائدة الى أبيها بأقصى سرعة.

وكان الأب قد قلق من غياب ابنته فخرج لملاقاتها. وبعد قليل رآها تركض نحوه. وما أن بلغته حتى ضمها الى صدره وراح يسألها بقلق:

– يا آينة – كيز يا حبيبتي! أين كنت كل هذه المدة، ولماذا لا أرى حمارنا العجوز معك؟

فقالت آينة – كيز:

– جعل الله أيامك كلها بيضاء يا أبي! لقد عدت من المدينة بسلام، اما حمارنا فبعته الى ذي اللحية السوداء مع الحطب «بتلك الحالة كما هو».

فدمدم الحطاب بحزن:

– يا بنيتى المسكينة.. وأنت أيضاً خدعك البيك القاسي... لقد ضعنا الآن. وانا وحدي المذنب.

فقالت آينة – كيز:

– يا أبي العزيز. لا تستسلم لليأس بسرعة. لقد حصلت على ثمن طيب مقابل الحطب.

ومدت لأبيها الرداء الحريري الملفوف.

فقال الحطاب بنفس اللهجة الحزينة:

– هذا رداء جميل جداً وغال، ولكن ما حاجتي اليه في عملي الشاق؟ بدون الفرس والحمار سنضطر فيما يبدو الى العيش على الصدقات.

وعندئذ لم تقل آينة – كيز شيئاً، وفتحت الرداء أمام أبيها، فتساقطت منه الدنانير البراقة. ونظر الحطاب مذهولا الى ابنته والى هذه الثروة وهو لا يجرؤ على التصديق بأن ما يراه ليس حلماً. وعندئذ عانقته الفتاة وروت له كل ما وقع لها.

وراح الحطاب يضحك ويبكي وهو يستمع الى رواية ابنته. أما هي فأنهت كلامها قائلة:

– اذا كان الغني يلجأ الى المكر، فالفقر يستعين بالعقل. لقد نال البيك ما يستحقه، أما نحن فسنعيش بدنانيره في سعادة وسرور نحن وكل قريتنا.

ابناء نورجان

كان ياما كان رجل طيب يدعى نورجان. وقد عاش عمراً طويلا ولم تدركه الشيخوخة طويلا. وعند ما بلغ من عمره عامه التاسع والتسعين دعا اليه أبناءه الثلاثة وقال لهم:

– يا أبنائي الأحباء الأعزاء، ثابت وعابد وحامد. لقد انتهى نهار عمري بأعماله وهمومه وأفراحه وأتراحه، وهاهو ليلي يأتي ويحجب عن عيني الضياء. آن الأوان أن أرتاح. وأحب قبل أن أخلد الى النوم أن أودعكم وأترك لكم وصيتي كأب.

فقال الاخوة:

– اننا مصغون اليك بانتباه واحترام يا أبتاه.

فمضى نورجان يقول:

– بعد وفاتي اقتسموا بالعدل والمعروف كل ماأتركه لكم من ماشية وممتلكات، واعملوا بحيث لا يستطيع قريب أو غريب أن يقول عنكم كلمة سوء. واذكروا أنه ليس في قطعاني حمل واحد، وليس في خيولي مهر واحد اقتنيته بالمكر والخديعة. فلتصونوا القطعان من الذئاب، وأرواحكم من الضلال. عيشوا اخوة، وساعدوا من يتعرض منكم لمكروه. أما اذا احكم المكروه حباله حول رقابكم جميعاً دفعة واحدة فاليكم هذه الوسيلة لاتقائه–

ومد نورجان اليهم بيده المرتعشة كيساً جلدياً مليئاً بالنقود الذهبية –

خذوا يا أبنائي الأحباء. هنا تسعة وتسعون ديناراً. بقدر ما عشت من أعوام تحت سماء السهوب. خبئوا النقود في مكان أمين ولاتمسوها الى أن تنفد من مؤونتكم آخر قطعة خبز. لا تقتسموا النقود الا في أشد حالات الضنك.

فهذه النقود بالنسبة لي هي كبدي وعرقي، حرماني ودموعي، فلتكن لكم ركيزة للرخاء.

وعند هذا الحد أسلم نورجان العجوز الروح، وأغمض الموت جفنيه الى الأبد.

وأقام الأبناء لأبيهم مأتماً عظيماً، وأبنوه حسبما تقضى التقاليد، وبكوا كثيراً على مصابهم. وكان أكثرهم حزناً وبكاء عند قبره الابن الأصغر. فقال الناس الذين جاؤوا لدفن نورجان من شتى أنحاء السهوب.

– بارك الله ذلك الأب الذي يربى أبناء كأبناء نورجان. ثلاثتهم فرسان ممتازون، ولكن أصغرهم أفضلهم.

وعند ما انتهت فترة التأبين قسم الأبناء الميراث بينهم دون منازعات أو خصام، لكنهم احتاروا طويلا أين يخفون كيس النقود. وعندئذ صعدوا الجبل وعثروا بين الصخور على كهف، فوضعوا هناك ثروتهم، وأغلقوا الباب بالأحجار بمهارة أخفته عن أية عين فاحصة.

وأقسم الاخوة بألا يبوحوا بالسر أو يتطاولوا على هذه الثروة العامة ولو هددوا بالموت، ثم عانقوا بعضهم البعض بقوة، وهبط كل منهم من الجبل في درب غير درب أخيه.

وغطى العشب والزهور قبر نورجان، وسارت القوافل عبر السهوب، ومر الزمن. وفي البداية عاش الاخوة في وفاق تام وصداقة، حتى ان الآباء في القرى النائية كانوا يضربون بهم المثل لأبنائهم. لكن الأخ الأصغر تصاحب مع شتى العاطلين والمتصعلكين، فأصبح يسكر ويعربد ويقيم الولائم وحفلات سباق الخيل الباهظة التكاليف، ويطارد الأرانب في السهوب تاركاً قطيعه دون رعاية.

وراح شقيقاه يؤنبانه:

– ماذا حدث لك؟ لقد نسيت وصايا أبينا. ارجع الى صوابك قبل أن يفوت الأوان. عما قريب لن يبقى لديك حتى رداء مهلهل.

ولكن حامد كان يرد على تأنيبهما هازئاً:

– لا أحد يرى ماذا يخبىء له الغد.

فيقول شقيقاه الأكبر:

– هذا صحيح، ولكن ايا كان الغد فعلينا أن نعيش كما يقول المثل: اعمل حتى المساء، ولو كان ذلك مساءك الأخير.

وحدث ما كان ينبغي أن يحدث، فبعد وقت قصير أفلس حامد تماماً. وبعد أن باع ما تبقى من قطيعه ذهب الى شقيقيه، وادعى أن اللصوص

سرقوا قطيعه. وهز ثابت وعابد رأسيهما بأسى، ولكنهما لم يعنفا أخيهما عملا بوصية أبيهم، ومنحاه من قطعانهما عدداً من الماشية يكفي لانتشاله من بؤسه ولاطعام أسرته. ولكن بعد فترة قليلة حلت كارثة لم يسبق لها مثيل بجميع الرعاة في تلك الناحية.

فقد جاء صيف قائظ فجف العشب كله، ولم يبق شيء لاطعام الماشية. وأتى الربيع فهطلت الأمطار، ولكن الصقيع الشديد حل قبل الأوان فاكتست الأرض بالجليد. وأخذت الماشية تنفق من الجوع والأمراض. وغطت جثثها السوداء أراضي السهوب. وهنا آن للاخوة أن يلجأوا الى كنزهم المنشود.

وذهبوا الى الكهف، وأزالوا الأحجار الثقيلة ونظروا الى الداخل فرأوا الكيس في المكان الذي تركوه فيه. الا النقود فيه كانت أقل. وأفرغ الأخوة الكيس في اضطراب، وعدوا النقود ثلاث مرات، وتأكدوا من أنها لم تكن تسعة وتسعين ديناراً كما تركوها، بل ستة وستين.

جلس أبناء نورجان في صمت وحيرة أمام كومة الذهب، وكل منهم ينظر شذراً الى أخيه.

فقال ثابت:

– لا يمكن أن يكون السارق شخصاً غريباً. فلو أن لصاً عرف بصورة ما بالكنز المدفون لاستولى على الذهب كله ولم يترك قطعة واحدة. اذن فالسارق واحد منا. فمن هو؟

فقال عابد:

– اقسم أنني لم آخذ النقود.

وقال حامد:

– اقسم أنني أيضاً لم آخذها.

فصرخ ثابت في سورة الغضب:

– اذن فأنتم أيها الأوغاد تعتبرونني السارق!

فقال عابد بغل:

– ومن يدري، ربما أنت!

فانقض الأخ الأكبر على أخيه الأوسط وأطبق على رقبته، ولمعت الخناجر كالبرق في عتمة الكهف.

فصاح حامد:

– مهلا يا أخوتي، كفى! لقد أنبتماني منذ وقت قريب بأنني نسيت وصايا أبي، فماذا تفعلان. اصغيا الي ولننهي الأمر بالمعروف. فمهما تخاصمنا فلن نكشف سر ضياع النقود. ربما جاء عفريت الى الكهف وسرقها

دعونا من البحث والتخمين في سر ضياع النقود. فقد بقي منها ما يكفينا. فلنوزعها فيما بيننا بالتساوي كما أوصانا المرحوم أبونا، ولننس الى الأبد هذا الشجار.

أنزل الاخوان خنجريهما المشرعين، وقال ثابت وهو يزفر:

– شكراً لك يا حامد على أنك جنبتنا اراقة الدماء. ان جبال الذهب لا تساوي قطرة دم مهدر. ولكن أمن الممكن أن يحل بيننا السلام وقد افتقدنا ثقتنا السابقة بعضنا ببعض؟ كلا، ان الحكيم بلتيكي، صديق المرحوم والدنا، هو وحده الذي يمكن أن يحكم بيننا ويصلحنا. فلنمض اليه ولنمتثل لحكمه.

هبط الاخوة من الجبل وامتطوا جيادهم، وركضوا عبر السهوب الى مضرب قبيلة بلتيكي.

ومهما كان الطريق مضنياً وطويلا فلابد أن تكون له نهاية. وهكذا وصل الاخوة الى قرية بلتيكي الحكيم بعد سفر أربعين يوماً. واستقبل العجوز أبناء صديقه بالاحترام والحفاوة، وأمر أن يقدم لهم أفضل الشراب واطيب الطعام، وقال لهم:

– استريحوا مطمئنين حتى الصباح. وغداً أبحث في خلافكم.

ومرت الليلة. وفي الصباح ضيفهم بلتكي العجوز مرة أخرى، ثم قال:

– قضيت الليل ساهراً أفكر في أمركم. انا لا أستطيع أن أصدق أن أحد أبناء صديقي نورجان هو اللص. ولكن سيكون عليكم ان تثبتوا براءتكم، وليس لذلك من سبيل سوى شيء واحد. امضوا الآن تواً الى قبر ابيكم وافتحوه، آتوني بثلاث شعرات من لحية المرحوم، كل منكم يأتي بشعرة. بهذا فقط تبرئون أنفسكم أمامي وأمام بعضكم البعض.

واستغرق الاخوة في التفكير. وكان ثابت اول من قطع حبل الصمت فقال:

– أنا لست اللص. ولكن من الأفضل أن أتحمل الشكوك والذنب على أن أفعل ما تطلبه يا بلتيكي الموقر.

وقال عابد:

– وأنا لست اللص، ولكن أرفض أن أفعل ما تأمرنا به يا بلتيكي الموقر، رغم أنك صديق والدنا وأكبر منا كلنا سناً.

أما حامد فقال:

– يبدو أن هناك أسباباً تجعل شقيقي يخشيان الحقيقة. ترى هل ذهبا معاً من وراء ظهري الى الكهف؟ أنا أيضاً لست اللص يا بلتيكي

الحكيم، ولذلك فأنا على استعداد أن أذهب توأ الى قبر أبينا وأنفذ ما طلبته بالضبط. فلتظهر الحقيقة!

وخطا متجهاً الى الباب.

وهنا رفع بلتيكي العجوز كفيه الى أعلى ومد ذراعيه وقال بلهجة موحية:

– مهلا أيها الشاب، لا تتعجل الرحيل، فقد ظهرت الحقيقة! أنت يا حامد الذي سرقت النقود، أنت ولا أحد سواك. فمن يجرؤ على تدنيس قبر أبيه فهو قادر على ارتكاب أي اثم: على السرقة، والمعصية، والخديعة والحنث باليمين. فكيف ستكفر عن جريمتك ايها التعيس وتمحو عارك؟

وقف حامد أمام الحكيم شاحباً بلون الثلج. واستمع الى اتهامه منكس الرأس، ثم أخفى رأسه بين راحتيه، ودون أن ينبس بكلمة انطلق خارجاً وامتطى جواده، وركض الى السهوب الثلجية.

ومنذ تلك اللحظة لم يره أحد في القرى أو في المراعى، ولم يسمع أحد اسمه أو يردده في الأحاديث عن أحداث الماضي والحاضر.

أما الشقيقان الأكبران فشكرا بلتيكي العجوز وهما يبكيان على حكمه الحكيم وعادا بذهب أبيهما الى أسرتيهما. ولم يقع بينهما بعد ذلك خلاف، ورعيا القطعان معاً، ومعاً ربيا أولادهما وأحفادهما، وعاشا طويلا حتى حلت نهاية نهارهما بأعماله وهمومه، بأفراحه وأتراحه.

أدك

(أسطورة)

كان الخان أبلاي رجلا رهيباً، قاسياً لا يعرف قلبه الرحمة. فليس من الصدفة أن يطلق عليه الناس اسم «مصاص الدماء». كان بطنه مليئاً ولكن عينيه جائعتان دوماً، ولم يعرف في حياته الصعاب ولكن طبعه كان صعباً، ولم يشعر جسمه بالبرد أبداً، ولكن قلبه كان أبرد من الجليد. كان يفرق بين المولود ووالدته، وبين العريس وعروسه، وينتزع من الفارس جواده، ومن الراجل عصاه، بل حتى الطاقية الممزقة كان ينزعها عن رأس صاحبها، أما حاسرو الرؤوس فكان ينتزع رؤوسهم. وفرض على القريب والبعيد، على الحي والميت جزية قاسية، فكان يطالبهم بأداء الجزية اذا أعشبت المراعي أو أجدبت، واذا هطل المطر أو ساء الجو، واذا سار جمل أو اشتعل موقد. وراح الناس يقولون من شدة الأسى والهم: «الربيع لا يرحل عن أرض العدالة، والربيع لا يأتي الى أرض الاستبداد».

وكان أبلاي كثيراً ما يهجم بجيشه الجرار على الأراضي المجاورة، ويظل العشب لا ينمو فترة طويلة بعد هجماته الدموية.

وكان الخان يقضي وقته بعد كل غزوة في اقامة الولائم واللهو، ويجري مسابقات الفروسية وصيد الوحوش والمباريات، ولم يكن يعرف حدوداً في اللهو كما لم يكن يعرف حدوداً في بطشه بالأسرى وبرعاياه.

وذات مرة كان عائداً بغنائم وفيرة من سهوب قالميق، فقرر أن يضرب خيامه في الوادي عند سفح الجبال بجوار بحيرة بورباي الصافية وراح يحتفل في صخب بانتصاره على القبيلة المعادية. وذبحوا للوليمة ألف فرس سمينة وعشرة آلاف شاة، وسال شراب الكوميس مزبداً كنهر جبلي. وجفت حلوق المداحين من كثرة المديح، وبحت أصوات المنشدين من فرط ما

أنشدوا من أغاني التمجيد، وغير العازفون أوتار ربابهم أربعين مرة، ولكن أبلاي ظل يطالب بالمزيد والمزيد من اللهو والطرب دون هوادة.

وها هو في ذروة النشوة ينهض من على البساط المزخرف ويدخل الخيمة المحظور دخولها على أي شخص، ويخرج ساحباً في يده فتاة أسيرة من بنات القالميق، فاتنة كشمس النهار.

وعند ما أرى المحاربون هذه الحسناء الصبية، دوت بين صفوفهم همهمات الاعجاب، ولم يعد في مقدورهم أن يحولوا عيونهم عنها.

فقال الخان بصوت عال:

– من منكم يريد هذه الفتاة زوجة له؟ تكلموا!

واهتز الحشد، وامتدت نحو الخان آلاف الأيدي، وانداح هزيم الأصوات الى الأنحاء المجاورة، كأنما كان ذلك هدير قطعان أبل مجنونة.

صاح المحاربون:

– أنا، أنا، أعطني القالميقية يا خان!

وكان كل منهم يريد أن يطغي بصياحه على الآخرين.

ولكن فارساً واحداً، في لباس بسيط، وبوجه يطفح رجولة، كان واقفاً في صمت، منتحياً جانباً، وهو يتطلع الى الفتاة بحزن. وكان هذا أصغر المحاربين سناً، ويدعى أدك، ابن أحد الرعاة.

ورفع الخان يده فعم الصمت.

– ما أكثر العرسان لعروس واحدة!

قال الخان وهو يقهقه، ثم التفت الى الأسيرة:

– اختاري لك زوجاً، وسنحتفل على الفور بعرسك!

وكانت الفتاة حزينة شاحبة، ولكنها ردت على الخان بحزم ودون وجل:

– بودي يا مولاي أن يصبح زوجي أكثرهم شجاعة وذكاء..

– وكيف نعرف ذلك؟

– مر يا مولاي بأن يضعوا فوق أعلى قمة من القمم المحيطة بالبحيرة علماً أبيض على صارية رفيعة. والذي يصيب العلم من أول رمية سهم هو الأكثر شجاعة. وبعد ذلك سأروي حكاية، والذي يفهم معناها فهو الأذكى.

فقال الخان:

– حسناً.

وها هو العلم الأبيض يرفرف على ارتفاع شاهق، وتتطاير نحوه السهام كالمطر وتسقط على الصخور دون أن يبلغه منها سهم واحد.

وجن جنون الخان، فأمسك بالقالميقية من جدائل شعرها وألقى بها تحت قدميه ورفع يده فوقها قائلا:

– أيتها العبدة، لقد أردت أن تسخري مني وتجللي بالعار محاربي. وما تطلبينه مستحيل التحقيق. ليس هناك في الدنيا فارس واحد يستطيع سهمه أن يبلغ ذلك الارتفاع.

وفي تلك اللحظة ترددت صرخة ضارعة في السماء. فرفع الجميع انظارهم، فرأوا بطة برية تتطلق في رعب فوق قمة الجبل يطاردها شهاب جارح ويوشك أن ينقض عليها. وفجأة از فوق الرؤوس سهم أطلقه شخص ما فأصاب العلم الأبيض وأسقطه واندفع أعلى فأعلى حتى انغرز في عنق العقاب. وهوى الطائر الكاسر على سفح الجبل، وتدحرج الى البحيرة ودمه ينزف، أما البطة فاختفت سالمة في زرقة السماء.

فسأل الخان مذهولا:

– من الرامي؟

فلم يسمع جواباً.

وعندئذ رد المحاربون بصوت واحد:

– أدك!

فقال الخان:

– اقترب يا أدك، انني أريد أن أراك أيها البطل، وعند ما بلغه الفارس احتضنه الخان وقال:

– انني أثني عليك يا أدل اعجاباً برميتك. لم أكن أعرف قبل اليوم أنك أشجع فارس عندي. خذ الأسيرة، فهي لك.

فقال أدك:

– المباراة لم تنته بعد يا مولاي. فلدى الحسناء حكاية سترويها لنا.

نظر الخان الى القالميقية، فمسحت هذه دمعة اهانة. ونهضت واقفة، وراحت تحكي:

ذات مرة دمر عقاب شرير عش حمامة، وكان على وشك أن يمزق فرخها. فطارت الحمامة وهي تصرخ فوق السهوب فقابلت صقراً. وعند ما عرف الصقر منها بمأساتها انقض على العقاب وحطم رأسه.

وسألته الحمامة «كيف نشكرك يا مخلصنا؟»

فقال الصقر:

«دعي ابنتك عند ما تكبر ويقوى جناحاها، تأتي الي لكي انتزع من صدرها قطعة لحم أتغدى بها».

ومرت الأيام، ونسى الصقر تلك الحادثة، لكن الحمامة الأم ظلت تذكرها، فمرضت تماماً من الحزن والقلق وهي ترى ابنتها تكبر. وكانت ابنتها تتفتح كالزهرة، وعند ما بلغت الصبا أصبحت أجمل حمامة بين الطيور.

وأحبها السنقور الشجاع وأحبته.

وتوسل اليها السنقور:

– كوني زوجتي الى الأبد!

ولكن الحمامة الشابة اجابته:

– علي أولا أن أؤدي ديني للصقر.

وروت لحبيبها قصة انقاذ ها.

فقال السنقور وهو يبكي:

– اذهبي اليه. فالوفاء بالوعد أسمى من السعادة. أنا لا أستطيع أن أمنعك من الذهاب.

وودع العريس والعروس بعضهما بعضاً وهما يذرفان الدموع الغزيرة، وطارت الحمامة تذرع سماء السهوب بحثاً عن الصقر.

وفي الطريق هاجمها باز، وأراد أن يمزقها ارباً، ولكنه رأف بحالها عند ما سمع قصتها، وأكبر فيها نبلها وشهامتها فأطلق سراحها.

ثم انقض عليها ثلاثة نسور، ولكنهم عند ما عرفوا بتضحيتها وبأن الباز أطلق سراحها خلوا سبيلها.

وأخيراً عثرت الحمامة في مكان بعيد على الصقر.

وسأل الصقر الحمامة الحسناء.

– من أنت؟

فذكرته بالماضي، فقال الصقر.

– لم أر في حياتي طائراً أطهر قلباً وأجمل منك، ولكني كنت أمزح عند ما أخذت من أمك ذلك الوعد. فأنا لم أنقذك في صغرك لكي أنكل بك في صباك. عودي بالسلامة الى عريسك.

وطارت الحمامة تضمرها فرحة لا حدود لها عائدة الى حبيبها السنقور، وأصبحت قريبة من عشها عند ما انقض عليها عقاب لا يرحم وحملها، غير عابىء بصراخها وتوسلاتها، الى بلاد بعيدة، ومن يدري ماذا حدث للحمامة المسكينة في مخالبه القاسية...

لم ينبس أحد بكلمة، ولم تصدر صلصلة درع، ولم تطرطش موجة من البحيرة على الشاطىء، ولم تتحرك نبتة شيح في السهوب حتى انتهت الفتاة من حكايتها، أما الخان نفسه فظل مدة طويلا مستغرقاً في التفكير.

وأخيراً قال الخان:

– حكايتك حافلة بالأسرار والحكم، هل تستطيع فك ألغازها يا أدك؟

فقال الفارس:

– أستطيع يا مولاي. ولكن قبل ذلك أرجو أن تعدني أيها الخان العظيم أمام جميع المحاربين ألا تعدم الأسيرة وألا تنتقم منها أو مني جزاء على ما سأقول.

فقال الخان وهو يتحرق شوقاً لمعرفة معنى الحكاية:

– أعدك! تكلم بسرعة.

فمضى أدك يقول:

– ان ما سمعناه الآن ليس حكاية، بل واقعاً مراً، لقد تحدثت الحسناء عن نفسها. فعند ما كانت هذه الفتاة طفلة صغيرة دمر خيمتهم قاطع ولكن أحد الأبطال النبلاء كان ماراً بالصدفة، فأنقذ الطفلة من الموت وعاقب الشرير. ومزح البطل فأعرب عن رغبته في أن تأتي الفتاة اليه عند ما تكبر لتصبح زوجته. ومر الزمن، وكبرت الطفلة فأصبحت كما ترونها الآن أمامكم. وأحبت فارساً مغواراً. وعند ما طلب يدها صارحته بسرها، فضحى الفارس بسعادته معتبراً أن عدم الوفاء بالوعد أسوأ من الموت بالنسبة للانسان الشريف.

ولم يكن طريق الفتاة سهلا في رحلتها الى البطل. فقد هجم عليها ذات يوم أحد الغرباء، ولكنه عند ما سمع قصتها غير العادية امتلأت نفسه لها احتراماً و لم يمسسها بأذى. ثم أمسك بها ثلاثة من اللصوص في السهوب المقفرة. وأذهلتهم شجاعة الفتاة واصرارها فتركوها هم أيضاً قائلين:

– وهل نحن أسوأ من الوحوش الكاسرة لنؤذي فتاة شجاعة رق لها حتى قلب الغريب!

وبعد تجوال طويل بلغت الفتاة محل البطل. وأنتم قد عرفتم من الحكاية ماذا قال لها ذلك البطل.

وعند ما كانت الفتاة في طريق عودتها الى موطنها وعريسها، مشبعة بالأمل والفرحة، لمحتها أنت أيها الخان في صحراء القالميق، وأمسكت بها كشهاب لا يرحم وحملتها الى الأسر في أرض غريبة. ومن يدري أي ينتظر هذه المسكينة بين يديك.

وسأل الخان الفتاة:

– هل حقيقة ما يقوله أدك؟

فأجابت القالميقية:

– نعم أيها الخان، أدك قال الحقيقة.

فعبس الخان، وقال وهو يتمالك نفسه من الغضب والغيظ:

– ما الداعي للبحث في مصير أسيرة اذا كان مصيرها قد تقرر... أنت يا أدك فزت بها في المسابقة. انني أهبك اياها، فلتكن زوجة لك.

والتفت المحاربون في حسد نحو أدك، وحدقت فيه القالميقية أيضاً دون أن تحول عنه بصرها، وكأنما كانت تنتظر شيئاً. أما البطل الشاب فقد ابتسم وقال:

– قبل هذا اليوم لم تعرف أيها الخان شيئاً عن شجاعتي، ولم يدر بخلدك أن برأس أفقر محاربيك عقلا راجحاً، أما قلبي فلا تعرفه حتى الآن. كيف آخذ شيئاً ليس ملكي! وهل أنا أقل شرفاً من أولئك اللصوص الحقراء الذين رغم سطوهم على الضعفاء رأفوا بحال الحسناء الصبية؟ ولكن ما دمت تهبني هذه الأسيرة فمن حقي أن أتصرف فيها حسب هواي. اركبي أيتها الحسناء جوادي، وامضي الى حبيبك، ولتصحبك السعادة في طريقك وفي أيام حياتك المقبلة!

وتسمر المحاربون لدى سماع هذه الكلمات. وصمت الخان أيضاً. أما الفتاة فقد انحنت تحيي أدك وهي تقول في اضطراب:

– شكراً لك يا أدك، يا أفضل الناس، على طيبة قلبك. وأصارحك بأنك لو كنت قررت أن تأخذني زوجة لك، لألقيت بنفسي في بحيرة بورباي ولوجدت الخلاص هناك في أعماقها الباردة. ولكنك أيها الفارس أعدت الي الحياة والمرح. فلتكن أخاً لي، ولتكن رفيقي في الطريق وضيفاً، عزيزاً في حفل زواجي.

وراح المحاربون يعانقون أدك معجبين بتصرفه، وطلبوا من الخان أن يأذن لرفيقهم بقضاء عدة أيام في ضيافة الفتاة.

واستقل أدك والفتاة صهوة جوادين أصيلين وشدا الأعنة، وانطلقا كالاعصار عبر السهوب.

أربعون حكاية كاذبة

كان هناك خان طاغية جشع يحكم في السهوب.

وذات يوم أدركه الملل من الحملات الحربية والمآدب ورحلات الصيد والألعاب الصاخبة. وعندئذ أرسل المنادين الى شتى أنحاء السهوب بنداء لم يسبق له مثيل:

— كل من يروي للخان أربعين حكاية كاذبة دون توقف وبلا كلمة صدق واحدة،فسيحصل على كيس مملوء بالذهب. والويل لمن يتلعثم اثناء الرواية أو يلفظ كلمة صدق واحدة! فسوف يلقى به الخان في زنزانة مظلمة ويهلكه جوعاً.

ويقال انه من أجل الذهب يحيد التقي من الطريق المستقيم. وفي البداية امتدت صفوف الرواة والمنشدين والهجائين أمام دار الخان.

ولكن لم يستطع أحد أن يفوز برضا الخان، وأدركهم المصير البائس. فقد هلك الآلاف جوعاً في الزنازين المظلمة. وأخيراً لم يعد هناك أحد من الراغبين في تسلية الخان بالحكايات الكاذبة.

واستلقى الخان على فرشه الوثير وقد أربد وجهه وأصبح أشد سواداً من ليلة خريف مظلمة. وكان الوزراء المحيطون به يخشون أن تند عنهم حركة. والخدم الذين كانوا يحملون له الأطباق الذهبية وفيها أندر المأكولات والمشروبات سجدوا أمامه في صمت.

وكان الخان ينحى بيده الأطعمة. وينظر بين الحين والحين حواليه نظرات تلقى الرعب في قلوب من حوله.

وفي تلك اللحظة ظهر أمام خيمة الخان شاب مرح يحمل كيس الشحاذين. وكان حافي القدمين، مهلهل الثياب، نحيلا كعظمه ممصوصة.

فانقض عليه الحراس:

– لماذا تتسكع حيث لا ينبغي. ماذا تريد؟

فأجاب الصبي بحيوية:

– جئت أروي للخان أربعين حكاية كاذبة.

ورغم أن الحراس رأوا في حياتهم الكثير من الشرور وسفك الدماء، فقد أشفقوا على الصبي، وصاحوا به:

– ابتعد أيها الأحمق عن الشر. الزنازين بدونك مليئة أم أنك كرهت حياتك؟

فغمز الصبي للحراس بعينه وقال:

– الأفضل أن تكون جواداً يوماً واحداً، على أن تكون حصاناً عجوزاً ست سنوات.

فدهش الحراس:

– ألا تخاف من الخان؟

فابتسم الصبي وقال:

– الشجاع تهابه الوحوش.

فاقتادوه الى خيمة الخان.

تطلع الخان الى طاقيته الممزقة، والى ساقيه السوداوين المقشفتين، فارتعشت شفتاه غضباً وصاح:

– أتجرؤ على المثول بين يدي الخان في أسمالك هذه؟ سأسحقك بظفري كما يسحق البرغوث.

فقال الشحاذ الصغير وهو يتطلع مباشرة الى عيني الخان:

– لا تغضب يا مولاي. المتعجل لا يجني الا الخيبة. الأفضل أن تسمع حكاياتي الكاذبة فتأمر باعطائي كيس الذهب.

ارتمى الخان في غضب على الوسائد وفح بصوت شرير:

– حسناً، هيا، انني مصغ اليك.

فراح الصبي يقول:

– قبل أن أولد بحوالي سبع سنوات كنت أرعى قطيع حفيدي الثاني عشر.

وذات مرة سقت الخيول في ساعة متأخرة من الليل الى المورد لأسقيها. وكانت الشمس تسطع بشدة والجو قائظ الى درجة أن الدخان كان يتصاعد من أجنحة الطيور بينما تشتعل ذيولها. ولذلك لم أدهش أبداً عند ما رأيت ماء البحيرة قد تجمد من البرد من السطح حتى القاع.

وشرعت أحفر في الجليد بفأسي. ولكن الفأس تطايرت قطعاً من أول ضربة، بينما لم أحفر الجليد ولو بعمق شعرة. ورحت أفكر: ما العمل؟ وهنا وأتتني فكرة.

نزعت رأس من فوق عنقي، وأمسكت بعنقي جيداً وأخذت أضرب الجليد بجبيني. وبعد فترة نجحت في حفر حفرة في الجليد. وكانت حفرة كبيرة جداً بحيث تتسع لمرور الاصبع الخنصر. ومن هذه الحفرة شرب قطيعي كله دقعة واحدة، وكان تعداد القطيع مائة ألف رأس.

وارتوت الخيول فسارت على الجليد ترعى وتقضم العشب. أما أنا فجلست مولياً ظهري للقطيع، ورحت أعد الخيول لأتأكد من أنها كلها هنا. فلاحظت غياب حصان واحد. ترى أين ذهب؟

غرزت في الرمل عصاي وتسلقتها ورحت أتلفت بحثاً عن الحصان. فلم أر شيئاً.

فغرزت في العصى سكيناً وصعدت أعلى، فلم أر شيئاً.

وهنا تذكرت أنني تعودت منذ الصبا أن امضغ الابر بدلا من الكبريت. فأخرجت من خلف شفتي ابرة، وغرزتها في السكين، وليكن ما يكون، وصعد أعلى.

وربما قضيت يوماً أو شهراً وأنا أصعد، ولكن ما أن نظرت في ثقب الابرة حتى رأيت الحصان الضائع. رأيت بحراً هائجاً وفي وسطه صخرة حادة كالمخرز، وفوق تلك الصخرة يقف الحصان على ساق وا حدة، بينما يلعب ابنه المهر بجواره حول الصخرة، وسط الأمواج.

ولم اضيع وقتاً في التفكير فامتطيت العصى، ورحت أجذف بالسكين كالمجذاف، سابحاً في البحر. سبحت كثيراً ولكن لم أتحرك من مكاني. عندئذ جلست على حد السكين، وغرزت العصى في قاع البحر ودفعت نفسي بها، وفي لحظة واحدة كنت بجوار الصخرة. أما العصى فغاصت الى القاع كأنها من الحديد.

فكيف أمسك بالحصان بدون العصى؟ جدلت من الرمل أنشوطة ورميتها على الحصان، وقفزت على السرج بالمندار ووضعت المهر أمامي، وركضت بالحصان عائداً فوق مياه البحر.

وكنت قد قطعت نصف الطريق عند ما تعثر الحصان في موجة وبدأ يغرق.

وقلت لنفسي: ها هو المثل الشعبي يتحقق: «اذا حالف الحظ التعيس فدعى الى مأدبة ينزف أنفه». ولكني لم ارتبك، فتحولت بسرعة الى ظهر المهر وأمسكت بعرف الحصان وانطلقت مواصلا طريقي.

وما أن وصلت الى الشاطىء وربطت الحصان في شجرة حتى قفز من غصنها أرنب تحت قدمي. فجريت وراءه أطارده. انعطف الأرنب الى اليسار فانعطفت أنا الى اليمين، وأسرع الأرنب فأسرعت أنا أكثر منه.

وأمسكت بسهم وأنا أجري فرميت به الأرنب. فأصابه نصل السهم في أنفه تماماً، ثم ارتد وعاد الى يدي.

عندئذ رميته بطرفه غير المدبب. وبعد يوم لحق السهم بالأرنب وألصقه بحجر.

وسلخت جلد الأرنب، وجمعت شحمه ورحت أجمع الحطب في طرف توبي لأشعل ناراً.

وفي تلك اللحظة.. ماذا حدث؟ صهل حصاني، وشخر وانكمش وراح يصعد في الفضاء.

في البداية ذهلت، ولكني سرعانما فطنت الى أنني لم أربط الحصان في شجرة بل في عنق بجعة.

ألقيت بالحطب على الأرض وأسرعت لأفك رباط الحصان المسكين. واذا بالحطب يعول ويخفق بأجنحته ويطير الى عنان السماء فلم أعد أراه. واتضح أنني جمعت في طرف ثوبي طيور السمان والحجل!

ومع ذلك، ورغم أني لم أكن أملك حطباً، فقد تمكنت من اشعال النار. ووضعت شحم الأرنب في قدر نحاسي جديد ونصبته فوق النار. واذا بي أرى قدري الجديد مثقوباً، والشحم يتدفق من ثقوب جدرانه كالجداول، وعما قريب لا يبقى منه شيء. فاضطررت الى صب الشحم في قدر آخر مثقوب. وبالطبع لم تسقط من هذا القدر نقطة شحم واحدة. واذكر أن السمن المغلى الذي حصلت عليه ملأ كروش عشرة ثيران.

وخطرت لي فكرة أن أدهن بالشحم حذائي. فلم يكف الشحم الا لفردة واحدة.

ودخلت تحت القدر لأقضي ليلتي، ونمت. وسمعت وأنا شبه نائم صخباً ولغطاً وعراكاً. فقفزت مفزوعاً، فاذا بي أرى فردتي حذائي تتشاجران. فقد انقضت الفردة التي لم تدهن بالشحم على شقيقها وأخذت تكيل لها الضربات وهي تصيح:

– خذي أيتها البخيلة، خذي! لكي لا تعودي الى الاستيلاء على ما ليس لك! ألم يكن في وسعك أن تبقي لي شيئاً من الشحم؟

وأخذت أفرق المتشاجرين قائلا:

– كفى أيها الشريران؟ ما هذه الضجة! صحيح ما يقال: اذا التقى عاقلان عادا بمكسب، واذا التقى أحمقان عادا بدون عيون.

وتمكنت من تهدئتهما بالكاد، ووضعتهما بجواري: فردة عند ذراعي اليمنى، وفردة عند ذراعي اليسرى. ونمت.

وفي الصباح استيقظت، فلم أجد الفردة غير المدهونة، فقد هربت الملعونة غاضبة. فلبست الفردة الباقية في قدمي الاثنتين وانطلقت أطارد الهاربة.

جريت يوماً، وسنة، فلم أصادف الفردة الثانية. وبلغت احدى القرى، واذا هناك أناس لا حصر لهم قد وصلوا القرية، ومازال غيرهم يفدون. منهم من يركب ثوراً، ومن يركب خنفساً، ومن يركب قنفذاً، ومن يركب ثعباناً، ومن يركب جدياً جبلياً، ومن يركب بجعة.

وتبدأ الولمية، فسألتهم:

– بأية مناسبة تقيمون هذا الحفل؟

فأجابوا:

– هذا ليس حفلا، بل مأدبة تأبين.

– ولمن التأبين؟

– لابن البيك. مضى منذ حوالي سبع سنوات ليرعى قطيعاً فانقطعت أخباره.

وجاء الخدم بأطباق اللحم، فرأيت بينهم فردة حذائي الهاربة.

فصرخت فرحاً، فالتفتت على صوتي، وكادت من المفاجأة أن تسقط طبق اللحم من يدها.

ويبدو أنها كانت تخشى العقاب على هربها، فراحت تضع أمامي الطبق تلو الطبق وتقول:

– أنت بخلت علي بشحم الأرنب، أما أنا فلا أبخل عليك بشيء.

وكومت أمامي لحم بحجم الخيمة.

وفرحت فسوف أشبع لحماً أنا شخصياً ونيابة عن كل أهلي! وملأت قبضتي باللحم، وما أن هممت بفتح فمي على مصراعيه حتى ارتبكت، اذ لم أجد فمي، بل لم أجد رأسي ذاته. لقد نسيته عند البحيرة، وعند ما كنت أحفر الجليد...

ورحت أرجو فردتي الحذاء:

– يا حبيبي، اركضا واحضرا رأسي... أصنعا معروفاً، وسأرد لكما الجميل.

وانطلقت الفردتان لتحقيق طلبي، أما أنا فجلست أنتظر، بينما أطلق الضيوف العنان لأسنانهم، فأكلوا اللحم كله، والتهموا الأطباق. ولم يتبق لي شيء، فالتعيس يدركه البلل حتى في اليوم القائظ!

وما أن ركبت رأسي حتى تكاثفت السحب، وبدأت السماء تمطر شماماً، وأردت أن أقطع شمامة، ومددت يدي بالسكين وغرزته فيها. ولكن يبدو أنني لم أقدر قوة الضربة اذ غاص السكين في قلب الشمامة.

فأقسمت:

– سأجد السكين حتى لو اضطررت الى الغوص في معدتي أنا!

وفككت الحزام، وأمسكت بطرفه وغصت في الشمامة برأسي.

وقضيت أياماً طويلة في البحث الدائب، وأبدت الحذاء، وأبليت المعطف، ولم أجد السكين.

وفجأة عثرت على شخص ما. سألني:

– ماذا تفعل؟

– أبحث عن سكين.

فصاح الرجل:

– يا لك من أحمق. انه يبحث عن سكين هذا الرأس الخشبي! انني هنا منذ سبع سنوات أبحث عن قطيع ماعز فلا أعثر عليه...

وأدركت على الفور أن هذا الرجل هو نفسه ابن البيك الذي كنت منذ قريب أشهد وليمة تأبينه.

فقلت له:

– بدلا من السباب واثارة الشجار هيا دعك من معيزك وعد الى والديك التعيسين.

فكشر عن أنيابه وقبض على لحيتي وصاح:

– اذن فوالداي أعز لديك من المعيز!

فلم أتمالك نفسي وأمسكت بتلابيبه. وبدأت المعركة. واهتزت الشمامة بفعل عراكنا وتدحرجت على سطح الأرض. تدحرجت وتدحرجت حتى صعدت جبلا عالياً، وفوق قمته انفلقت.

ولم الاحظ الى أين هوى ابن البيك من الجبل، أما أنا فسقطت بجوار البحيرة التي تركت عندها قطيعي. وكانت سقطة شديدة الى درجة أن الأرض

انبعجت! أما أنا فلم أصب بشيء. ولكني لسبب ما شعرت فجأة بالظمأ. يبدو أن ذلك بسبب اللحم الدسم الذي لم يقدر لي أن أذوقه في وليمة التأبين.

أنزلت راسي في الفتحة التي كنت قد حفرتها في الجليد وأخذت أشرب الماء، فشربت مياه البحيرة كلها ولم أشعر بالارتواء. ولكني لم أفطن فوراً الى السبب. واتضح أن السبب بسيط: فعندما كنت أشرب التصق بشاربي من البرد ستون بطة برية وسبعون علجوماً.

فقلت لنفسي:

«وما حاجتي الى كل هذه الطيور؟»

فأخفيتها جميعاً في عبي ثم بادلتها بعد ذلك ببجعة. ولتعلم أيها الخان العظيم أن تلك البجعة، رغم أنها كانت أعلى من الجمل، فقد كانت تشرب الماء من البئر دون أن تحني عنقها...

فصاح الخان فجأة محاولا أن يربك الصبي ولو في آخر روايته:

– يبدو أن تلك البئر لم تكن عميقة أبداً!

فأجاب الصبي دون أدنى ارتباك:

– ربما لم تكن البئر عميقة، ولكن الحجر الذي يلقى فيها ساعة الفجر لم يكن يبلغ الماء الا في آخر الليل.

فقال الخان وهو يتململ في جلسته:

– اذن فقد كانت الأيام آنذاك قصيرة!

فجاءه الجواب دون تلعثم:

– نعم، يبدو أن الأيام كانت قصيرة، اذا كان قطيع الغنم يقطع السهوب كلها من طرف الى طرف في يوم واحد من تلك الأيام.

وشحب الخان وعض على شفته، أما الصبي الممزق الثياب فأنهى روايته هكذا:

– ها آنذا يا مولاي قد رويت لك حسب رغبتك أربعين حكاية كاذبة. فلتكافئني بالعدل! واذا لم تكن حريصاً على بيت المال فأنا مستعد لأن أروي لك أربعين مرة في كل مرة أربعين حكاية كاذبة. فالكلمات تولد من الكلمات كما تولد الأعمال الطيبة من الأعمال الطيبة!

وأومأ الخان برأسه لوزرائه، وهو يتميز غيظاً، فراحوا يصبون الذهب في الكيس. وكلما ازداد الكيس امتلاء ازداد الخان تمزقاً من الجشع.

وأصبح الكيس على وشك الامتلاء، واذا بالصبي المهلهل يرفع يده الملوثة ويقول:

– أيها الخان، انني متنازل عن الذهب! فليبق لديك. ولكن أرجو أن تحقق لي مطلباً مقابل ذلك: أطلق سراح المساجين الذين يعانون في زنازينك.

وكأنما أطارت هذه الكلمات صواب الخان. فقد صرخ، واندفع نحو الكيس كما ينقض الطير الجارح على جيفة،واحتضن الكيس والتصق به بجسده كله.

وأدرك الوزراء على الفور أن الخان قد اختار الذهب، فأسرعوا يفتحون أقفال السجون.

وسرعانما أصبحت الزنازين خاوية. واختفى الصبي راوي الحكايات الكاذبة فلم يره أحد.

أما الخان فلم يستطع حاشيته أن تفصله عن كيس الذهب، وبعد ثلاثة أيام لفظ أنفاسه.

الماكران

كان ياماً كان، في سالف العصر والأوان، اثنان ماكران مرحان. كان أحدهما يمرح في سهوب سيردريا، والآخر في سهوب صاري‌أرك. وذاعت أخبار ملاعيبهما، وكثيراً ما كان يسمع أحدهما بحكايات عن الآخر.

وأخيراً قرر كل منهما بينه وبين نفسه أن يلتقي بصاحبه في مكان‌ما وجهاً لوجه، لكي يجرب مهارته ويختبر دهاءه.

ومضى كل منهما في طريقه بعد أن دهن حذاءه بالدهن ودس طرف ردائه في الحزام. وبعد مسيرة طويلة تقابلا في يوم معلوم على أحد طرق القوافل، قرب مزار جديد. وتصافحا كالأصدقاء القدامى وتعانقا، وتبادلا أطراف الحديث.

وسأل ماكر سير دريا:

– هل هناك أخبار؟

فأجاب ماكر صاري أرك:

– نعم، توجد أخبار. هل ترى هذا المزار الجديد؟ لقد دفن فيه منذ وقت قريب بيك مشهور. وقد ترك ثروة كبيرة من القطعان والذهب، وانتقلت ملكية كل هذا الى ابنه العبيط.

فقال ماكر سير دريا:

– البيك لا يعطي ما يملك، وعلى الفقير ألا يفلت الفرصة... هيا نتحايل على ابن البيك فنأخذ مائة دينار ونقتسمها.

فأجاب ماكر صاري أرك:

– عفارم عليك! أنا موافق، ولكن كيف نتحايل؟

واذا اجتمع ما كران فهل يصعب عليهما ذلك؟

فبعد أن أكلا وشربا ودخنا تباحثا في الأمر، وتوصلا الى قرار.

دخل ماكر سير دريا المزار واختبأ فيه. أما ماكر صاري أرك فقد لف رأسه بعمامة خضراء، وذهب الى قرية البيك المرحوم في هيئة درويش متجول.

وقال الماكر لابن البيك:

– يا بني، لقد اقترض المرحوم والدك مني فيما مضى مائة دينار، وقال لي: سأرد لك نقودك كاملة متى طلبتها. فاذا كنت حياً سأردها أنا، واذا مت فسيردها لك ابني». وها قد حان أوان استرداد الدين. فلتنفذ وصية أبيك.

وفغر الابن فاه دهشة. فالاقتراض أسهل من السداد، وفكر قليلا ثم قال:

– وكيف تثبت صدق ما تدعيه؟

فهز الماكر رأسه وقال وهو يتنهد بأسي:

– اذا لم تكن تثق في عمة الحجاج الخضراء التي أضعها على رأسي، فلتذهب الى قبر أبيك، فربما هداك الى الحق.

واقترب البيك الصغير من قبر أبيه وهو في شدة الاضطراب، وسأل وهو يرتعد خوفاً:

– هل صحيح يا أبي ما يقوله الدرويش ذو العمة الخضراء من أنك مدين له بمائة دينار؟

ورد عليه ماكر سير دريا من داخل المزار بصوت مكتوم:

– صحيح، صحيح يا بني. بسبب هذا الدين ألاقي هنا صنوف العذاب. رده بسرعة يا بني الى الدرويش حتى ترتاح عظامي.

ركض ابن البيك عائداً الى البيت وهو يتصبب عرقاً، ودون أن ينبس ببنت شفة أعطى للماكر مائة دينار.

وخبأ ماكر صاري أرك الذهب في عبه وقال في نفسه:

«فليبق صاحبنا في المزار الى أن يمل، أما أنا فلن أضل في السهوب وحدي».

ومرت الأيام والأسابيع. وعاد الماكر الى داره، وخبأ الذهب تحت الموقد خلسة، وشدد على زوجته:

– لو جاءنا رجل صفته كذا وكذا، قولي له انني مت فجأة ودفنت. حاولي أن تصرفيه بسرعة. والى أن يرحل احملي لي العشاء كل مساء في الوادي، فسأنتظر هناك الى أن يذهب.

أما ماكر سير دريا فقد انتظر صاحبه طويلا وهو مختبىء في المزار المظلم، الى أن أدرك أن صاحبه خدعه. فخرج من مخبئه بصعوبة، ثم نظر ناحية سهوب صاري أرك وقال:

– لن تفلت مني يا صاحبي، فمهما ترامت السهوب فالانسان أمهر، مهلا مهلا يا عزيزي فستدفع الثمن غالياً:

وشد حزامه ومضى يبحث عن المخادع. وسار نهاراً وليلة، وشهراً، يقطع الفيافي والجبال والوديان. وأخيراً عثر على خيمة الهارب، ففتح الباب ودخل. وما أن رأته زوجة الماكر حتى راحت تولول:

– مات زوجي المسكين، منذ ثلاثة أيام دفناه. وأيا كنت أيها الغريب، دعني وحيدة مع أحزاني.

فقال ماكر سيردريا في نفسه «عبثاً تحاولين طرق الحديد وهو بارد يا سيدتي». ولكنه قال لها وهو يذرف الدموع:

– لقد مزقت نياط قلبي بكلامك أيتها المرأة. صديقي مات! يا للمصيبة! ياللفاجعة! كيف اترك منزل صديقي المرحوم دون أن أبكيه وأؤبنه. أعاهدك أمام الله أن أبقى هنا أربعين عاماً حتى افقد بصري من البكاء.

ودون أن يكف عن البكاء تربع في صدر الدار واستراح في مجلسه.

ومرت الأيام وماكر سير دريا يعيش في دار غريمه، يؤبن صديقه من لحم غنمه وشرابه. ولم يغب عنه أن ربة الدار تختفي كل مساء ومعها كيس مملوء. وذات مرة تبعها الماكر خفية فعرف الطريق الى الوادي.

ثم دعا الجيران الزوجة لزيارتهم. فارتدت أجمل ثيابها وغابت طوال النهار ولم تعد الا بحلول الليل. ولم يضيع ماكر سير دريا الوقت، فارتدى زي ربة الدار، وملأ الكيس بشتى المأكولات، وعند ما هبط الظلام نزل الى الوادي حيث يختبىء ماكر صاري أرك.

ولم يفطن الأخير الى الخداع، وانقض على الطعام قائلا:

– ماذا، ألا ينوي ذلك المحتال أن يرحل؟

فأجابه ماكر سير دريا وقد غير صوته:

– كلا، لا يتزحزح، يتظاهر بأنه شديد الحزن. بينما يبحث ويفتش بعينيه عن شيء ما. يبدو أنك خبأت عنه شيئاً ما. أخشى أن يعثر عليه.

فضحك ماكر صاري أرك وقال:

– لا تخافي يا حمقاء، فلن يعثر على شيء حتى لو جف عوده. ولكن على أي حال راقبي الموقد. فاذا لاحظت شيئاً اخبريني.

– حسناً، قال ماكر سير دريا له، بينما قال في نفسه – «آه، أذن فقد خبأه تحت الموقد!».

وعندما عادت الزوجة كان ماكر سير دريا جالساً في مكانه وكأن شيئاً لم يحدث، وهو يشرب «الكوميس» ويذرف الدموع الحارة.

وجمعت الزوجة بعض الأطعمة على عجل، وأسرعت الى زوجها وهي تتوقع أن يعنفها على تأخرها.

وعندما رأى ماكر صاري أرك زوجته دهش جداً وقال:

– قولي بسرعة، ماذا حدث؟ لماذا جئت ثانية؟

– ماذا تقول يا طويل العمر؟ هذه أول مرة آتي فيها اليك.

فصاح الماكر:

– آه يا مجنونة، لقد قضيت علي.

وطار بأقصى سرعة الى البيت.

ولكنه لم يجد مكان الذهب سوى الريح.

ولهذا يقول الشيوخ الحكماء: «لا تغتر بقوتك، فقد تقع فيمن أقوى منك، ولا تغتر بدهائك فقد تقع فيمن أدهى منك».

وفكر ماكر صاري أرك قليلا ثم قال:

– الحظ تارة يعطينا وجهه، وتارة يولينا ظهره. ومن استسلم للحزن زاد من صعوبة وضعه. اذا رفض الحصان أن ير مح، فعليك أن تسير به خطواً.

وودع زوجته، وركب ثوراً بلا قرون، وساقه بعصى بجراء، متجهاً الى سهوب سير دريا.

وفي تلك الأثناء، وبينما كان ماكر صاري أرك يقطع السهوب ويسأل عن الطريق، وصل ماكر سير دريا الى داره وأمر زوجته أن تعلن للقرية فوراً أنه توفى فجأة، أما هو فتغطى بالكفن وتمدد كالميت. وفعلت الزوجة مثلما أمرها. وتجمع الناس من الخيام المجاورة عندما سمعوا صياحها وعويلها، وأبدوا أسفهم على المرحوم، ثم حملوه الى مزار قديم ودفنوه، وابتدأت وليمة التأبين. وفي هذه اللحظة وصل ماكر صاري أرك الى القرية على ظهر ثوره الأقرع. وعندما علم بأمر الوليمة ومن المتوفي فطن فوراً وقال في نفسه: «ايه، لعبة معروفة»، ولكنه تظاهر بأنه مصعوق لهذا النبأ الفاجع، فصاح وهو يتوح:

– اذا مات صديقي فلامت أنا! لا طعم للحياة بعده ولا للسعادة. أرجو كم أن تدفنوني بجواره، ولا تفرقوا بيننا ولو بعد الممات.

وارتمى على الأرض، وكتم أنفاسه متظاهراً بأنه مات.
ودفنوه في نفس اليوم بجوار صديقه.
وبعد أن تفرق الناس، وبقى الماكران معاً في المزار قال ماكر صاري أرك بصوت خافت:
– السلام عليكم.
فأجابه ماكر سير دريا بنفس الخفوت:
– وعليكم السلام.
فسأل ماكر صاري أرك:
– ألم يحن الأوان لاقتسام ذهب البيك؟
– حسناً، وبما حان الأوان...
وفي تلك اللحظة تردد في الخارج وقع أقدام وصخب ورنين، واقتحمت المزار عصابة لصوص من أربعين لصاً شقياً.
وجلسوا حلقة وبدأوا يقتسمون غنيمتهم. فحصل تسعة وثلاثون – كل منهم – على كومة ذهب، وبقى للص الأربعين سيف قديم. ولكن لم يرض أحد منهم أن يأخذ السيف، اذ كان الجميع يطمعون في الذهب. وثار جدال فقال زعيم العصابة:
– أيها الحمقى، أليس السيف الأصيل أفضل من حفنة ذهب؟ الشجاع يستطيع به أن يحمى حياته ويحصل على الثروة. وهذا السيف القديم يليق ببطل. انظروا كيف سأمزق هذين الميتين بضربة واحدة!
وأخرج السيف من غمده.
وفي تلك اللحظة، وقبل أن تقع الكارثة، هب الماكران في كفنيهما وصاحا:
– أيها الضالون الحمقى، أيها الأشرار الملاعين! ألم يكفكم ما أرقتم من دموع الأحياء فأردتم أن تتطاولوا على الموتى! فلترتعدوا رعباً فقد دنت ساعة القصاص!
ولكم أن تتصوروا ما حدث! يقول المثل «البطة المذعورة تغوص في الماء بذيلها»... ألقى اللصوص كل مسروقاتهم الثمينة، واندفعوا، كل منهم يدوس على صاحبه، فمنهم من انفلت من الباب، ومنهم من شق الجدار برأسه. وفي لحظة كانوا على بعد ثلاثة أيام سفر من المزار.
وهنا طرح الماكران عنهما كفنيهما، وقسما الذهب بالعدل، وضحكا من صميم قلبيهما على مغامراتهما وافترقا، فتوجه أحدهما الى سهوب سير دريا، وتوجه الآخر الى سهوب صاري أرك.

الحمار الشجاع

مل الحمار من حمل الاثقال. فقال للجمل صاحبه ذات مرة:

– اسمع يا جمل. لقد مللت من حمل الأثقال، وتسلخ ظهري فلم يعد فيه موضع سليم! هيا بنا نهرب من صاحبنا، ونعيش أحراراً كما يحلو لنا.

صمت الجمل وفكر، ثم قال:

– صحيح أن صاحبنا رجل سيء. لا يطعمنا الا القليل، ويكلفنا بعمل الكثير. وكان بودي أن أهرب، ولكن كيف؟

وكان رد الحمار جاهزاً. قال:

– لقد دبرت كل شيء فلا تقلق. غداً سيحمكنا صاحبنا بالملح لننقله الى المدينة. في البداية سنسير طائعين مستسلمين، ولكن ما أن نصعد الجبل حتى نسقط ونتظاهر بالضعف الشديد. ومهما سبنا صاحبنا وضربنا فلن نتحرك. وعندئذ ستخور قواه ويتركنا عائداً الى البيت ليأتي بالنجدة. وساعتها تصبح أمامنا فرصة الهرب الى حيث نشاء. المهم أن تساعدنا سيقاننا.

فقال الجمل مسروراً:

– ما أعظم تفكيرك وما أروعه! سنفعل كما قلت.

وانتظرا حتى الصباح. وفي الصباح حملهما صاحبهما بأكياس الملح وساقهما الى المدينة.

وقطعا نصف الطريق كالعادة: الجمل في المقدمة، والحمار من خلفه، وفي المؤخرة سار صاحبهما وفي يده العصى. وها هم قد صعدوا الجبل، فاذا بالجمل والحمار يسقطان أرضاً، ويتظاهران بالضعف الشديد.

فصاح صاحبهما يسبهما:

– أيها الكسالى، أيها التنابلة، انهضا حالا قبل أن تذوقا طعم العصى.

ولكنهما لم يتحركا، وكأنما لم يسمعا شيئاً.

وغضب صاحبهما فانهال عليهما ضرباً.

ضرب الجمل تسعاً وثلاثين ضربة فتحمل الجمل، ولكن ما أن هم صاحبه بضربه للمرة الأربعين حتى زمجر الجمل ونهض واقفاً.

فقال صاحبه:

– نعم، هكذا. كان يجب أن تنهض من زمان!

واستدار الى الحمار.

ضربه أربعين مرة، قلم يتأوه الحمار، وضربه خمسين مرة فلم يتحرك، وضربه ستين فظل الحمار كما كان.

وأدرك الرجل أن الحالة سيئة، لابد أن الحمار سينفق. ويالها من مصيبة، ولكن ما العمل.

نزع عن الحمار حمله ووضعه على الجمل، ومضى في طريقه.

وسار الجمل بصعوبة تحت ثقل الحمل وهو يلعن الحمار:

– أيها الحمار الملعون! بسببك أسير مضروباً وأحمل حملا مضاعفاً.

أما الحمار فانتظر حتى اختفى صاحبه والجمل، ثم نهض وانطلق هارباً بكل قواه.

جرى ثلاثة أيام، وعبر ثلاثة جبال وثلاثة وديان، حتى بلغ مرجاً فسيحاً قرب بحيرة.

وأعجبه المرج فاستوطنه. وكانت هذه الأرض منذ سنين طويلة ملكاً لنمر جبار.

وذات يوم قرر النمر أن يتفقد أملاكه. خرج في الصباح، وعند الضهر اكتشف وجود الحمار.

كان الحمار يرعى في المرج وهو يهز ذيله، ويقضم العشب.

فقال النمر لنفسه: «ما هذا الوحش؟ لم أر أبداً وحشاً مثله».

اما الحمار فنظر الى النمر وتسمر رعباً. وقال لنفسه. «لقد دنا أجلي! ولكن بدلا من أن أموت مستسلماً، سأظهر لهذا الوحش الرهيب شجاعتي».

ورفع الحمار ذيله، وحرك أذنيه، وفتح فمه واسعاً، ونهق بكل ما في زوره من قوة!

وغامت الدنيا في عيني النمر من الخوف، فانطلق يركض هارباً بأقصى ما يستطيع دون أن يجرؤ على الالتفات خلفه.

وفي الطريق صادفه الذئب. فسأله:

– ممن تهرب مفزوعاً هكذا أيها الملك؟

– أخافني وحش لم أر أرهب منه وحشاً. لديه بدلا من الأذنين جناحان، وفمه كحفرة بلا قرار، ويزأر حتى تتزلزل الأرض وتظلم السماء.

فقال الذئب:

– مهلا، مهلا، أليس هو الحمار الذي قابلك؟ نعم هو الحمار. حسناً. غداً نمسك به معاً بالانشوطة.

وفي اليوم التالي حصل الذئب على أنشوطة، فربط أحد طريفها في رقبة النمر، والطرف الآخر في رقبته، وذهبا الى المرج.

سار الذئب في المقدمة وهو يجر النمر جراً.

ورآهما الحمار من بعيد، فعمد الى ما سبق أن فعله: رفع ذيله، وفغر فمه وصاح بأعلى من السابق.

فصرخ النمر في الذئب:

– لا ياصاحبي، يبدو أنك تريد تقديمي طعاماً لهذا الوحش الخرافي.

واندفع النمر بكل قواه هارباً فانتزع رأس الذئب من عنقه.

وعاد النمر الى بيته وهو يلهث.

وجاء طائر العقعق وبربر، فثرثر وسأل النمر عما حدث، ثم قال له:

– مهلا، سأطير الآن الى المرج لأنظر ما هذا الوحش وماذا يفعل. سأستقصي كل شيء وأخبرك.

وطار العقعق الى المرج.

وعند ما لمحه الحمار من بعيد استلقى على الأرض ومد سيقانه وتظاهر بالموت.

ونظر العقعق فابتهج.. لقد مات الوحش الرهيب!

وهبط العقعق على جسم الحمار، وراح يخطو فوقه جيئة وذهاباً، وهو يفكر كيف يكذب على النمر ويدعي انتصاره على الوحش الخرافي.

وفجأة لاحظ العقعق لسوء حظه حبة قمح على الأرض، فاستعد ليلتقطها بمنقاره، ولكنه تعثر فسقط برأسه بين ركبتي الحمار.

وهنا بعث الحمار حياً، فأطبق ساقيه على العقعق، وراح يجلده بذيله حتى تطاير الريش في كل ناحية. ثم رفسه بحافره فألقاه في طرف المرج.

ورقد العقعق هناك حتى أفاق، واستجمع بقية قواه وطار عائداً وهو يئن ويتوجع.

وأخذ يصيح بالنمر من بعيد:

– اهرب من هنا وانج بجلدك. هذا الوحش الملعون حطمني وأعجزني الى الأبد! احذر والا أصابك ما أصابني.

وتملك النمر الفزع، فجمع حاجياته ورحل الى الأبد.

أما الحمار الشجاع فما زال يعيش في الوادي الفسيح.

الأصدقاء الثلاثة

زعموا فيما زعموا، أنه في زمان ما تصادق وتآخى ثلاثة: جدي وحمل وعجل.

وذات مرة نظر الجدي الى جبل بعيد وقال:

– من منكم يا اخوتي رأى الشمس وهي تختفي مساء وراء الجبل؟

فقال الحمل:

– أنا رأيتها.

وقال العجل.

– وأنا رأيتها.

فاقترح عليهما الجدي:

– هيا اذن نذهب لنعرف أين تختفي الشمس ليلا.

وفي نفس اليوم هرب الأصدقاء خفية من القطيع.

وساروا عبر السهوب. وطال الطريق، ولكن الجبل أصبح أقرب فأقرب. وفرح الأصدقاء. وفجأة صادفتهم قناة، فكيف يعبرونها؟ قال الجدي:

– لابأس، فلنقفز فوقها.

فقال الحمل:

– أنا خائف.

وقال العجل:

– وأنا خائف.

فضحك منهما الجدي:

– يالكما من جبناء! أما أنا فلا أخاف شيئاً.

وتقهقر قليلا ثم ركض فقفز الى الشاطىء الآخر.

وقفز في اثره الحمل بمهارة، فلم يبتل سوى حافره الخلفي.
أما العجل فظل في مكانه يبدل سيقانه. ولكن ما العمل؟ اضطر الى القفز. وسقط في الماء، وكاد أن يغرق لولا أن انتشله صاحباه من أذنيه.
وقال الجدي:
– لقد انقذناك من الموت ياعجل، وعليك أن تكافئنا على هذا المعروف. هيا احملنا على ظهرك حتى الجبل.
وجلس الشقيان على ظهر العجل وراحا يضحكان.
ومر بعض الوقت. وصاح العجل متشكياً:
– أنا تعبت. أنا لست جملا. سأحملكما حتى ذلك الحجر الأبيض وكفى، فلتنزلا هناك.
وبلغوا الحجر، فاذا به ليس حجراً، بل كيس سفر ملقى على الطريق. وكان مملوءاً تماماً بشيء ما. يبدو أن أحد الحمقى ضيع حملا. وفتحوا الكيس فاذا فيه أربعة جلود حيوانات: جلد نمر، وجلد دب، وجلد ذئب، وجلد ثعلب.
فقال الجدي:
– لقية جيدة.
ومضوا بالكيس في طريقهم. وهاهو الجبل قد أصبح قريباً جدا. وتحت الجبل انتصبت خيمة بيضاء. وتردد فيها صخب ولغط وأغنيات وعزف موسيقى. توقف المسافرون الثلاثة وتبادلوا النظرات. ثم قرروا أن يفتحوا الباب، وليكن ما يكون.
رأوا في الخيمة وليمة، كان النمر الأرقط يشرب «الكوميس»، والدب السمين يلعق الحلوى، والذئب الأشهب يأكل الشطائر، بينما الثعلب يعزف على الربابة ويغني:

فيضي، ربابتي، بالشدو والغنا'
فاليوم كلنا هنا كأصدقا'
وفي غد نعود كالأعدا'
فليحم كل جلده من الفنا'

وعندما دخل الأصدقاء الثلاثة الخيمة تسمروا في أماكنهم، فقد أدركوا أنهم وقعوا في ورطة. أما الوحوش فما أن رأوا الضيوف غير المتوقعين حتى اتقدت عيونهم بالنهم، فهاهو الطعام الشهي يأتي اليهم بنفسه! وغمز الثعلب بعينه في مكر الى بقية العصابة، وقال وهو يلعق شفتيه:

– أهلا ومرحباً بضيوفنا الأعزاء. لقد أرسلكم الله لتشهدوا وليمتنا. اجلسوا بقرب الموقد ياأولادي. سوف نضيفكم حالا... أما الآن فهلا عزفتم قليلا على الرباب وأبهجتونا بأغنية؟

طأطأ الحمل رأسه وسكت. وتراجع العجل وسكت. أما الجدي فهز شعره

– هات الربابة ياثعلب. سأغني لكم وأعزف.

المجعد وقال:

وضرب على الأوتار منشداً:

فيضي ربابتي بالنغم المسحور
فالويل للأعدا، والشرور!
النمر الأرقط لا نخافه
والدب، هذا الضخم، لا نخافه
والذئب لا نخافه
والثعلب المكير لا ونخافه
فان هجمنا الآن ننزل العقابا
فنسلخ الجلود منكم و نكسر الرقابا!

سمع الوحوش هذه الأغنية الجريئة فدهشوا.

وصاح النمر:

– ومن تكونون؟

فأجاب الجدي:

– نحن صيادون.

فزأر الدب:

– والى أين تقصدون؟

– نحمل بضاعتنا الى السوق.

فدمدم الذئب:

– وما هي بضاعتكم؟

– جلود وحوش.

فزمجر الثعلب:

–ومن أين حصلتم عليها؟

فقال الجدي:

– سلخناها من أصحابكم.

وفض الكيس وأخرج الجلود الأربعة.

وتجمد الأشرار ذوو الأنياب رعباً، ثم عوى كل منهم على طريقته، واندفعوا هاربين كل الى جهة.

وبقى الأصدقاء الثلاثة أصحاباً للخيمة، فأكلوا من طيبات ما تركته الوحوش لهم، واستراحوا، ثم أخذوا يفكرون فيم سيفعلونه بعد ذلك.

قال الجدي:

– حسناً أننا أخفنا هؤلاء الأعداء، ولكن سيكون من السيىء لو أنهم عادوا الى صوابهم فرجعوا الى هنا. وعندئذ لن نتجو بعظامنا. هيابنا نعود بسرعة الى بيوتنا قبل أن يصيبنا مكروه. فبين أهلنا لن نخاف حقاً أي وحش. هناك سيحمينا الرعاة الفرسان من كل الأعداء.

ولم يكن الجدي بحاجة الى وقت طويل لاقناع صاحبيه. فقال الحمل:

– أنت على حق يا أخي.

وقال العجل:

– كلامك مضبوط.

وبعد لحظة كانوا بعيدين عن الخيمة البيضاء، وابتعدوا أكثر عن الجبل. كان الجدي يركض في المقدمة، ومن خلفه الحمل، ثم العجل.

وفي المساء بلغوا ديارهم. وفرح بهم الرعاة حتى أنهم لم يؤنبوهم. وهكذا انتهى كل شيء بسلام.

الأمر الوحيد المؤسفّ أن الأصدقاء الثلاثة لم يستطيعوا أن يعرفوا أين تختفى الشمس ليلا.

الحمار المغنى

في الدنيا الواسعة، وبين أجناسها العديدة ليس من الغريب أن يعيش في عصر ما، في قرية ما، الثرثار العجوز جاكصيبياي، وهو لايعرف للهموم طعماً. وكان لدى هذا العجوز حمار، لم يكن يختلف في مظهره عن بقية الحمير، ولكنّ كانت لديه حنجرة قوية الى درجة أنه عندما ينهق في مربطه كان الناس حتى في القرى المجاورة يسدون آذانهم.

وذات مرة ذهب جاكصيبياي الى مدينة تركستان القديمة، وقصد من فوره ميدان السوق. وهناك ربط حماره الى شجرة، أما هو فرفع ذيل ثوبه، ودلف الى مقهى. والمقهى الجيد دائماً عامر بالناس، وحيث يجتمع الناس يدور الحديث، وحيث يدور الحديث ينشب الجدال، وحيث ينشب الجدال لا يستطيع أن يتفوق على جاكصيبياي. والناس تقول: «الثرثار» فمه بلا أزرار...»

وانتظر الحمار صاحبه طويلا قرب المقهى. ولفحته الشمس الحارقة، وأزعجه الذباب الطنان، وآلمته لدغات القراد. وجاع الحمار واستبد به الظمأ. فماذا يفعل؟ فعل ما يفعله أي حمار آخر من بني جنسه: رفع ذيله، ونفخ منخاريه، وفتح فمه و... زأر بأعلى صوته.

وانتفض رواد السوق، من جاء منهم لعمل، ومن جاء للتسلية، واستداروا نحو مصدر الزئير.

وقال كل من في السوق:

– يا له من صوت! لم نسمع بمثل هذا الصوت من قبل في تركستان.

وفرح الحمار وقال:

– يا سلام! منذ سنين وأنا اذرع الطرق فلم أعرف قيمتي الا الآن! لقد اعترف كل أهالي تركستان بموهبتي!

ومنذ تلك اللحظة أمن الحمار حقاً أنه مطرب عظيم.

وقال الحمار لنفسه: «لن أعمل بعد اليوم لدى جاكصيباي، فالمجد والشهرة في انتظاري، فهل يفوز بهما من يحمل الأثقال والحطب؟».

وثار الحمار فاندفع بكل قواه، وقطع الرسن، وركض الى خارج المدينة. وداعا أيها الثرثار العجوز جاكصيباي! وداعاً يا مدينة تركستان القديمة!

ومضى الحمار يتخبط في الطريق المقفر، وازداد لفح الشمس له وازعاج الذباب ولدغ القراد. وتعب الهارب وهده الجوع والعطش. وليس من حوله ظل شجرة ولا نبتة عشب خضراء ولا بركة مياه.

وقال الحمار متنهداً:

– الطريق الى المجد شاق، ولكن الله لن يترك صفيه للهلاك.

ومضى في طريقه.

وفجأة رأى – لحسن حظه أو لسوئه – حديقة واسعة، محاطة بسور من الطين. وكان السور مهدماً في أحد المواضع، فظهرت من الفرجة أشجار وارفة الظلال، ورياض جذابة ذات عشب نضير، وجداول رقراقة. كان الاغراء شديداً، فضم الحمار جنبيه، وحشر نفسه في الفتحة ودلف الى البستان الغريب. ونسى كل شيء في الدنيا وانقض بنهم على الطعام والشراب. وقضى وقتاً طويلا يطأ الرياض وأحواض الزهور على غير هدى، حتى أحس أخيراً أنه شبع حتى التخمة. عندئذ توقف ليلتقط أنفاسه، ورفع رأسه و... ترنح من شدة المفاجأة.

فمن وسط الخمائل سارت نحوه مباشرة غزالة صبية، رائعة كحورية من الجنة. وكانت هذه الغزالة قد دخلت البستان خلسة أيضاً. كانت تلهو منذ الصباح في السهوب، حتى بلغت سور البستان فقفزت فوقه، وأخذت ترعى في عشب البستان الفاخر. وعندما صادفت الحمار فجأة، همت بالهرب.

أما الحمار فما أن رأى الغزالة حتى غرق في هواها حتى أطراف أذنيه الطويلتين. ودق قلبه بعنف، ومضى هو يحملق في الحسناء ويفكر باعجاب: «حقاً أن يد القدر ترعاني. فقد وهبتني صوتاً نادراً، وقادتني الى هذا البستان الساحر، وها هي الآن ترسل الي عروساً من أجمل العرائس!»

وهز أذنيه وقال بصوت رقيق:

– سيدتي النبيلة، لقد أسرني جمالك السماوي. فلتسمحي لي بأن أغني لك. فلو سمعت صوتي العذب فلن ترفضي حباً من مطرب عظيم.

تلفتت الغزالة حولها ثم قالت بصوت خافت:

– أليس من الأصوب أن تسكت أيها الحمار؟ احذر والا حدث لنا بسبب حماستك ماحدث للصوص للساهين السبعة.

وروت له الغزالة هذه الحادثة:

– ذات ليلة تسلل سبعة لصوص الى بيت أحد الأغنياء. واختبأوا في القبو بين براميل الخمر المعتق الضخمة وراحوا ينتظرون حتى يعم الهدوء المنزل ليشرعوا في تنفيذ مادبروا. ولكن رائحة الخمر أدارت رؤوسهم، فأخذوا يغرفون الخمر الغالي بأكفهم ويصبونه في أفواههم. وانتهى الأمر بأن سكروا ونسوا أين هم فشرعوا يرفعون عقيرتهم بالغناء المرح. وسمعوا في البيت صيحاتهم فانقض حرس الثري على القبو وقبضوا على الضيوف المتطفلين. وأنا وأنت أيها الحمار لم نأت الى هنا بدعوة من صاحب البستان، ولم يتكرم علينا بهذا العشب اللذيذ.

فرد الحمار ذلك قائلا:

– ما أروع جمالك يا غزالة، ولكنك كما يبدو نشأت في السهوب الموحشة فلاتفقهين كثيراً في أمور الغناء والطرب، أما أنا فقضيت عمري بين الناس، وزرت مدينة تركستان ذاتها. وبوسعي أن أقول انني بلغت قمة الفن. ولوشرعت في الغناء فسوف تتوسلين الي بألا أتوقف أبدا.

ولكن الغزالة قالت:

– أليس من الأفضل مع ذلك أن تحاذر ولاتثير ضجة؟ من يترك عنه الحذر يقع في مصائب القدر، كتلك المصيبة التي حلت بأحد الحطابين.

وروت الغزالة هذه الحادثة:

– تلكأ أحد الحطابين في الغابة حتى داهمه الليل هناك. وفجأة سمع أصواتاً عالية غير بعيد عنه. وصعد الحطاب شجرة واختبأ هناك بين أغصانها الكثيفة. وجاء ثلاثة من الجن فجلسوا تحت الشجرة وبدأوا يأكلون وقد وضعوا أمامهم أبريقاً ثميناً. وما أن يمس أحدهم الابريق حتى يمتلىء بكوميس زكي الرائحة لم يشرب مثله أحد غير الجن.

وبحلول الفجر خبأ الجن الابريق تحت الشجرة، وانصرفوا كل الى جهة. وهبط الحطاب بسرعة، وأخرج الابريق وركض به الى المنزل، وعندما عاد دعا أهله وجيرانه وأخذ ينباهى أمامهم بكنزه الثمين. وكان يلمس الابريق بين

الحين والحين فيتدفق الكوميس العطر في الأقداح الممدودة. واستبد الفرح بالحطاب فوضع الابريق على رأسه وأخذ يدور في الخيمة وهو يغني. وزلت قدمه فهوى الابريق وتحطم. وأخشى أيها الحمار أن نفقد بسبب رعونتك هذا العشب اللذيذ.

فتنهد الحمار وقال بأسى:

– أيتها الغزالة، لقد وهبتك الطبيعة جمالا فاق الحدود، ولكنها وهنعت في صدرك قلباً قاسياً. غير أني على ثقة بأن انغام غنائي ستلطف من طباعك الخشنة، وستثير في نفسك أسمى الأحاسيس.

فمضت الغزالة ترجوه:

– أرجوك أيها الحمار أن تتروى قبل فوات الأوان، ولتوفر صوتك لسوق تركستان. فكثيراً ما يحدث أن يجلب الصوت الواحد الخارج من بين الشفتين في غير مناسبة مصائب لا ترد. وهذا ما لم يفكر فيه التاجر الشاب، فاضطر فيما بعد الى أن يندم أشد الندم.

وروت الغزالة الحادثة التالية:

– كان التاجر الشاب عائداً في شوارع المدينة المظلمة بعد أن شهد وليمة. وكانت جيوبه مليئة بالذهب. وفكر وهو يسير: «وماذا لو انقض علي اللصوص فنهبوا ثروتي؟» وتملكه الخوف، ولكي يشجع نفسه ويطرد عنها الخوف أخذ يصيح: «فاليحاول اللصوص الجبناء أن يظهروا... سأقضي عليهم فوراً... أنا لا أخشى الشيطان نفسه». وكانت هناك عصابة من المتشردين تكمن في شارع قريب. وعندما سمعوا صيحات التاجر هجموا عليه، واستولوا على نقوده وملابسه، وتركوه عارياً يضرب في المدينة. ويبدو، أيها الحمار، أن علينا أن نكف عن هذه الأحاديث الفارغة قبل أن تحيق بنا مصيبة، وأن نترك هذا البستان خفية.

ولكن الحمار هتف:

– يا غزالة، أيتها الجميلة القاسية! كيف تطلبين مني أن أسكت، اذا كانت الأغنية التي أزفها اليك يا حبيبتي تتفجر في صدري وتندفع الى زوري؟!

وأغمض الحمار عينيه، كما يفعل مشاهير المطربين، وفتح فمه واسعاً، كما يفعل كل الحمير في لحظة معينة، وزأر زئيراً رهيباً. وجفلت الغزالة فاندفعت جانباً، وبقفزة واحدة عبرت السور، وانطلقت الى السهوب تسابق الريح. أما الحمار، فلم يلاحظ شيئاً واستمر يزأر.

وأسرع نحوه صاحب البستان بهراوة غليظة وانهال على ضلوع الحمار

ضرباً، حتى أن الحمار زأر بأعلى من السابق ولكن من شدة الألم، وقفز من فتحة السور بين الموت والحياة. ومضى الحمار يجر ساقيه وقد نكس رأسه.

وحل الليل. وظهر البدر الكامل في السماء. وعندئذ رفع جميع ذئاب السهوب رؤوسهم الى أعلى، وكعادة آبائهم وأجدادهم، راحوا يعوون، كل على طريقته.

ولم يكن الحمار قد رأى من قبل ذئباً ولم يسمع عواءه. فتوقف عن السير، وأصاخ السمع، ثم قال بلهجة العارف:

— وهل هؤلاء مغنون؟ بوسعي أنا وحدي أن أطغي بصوتي على جوقتهم البائسة.

— وملأ رئتيه بالهواء فتردد صفير وصرير مرعبين، ثم صاح بقوة الى درجة أحس معها بالطنين في رأسه. وعلى الفور صمتت الذئاب في دهشة: فمن أين جاء حمار الى السهوب ليلا؟ ودون اتفاق انطلقت الذئاب الى الطريق، فلاحظت على الفور الفريسة و... هنا انتهت حكاية الحمار. اما اذا كفتم مصرين على معرفة حكاية جاكصيباي، فلتسرعوا بأقصى ما تستطيعون الى مدينة تركستان القديمة، واتجهوا فوراً الى السوق، وفي السوق اذهبوا الى أكثر المقاهي ازدحاماً، وادخلوها دون تردد. ومن الجائز جداً أن تروا جاكصيباي هناك، وقد نسي حماره، جالساً على كليم لين، يشرب قدح الشاي تلو القدح، ويثرثر بشتى الوقائع والاختلاقات — وسوف يحدثكم هو عن نفسه بلاشك.. ما عليكم الا أن تصغوا اليه.

لماذا أصبح ذيل السنونوة مقصوصا

في سالف العصر والأوان كان الثعبان الرهيب أيدهار يحكم الدنيا. وكان يعيش فقط على شرب الدماء، ولا يرحم أحداً، أما البعوضة اللئيمة فكانت خادمة عنده.

وذات مرة دعا الثعبان البعوضة اليه وقال لها:

– طوفي حول الأرض، وتذوقي خفية دماء جميع المخلوقات. وعندما تعودين خبريني دماء من هي الألذ مذاقاً. وسوف أهلك من تشيرين اليه.

وانطلقت البعوضة، ونفذت أمر سيدها، وطارت راجعة. وفي الطريق قابلتها سنونوة فسألتها:

– أين كنت؟

– بأمر سيدي أيدهار طفت حول الأرض لأعرف دم من ألذ الدماء.

– حسناً، وهل عرفت؟

فقالت البعوضة:

– ألذ الدماء هي دماء الانسان.

فانزعجت السنونوة وقالت:

– لا تخبري الثعبان بالحقيقة يا بعوضة. فالانسان طيب، لا تتسببي في هلاكه.

– لا، بل سأخبره!

فعادت السنونوة ترجوها:

– أرجوك، لاتجلبي الشر للانسان، فهو صديقي.

فأصرت البعوضة:

– كلا، سأخبره!

ووصلت البعوضة الى أيدهار، واذا السنونوة تحلق هناك.

وزمجر الثعبان:

– هيا، تكلمي عن كل ما رأيت. وأياك أيتها العبدة أن تتفوهي بكلمة كذب واحدة!

فشرعت البعوضة تقول:

– سيدي ومولاي، سأخبرك بالحقيقة الخالصة، ولن أخفى عنك شيئاً. ألذ الدماء وأحلاها هي دماء ال...

وأرادت البعوضة أن تقول «هي دماء الانسان» ولكنها لم تلحق. فقد انقضت عليها السنونوة في لمح البصر، وقطعت بمنقارها الحاد طرف لسانها.

وهومت البعوضة فوق الثعبان تئز:

– از–از–از...

ولا تستطيع أن تقول شيئاً آخر.

فقالت السنونوة بمرح:

– أنا أعرف يا أيدهار ما الذي كانت خادمتك تريد أن تقول: ان ألذ الدماء هي دماء الثعابين!

واستشاط الثعبان غضباً من السنونوة، فتكور ثم قفز الى السماء فاتحاً فمه. ولكن ليس هناك طائر أسرع من السنونوة. فقد اندفعت جانباً فلم يتمكن الثعبان من الامساك الا بذيلها. وتخلصت السنونوة منه ونجت من موت محقق.

وهوى الثعبان الرهيب وفي فمه بضع ريشات من ذيل السنونوة على الأرض. وارتطم بضحرة فلقى حتفه.

ولهذا يبدو ذيل السنونوة مقصوصاً من الوسط، ولهذا السبب يحب الناس هذا الطائر.

أبو فراس

في قديم الزمان كان رجل فقير يعيش في احدى القرى النائية. لم يكن لديه من متاع الحياة سوى قبعة من فراء الثعلب، وحصان رهوان. ولكن القبعة كانت تماماً، كلها ثقوب، أما الحصان فلم يكن له مثيل في العالم كله. كانت الشمس تحسده على جماله، والريح تحسده على عدوه.

وفي قرية أخرى كان يعيش رجلان ثريان، هما شقيقا الفقير الأكبران. كان لديهما ثلاثون قطيعاً من الخيل، وثلاثون قطيعاً من الغنم، وثلاثون حظيرة مملوءة بالأبقار، وكثير من الانية والأسلحة.

ومع ذلك كان ينقصهما أن أخاهما الأصغر يملك حصاناً ليس له مثيل في العالم، فلم يكفا عن التفكير في ذلك دقيقة واحدة، وفي كيفية الاستيلاء على هذا الحصان.

وذات يوم وضع الفقير قبعته على رأسه، وقفز الى ظهر حصانه، وانطلق الى أخويه.

وما أن رآه أخواه حتى أدارا له ظهريهما، وأربد وجهاهما من الغيظ. أما الفقير فانحنى لهما محيياً وقال:

– الفقر هدني يا أخوي، وقد عزمت على أن أعمل أجيراً، ولكن الحصان يعرقلني. هلا أخذتماه ليرعى مع قطعانكما حتى الخريف؟ لن تخسرا بذلك شيئاً وستعيناني على التخلص من هذا الهم. وفي الخريف سأدفع لكما ماتطلبان مقابل هذه الخدمة.

تبادل الثريان النظرات، وغمز كل منهما بعينه للآخر، وأجابا الفقير برقة وبشاشة:

– نحن مستعدان دائماً لمساعدتك يا أخانا. أترك حصانك مع قطعاننا، فليمرح كما يشاء الخريف. ولن نأخذ منك أي أجر على ذلك.

فشكر الفقير أخويه، وترك حصانه مع القطعان، وعاد الى البيت سعيداً مرحاً.

ومر الربيع وحل الصيف. وكان الفقير يعمل أجيراً دون كلل، وكان راضياً لأنه شبعان، ومطمئناً على حصانه.

وذات يوم هرع اليه رجل غريب وقال له انه يريد أن يفضي اليه بخبر هام.

فتبعه الفقير، وعندما أصبحا على انفراد، أخبره الرجل أنه راعى قطعان شقيقيه، وقال:

– مصيبة يا أخي. حصانك سيموت. شقيقاك أنهكاه بالركوب، ولا أظن سيعيش ثلاثة أيام أخرى. وقد أشفقت عليك، فجئت لأخبرك بذلك. لكن لاتخبر أخويك بمجيئي اليك. واذا سألاك: من أين عرفت، قل لهما: «أنا أبو فراس، أعرف كل شيء يجري في الدنيا».

وما أن قال الراعي ذلك حتى انصرف. أما الفقير فبكى بكاء مراً، وأسرع من توه الى أخويه.

والتقى بهما في الطريق، فراح يلومهما ويبكتهما وهو يبكي:

– كيف يطاوعكما ضميركما يا أخوي أن تؤذيا فقيراً أعزل؟ أي سوء فعلت لكما حتى تهلكا حصاني؟

وأدرك الثريان أن شقيقهما على علم بكل شيء، فراحا يتكران ما حدث:

– يبدو أنك جننت أو سكرت! ما هذا الهراء الذي تقوله؟ حصانك بخير ولم يمسه سوء، وهو يرعى مع قطعاننا.

فقال الفقير:

– كلا يا أخوي، لا تخدعاني، لقد أهلكتما حصاني. ولن يعيش ثلاثة أيام أخرى.

فسأل الثريان:

– من ذا الذي أخبرك؟

– لم يخبرني أحد بشيء. فقد أصبحت أبا فراس، وأعرف كل ما يجري في الدنيا.

وشيئاً فشيئاً تجمع الناس حول الاخوة، وأراد الجميع أن يعرفوا سبب الخلاف.

فكرر الفقير كل ما قاله له الراعي، فاتجه الجميع الى القطعان لكي يتأكدوا من صحة ما يقوله الفقير. وعندما وصلوا الى المرعى وجدوا أن

الفقير لم يقل الا الحق: فقد كان حصانه ممدداً على الأرض بين الحياة والموت، وهو يلهث بشدة، وكان جنباه مملوئين بالقرح.

وعندئذ ثار الناس وهددوا الاخوين الثريين، وطالبوهما بأن يعطيا للفقير عشرة من أفضل جيادهما عوضاً عن حصانه.

ولم يكن أمام الثريين الا أن ينفذا هذا الطلب. ولكن حقدهما على أخيهما ازداد منذ ذلك اليوم، واخذا يتحينان الفرصة للقضاء عليه.

وذات يوم اختفت سبيكة ذهبية لا تقدر بثمن من خزينة الخان، حاكم ذلك البلد.

وأمر الخان بأن يعلنوا في المملكة كلها بأن من يدل على المكان الذي اخفيت فيه السبيكة سيحصل من قطعان على الف خروف منتقى وثلاثمائة فرس حلوب.

وعندما سمع الثريان بذلك، ذهبا الى الخان وقال له:

– أيها الخان العظيم، ان لدينا أخا أصغر يقول عن نفسه انه أبو فراس. وقد سمعنا كيف كان يتفاخر أمام أصدقائه بأنه يستطيع أن يجد اللص في ليلة واحدة، ولكنه لا يريد أن يخدمك. ولو هددته بالموت فستعود اليك السبيكة قبل مطلع الفجر.

وصدق الخان الاخوين وأمر باحضار الفقير اليه.

وعندما أحضروه قال له الخان:

– يقال انك تدعى بأنك أبو فراس. أريد أن أتأكد من ذلك. فلتجد قبل مطلع الفجر تلك السبيكة التي سرقت مني، وسوف أعطيك فوق المكافاة الموعودة قافلة من الجمال. فاذا لم تنفذ ما أمرتك به فسآمر بربطك في ذيل حصان مسعور واطلاقه في السهوب.

فأدرك الفقير أن أخويه مكرا به، فقال للخان:

– أيها الخان العظيم، مر خدمك بأن يبنوا لي كوخاً في السهوب. وسأبيت فيه وحدي وأتلو تعاويذي، وربما استطعت في الصباح أن أجد سبيكتك الذهبية.

أما بينه وبين نفسه فقد فكر: «فليبنوا لي كوخاً في السهوب، وسأحاول في منتصف الليل أن أهرب منه».

وبنوا للفقير كوخاً فاخراً وسط السهوب، واستقر فيه وحده. وما أن حل منتصف الليك حتى وضع القبعة على رأسه وبدأ يتسلل بحذر نحو الباب.

وفي هذه اللحظة كان اللص الذي سرق الذهب ماراً. وعندما رأى الكوخ الفاخر ظن أنه يستطيع أن يسرق منه شيئاً ما. وعندما هم بفتح

الباب وجده ينفتح أمامه من تلقاء نفسه، فسقط اللص على وجهه تحت قدمي الفقير. ولم يتردد الفقير فانقض عليه وأطبق على عنقه.

فهتف اللص ضارعاً:

– اراف بحالي وأطلق سراحي، وسوف أعطيك السبيكة التي سرقتها من الخان.

فقال الفقير:

– حسناً، سأطلق سراحك اذا قلت لي أين خبأت السبيكة؟

– سر من هنا في اتجاه الشرق وسترى تلا عالياً عليه حجر كبير أسود. تحت هذا الحجر تجد السبيكة مدفونة:

وأطلق الفقير سراح اللص. ولما كان الفجر قد بدأ يشرق توجه الى الخان.

وقاد الخان نحو الشرق، وتبعتهما كل حاشية الخان وحشد كبير من الخدم.

وعندما بلغوا الحجر الأسود أمر الخدم بأن يحفروا تحت الحجر.

فقال الخان للفقير.

– آه، يبدو أنك فعلا أبوفراس! سوف أستعين بك.

وكان الخان في غاية الفرح، فأمر على الفور باعطاء الفقير ألف خروف ومائة فرس حلوب وقافلة جمال، وسمح له بالعودة الى بيته.

وبعد ذلك بفترة قصيرة سرق نفس اللص من الخان حصانه الحبيب، حتى أن الخان مرض من شدة الحزن. واستدعى اليه الفقير ثانية وقال له:

– اذا كنت أبا فراس فلتخبرني أين حصاني، وسوف أكافئك ضعف ماكافأتك في المرة السابقة. فاذا لم تخبرني أو لم تعرف أين هو فسآمر بقطع رأسك.

تثلجت أطراف الفقير رعباً، ولكنه لم يجرؤ على معارضة الخان. ورجا أن يبنوا له كوخاً في السهوب، فأجابه الخان الى طلبه.

وحينما أصبح وحده راح يفكر كيف ينجو من الموت. وهكذا ظل جالساً في الكوخ حتى منتصف الليل، ثم تسلل منه خفية وانطلق في السهوب على غير هدى.

وبلغ شعباً نائياً بين جبلين عاليين، فارتمى تحت شجرة وغاب في نوم عميق.

وتصادف أن ذلك اللص وصل الى هذا الشعب على ظهر حصان الخان. وتفقد المكان فقرر أنه في مأمن هنا، وعزم أن يبقى حتى الصباح.

وربط الحصان الى شجرة، ودون أن يلحظ أن رجلا ينام تحتها، تمدد هو أيضاً، وسرعان ما علا شخيره.

واستيقظ الفقير من هذا الشخير الرهيب دون أن يدري من أين ينبعث. وأخيراً رأى بجواره شخصاً ينام، وحصاناً مربوطاً الى الشجرة. وأدرك أن هذا الشخص هو اللص، وأن الحصان هو حصان الخان. ودق قلبه من الفرحة والخوف.

ونهض الفقير بحزر، وفك رباط الحصان، وبقفزة واحدة امتطى ظهره، وصاح منطلقاً الى خيمة الخان.

وعندما سمع الخان في الفجر وقع حوافر حصان، هرول خارجاً من خيمته بملابس النوم، وحينما رأى حصانه الحبيب لم يصدق عينيه. ومما اقترب من الحصان فصهل، تأكد أنه حصانه. وعلى الفور أمر الخان بأن يعطوا للفقير كل ما وعده به، ودعاه الى شرب كوب من «الكوميس» احتفاء به.

وفرش الخدم للخان الوسائد الحريرية، وقدموا له أجود أنواع «الكوميس» في قدح ذهبية. أما الفقير فجلس على الأرض قريباً من الخان، وصب له الخدم في قدح خشبية «كوميسا» مخلوطاً بحليب الغنم.

وعندما كان الخان على وشك الفراغ من شرب «الكوميس» قفز جندب الى قدحه. وأراد الخان أن يمسك به، لكن الجندب قفز من تحت أصابعه الى الأرض. وأراد الخان أن يسحقه بكفه، ولكن الجندب قفز ثانية الى القدح. وهنا تمكن الخان من الامساك به، وأطبق عليه قبضته.

ولم يلاحظ الفقير شيئاً من ذلك.

فقال له الخان:

– يا أبا فراس، أريد أن اختبرك لآخر مرة. قل، ماذا في قبضتي؟

ففكر الفقير: «ها قد وقعت! لن يرحمني الخان الآن». وزفر زفرة ثقيلة وقال بصوت مسموع:

– نجوت مرة، ونجوت مرة، وهاقد جاءك الموت في ثالث مرة.

وظن الخان أنه يقصد الجندب فقال:

– تخمينك صحيح، شاطر!

وفصل رأس الجندب عن جسده.

وظل مدة طويلة يضحك من اجابة الفقير، ثم أغدق عليه الهبات الغالية، وسمح له بالعودة الى داره.

ومنذ ذلك اليوم تخلص الفقير الى الأبد من الفقر، أما أخواه الثريان. فعندما علما بالنعمة التي حلت به، لم يتحملا الحزن، فماتا في يوم واحد.

الخير والشر

في سالف الأزمان عاش رجلان، أحدهما كان يدعى جاكصيليك، والثاني جامنديك*.

وذات مرة سافر جامنديك في رحلة بعيدة. وبعد أن سار طويلا أدركه التعب. واذ بفارس يلحق به. ولم يكن هذا الفارس سوى جاكصيليك نفسه. واتضح أنهما يقصدان نفس الوجهة.

فقال جامنديك:

– اركبني معك، فحصانك جيد، وسيقوى على حملنا. كما أن السفر معاً سيسلينا.

فأجاب جاكصيليك:

– حسناً، أنا موافق، ولكن بشرط أن نركب بالتناوب. أترى تلك الأشجار؟ هناك تنزل من على الحصان وتسير على قدميك واركب أنا. وبعد يأتي دورك في الركوب. فالحصان، كما تعلم، لن يقوى على حملنا معاً.

ووافق جامنديك، فاعتلى صهوة الحصان وانطلق به.

أما جاكصيليك فسار طويلا. وها هو النهار على وشك أن ينتهي، وحفت الغابة بالطريق من الجانبين، بينما لا أثر لجامنديك ولا للحصان.

واذن فقد خدع جامنديك صديقه.

وهذا ماكان بالفعل. فعندما اختفى جامنديك عن الأنظار مضى بالحصان الى حيث كان يقصد، غير عابىء بشيء. أما جاكصيليك المتسامح فقد قال لنفسه: «لا بأس، الحصان الشبعان يملك ثماني سيقان».

---

* جاكصيليك تعني الخير وجامنديك تعني الشر – **المعرب.**

ووجد في الغابة كوخاً مهجوراً، فدخل ليرتاح.

كان السكون يشمل الكوخ، ولا أثر لحي. بيد أنه كان في وسط الكوخ قدر موضوع على نار مشتعلة، وفي القدر لحم يحمر. ودهش جاكصيليك: «يالها من رائحة لذيذة تملأ الكوخ، فأين صاحب الدار؟ ترى من يسكن هنا؟». وقال جاكصيليك:

— فلأذق هذا الطبيخ.

وغمس اصبعه في القدر ثم لعقه، وفكر: «غداء جيد!» ولكنه لم يأكل، اذ لم يرد أن يغضب صاحب الدار.

واختار مكاناً مريحاً فوق السطح واستلقى هناك...

وبعد فترة دخل الكوخ ثلاثة: ذئب وثعلب وأسد. وكانت عينا الذئب الجائع تبرقان كمصباحين، وكان الأسد يهز عرفه الكث ويزأر بغضب، أما الثعلب فكان يسير وكأنه يسبح، ويشمشم بأنفه.

وفجأة قال الثعلب بقلق حتى قبل أن يبلغ القدر:

— أوهم أوه، هناك أحدما ذاق طعامنا!

— ماذا تقول ياتعلب، من ذا الذي يجرؤ على الدخول هنا وأكل طعامنا. لقد تراءى لك.

وهدأ الثعلب. وجلس الثلاثة حول القدر وبدأوا يتناولون طعامهم.

وبعد الغداء راح الثلاثة يحكون عن مغامراتهم هذا اليوم.

وسأل الذئب والأسد الثعلب:

— أين كنت اليوم، وماذا رأيت، واى شي ء طريفً سمعت؟

فقال الثعلب القليل الكلام:

— طوال هذه الأيام كنت أذهب الى اطلال كوخ قديم. فهناك جرة مدفونة، مليئة بالفضة. وأنا أحرسها من أجل طيب.

وأراد الذئب أن يتحدث عن أعماله الطيبة، لكن الشجاعة لم تواته. فقال:

— لم يمر نهار أو ليلة دون أن أزور قطعان غنم البيك. هناك شاة مبرقشة رائعة. ولكني لا أقربها. فلدى صاحب القطعان ابنة حسناء. ولكنها مريضة منذ عدة سنوات، ولا يستطيع علاجها. وقد وعد أبوها أن يزوجها بمن يشفيها، ولكن لم يستطع أحد أن يجد العلاج الشافي. غير أن العلاج موجود. فلو أخذ أحد قلب تلك الشاة المبرقشة وسلقه وأطعمه الفتاة، فستشفى على الفور. ولكني غاضب من البيك، فقد طاردني أكثر من مرة، ولذلك فلن أخبر أحداً بأمر الشاة.

أما الأسد فقال:

– كل ليلة أتسلل الى قطيع خيول البيك، وأفترس حصاناً وأحمله بعيداً فآكله، ثم أعود الى البيت. ولا يعرف صاحب القطيع من الذي يسرق الخيول. ومنذ أيام جمع أهل القرية، وتحدث اليهم طويلا، ووعد بأن يعطي القطيع كله لمن يقبض على السارق. ولكني لا أخاف، فلن يستطيع أي حصان لدى البيك أن يلحق بي. صحيح أن في القطيع مهراً صغيراً بنجمة بيضاء في جبهته. هذا المهر يسطيع أن يلحق بي. لكن البيك لا يعرف هذا.

وبعد أن شبعوا من الكلام نعسوا قليلا، ثم سرعان ما نهضوا لشؤونهم.

وكان جاكصيليك مستلقياً على السطح، يصغي بانتباه الى حديثهم، وما أن غادر الذئب والثعلب والأسد الكوخ، حتى انصرف هو أيضاً.

وارتدى جاكصيليك حلة المداوي، وتوجه الى قرية بنت البيك المريضة، وعندما رآه البيك توسل اليه:

– لقد بعث بك الله لانقاذي. أنت فقير الملابس لكنك غني العقل. تعال فاكشف على بنتي.

ووافق جاكصيليك في صمت. وعندما رأى الفتاة الحسناء سأل:

–ولماذا لم تعالجوها؟

– عالجناها يا عزيزي. لكننا لم نجد الوسيلة الناجعة لانقاذ ابنتي من الداء. فهل أجد لديك الدواء؟

فقال جاكصيليك:

– سوف أساعدك في محنتك، وسأشفي ابنتك، على أن تزوجها لي.

فوافق البيك.

فأضاف جاكصيليك:

– تذكر أن ضيفك اليوم ضيف هام، ينبغي أن تذبح له شاتك المبرقشة.

وانفض البيك وكأنما وخزته ابرة. فقد كان بخيلا وكانت الشاة المبرقشة أكبر شاة في القطيع. ولما لم يكن أمامه حل آخر، فقد أمر بذبح الشاة، والاحتفاظ بلحمها، على أن تقدم للضيف محتوياتها الداخلية فقط.

وأدرك جاكصيليك خبث البيك، لكنه لم يكن يريد الا ذلك.
وأطعم جاكصيليك ابنة البيك قلب الشاة فأشفاها، وتزوجها، ورحل بها.

ثم بحث الكوخ القديم المهدم الذي تحدث عنه الثعلب، فوجده، واستخرج الجرة المدفونة المليئة بالفضة وتوجه الى البيك الذي كان يختفي حصان من خيوله كل ليلة.

وسأله جاكصيليك:

– اذا أمسكت بذلك الذي يسرق قطيعك كل ليلة فماذا تعطيني؟

– اذا أمسكت باللص سأعطيك قطيعاً من الخيول.

– حسناً.

وذهب جاكصيليك الى القطيع فأخذ المهر الصغير ذا النجمة البيضاء في جبينه، وراح ينتظر.

وما أن أمسك الأسد بالحصان حتى قفز جاكصيليك على ظهر المهر وانطلق وراء الأسد حتى أدركه وقتله.

وفي اليوم التالي أخذ قطيع خيول وعاد الى داره.

ومر على ذلك وقت طويل ثم التقى مرة أخرى بجامنديك.

كان جامنديك أشبه بشحاذ، في ملابس رثة بالية.

وقال جامنديك عندما رأى جاكصيليك:

– أوه يا أخي، كم أسأت اليك! ولكن كل شيء انقلب خيراً عليك. قل لي كيف أصبحت غنياً؟ وهل أستطيع أن أصبح غنياً مثلك؟

فروى له جاكصيليك كل ما حدث له منذ أن افترقا، وفي نهاية الحديث قال له:

– حسناً، اذهب وجرب حظك. لكني أحذرك: عندما تدخل الكوخ كن حذراً. فاذا وجدت في القدر لحما فلا تأكل، اغمس فيه اصبعك فقط والعقه. ثم اصعد الى السقف وارقد هناك حتى يعود أهل الكوخ. وعندما يأتون ويشرعون في الحديث انتبه الى كلامهم جيداً.

لم يتردد جامنديك لحظة واحدة، فودع جاكصيليك وتوجه الى الغابة. وسرعان ما وجد الكوخ، فدخله، ووجد الحال فيه كما حدثه جاكصيليك.

كان في وسط الكوخ قدر كبير، وتحته نار مشتعلة، وفي القدر لحم يحمر. وكان جامنديك متعباً وجائعاً، ففرح اذ لم يجد أحداً في الكوخ. وقال لنفسه: «على حال سكان الكوخ بعيدون الآن، ولن يعلموا بشيء».

وجلس بجوار وأكل بضع قطع من اللحم المحمر، ثم صعد الى السقف ليرتاح.

وقبل أن ينعس بعد الغداء الدسم، دلف الذئب والثعلب الى الكوخ. ونظر الثعلب الى القدر ثم صاح:

– أوه، أوه، هناك شخص أكل غداءنا!

وراح الذئب يهدؤه:

– من ذا الذي سيأكل طعامنا! ان كوخنا في غابة كثيفة حتى اننا نجد طريقنا اليه بصعوبة. لا داعي للانزعاج.

– كلا، كلا، في هذه المرة لن أخدع! أنظر هنا، أنظر! العكوة غير موجودة في القدر، والصدر أيضاً.

ثم قال الثعلب المكار:

– حسناً، سأنام الآن، وسوف أرى في الحلم من سرقنا.

وتمدد الثعلب على غصن شجرة بتولا، وراح يشخر، كأنما هو نائم، بينما جامنديك فوق السطح بين الحياة والموت، وهو لا يدري كيف يتصرف. وراح يسب نفسه لأكله اللحم.

واستيقظ الثعلب وقال للذئب:

– هناك شخص على سطحنا يا صديقي. أليس هو الذي أكل غداءنا؟

وانقض الذئب والثعلب على السطح فوجدا جامنديك هناك. فأنزلاه من السقف واقتسماه فيما بينهما.

الغني والفقير

العصفور الأزرق

في سالف العصر والاوان عاش شقيقان. كان الأصغر فيهما بلا أولاد، وكانت له تجارة رائجة، وعاش غنياً. أما الأكبر فكان فقيراً، وكانت سلواه الوحيدة ابناء حسن وحسين.

وعند ما يحل الصيف، وتبدأ الثمار البرية في النضج، كان حسن وحسين ويمضيان لجمعها، وكانت أمهما تحملها الى السوق حيث تبيعها. وكان هذا هو مصدر دخل الأسرة.

وذات يوم، وفي ساعة القيلولة، عندما سكن كل شيء في الطبيعة، وأصبح الظل قصيراً للغاية، وغشيت الأبصار من شدة سطوع الضوء، سار حسن وحسين بين الخمائل على شاطىء نهر. وفجأة طار من تحت أقدامهما مباشرة عصفور أزرق نادر الجمال. وقبل أن يتملى الصبيان جماله كان العصفور قد حلق عالياً في السماء ثم سرعان ما غاب عن الأنظار. وعندئذ أخذ حسن وحسين يبحثان عن عشه، وسرعانما عثرا عليه. وجدا في العش بيضاً أبيض بخطوط زرقاء. وكان الصبيان جائعين ففرحا جداً بالبيض. ولكن البيض كان صغيراً جداً، ففكر حسن وحسين: «لن نستفيد شيئاً اذا اكلنا البيض. الأفضل أن نذهب به الى عمنا الغني». وتوجها الى عمهما مباشرة وسألاه ان كان يريد أن يشتري بيضاء أبيض بخطوط زرقاء، بيض العصفور الأزرق.

فسالهما عمهما:

– من أين جئتما به؟

فأجاب الإخوان:

– في الحقل وجوناه. كنا نجمع التوت البري.

8—1700

وأخذ العم البيض منهما، ولدهشتهما أعطاهما مائة سوم* وقال:
– لو اصطدتما العصفور الأزرق نفسه فسأعطيكما مائتي سوم.
ولم يفهم حسن وحسين لماذا أراد عمهما أن يحصل على العصفور الأزرق، ولكنهما لم يفكرا في ذلك طويلا. بل أخذا شبكة، وذهبا الى المكان الذي رأيا فيه العصفور الأزرق. ووجدا العش، فوضعا فيه الشبكة، واختبآ في الخمائل.
وسرعانما جاء العصفور الأزرق. وتلفت حوله، ثم حط في العش، فوقع في الشبكة. وعز الصبيين أن يفرطا في هذا الطائر الجميل الساحر، لكنهما مع ذلك حملاه الى عمهما. ورغم بخله فقد منحهما ما وعد به (يبدو أن العصفور كان عزيزاً عليه جداً!)، أي مائتي سوم بل وسكراً وملابس. وحمل الصبيان كل ذلك الى دارهما.
ولكن سعادة الفقير لم تدم طويلا.

قلب العصفور الأزرق

لم يعرف الأب وابناء أن العم ذبح العصفور الأزرق وأعطاه لزوجته وقال لها:
– سآتي في المساء، فاطبخي هذا العصفور للعشاء. واياك أن تعطى منه أية قطعة لأحد! مفهوم؟
وفكرت الزوجة: «أي عشاء يمكن تحضيره من هذا العصفور اذا كان زوجها يلتهم خروفاً كاملا في الأكلة؟» ولكنها لم تعارض زوجها بكلمة، ونتفت ريش العصفور، وقطعته قطعاً ألقت بها في القدر، وغطتها بالماء ووضعت القدر على النار، وذهبت الى جارتها وانشغلت بالحديث معها.
وفي تلك الأثناء قرر الاخوان، وقد استبد بهما الشوق الى معرفة أمر العصفور الأزرق، أن يذهبا الى بيت عمهما. وعندما دخلاه وجداه خالياً، وفي وسط الغرفة قدر يغلي ويتصاعد منه بخار كثيف.
فقال حسن بدهشة:
– أصحيح أنهم يطهون عصفورنا؟
فأجاب حسين وهو لا يقل عنه دهشة:
– ربما كان هو بالفعل.

---

* سوم: وحدة نقدية قازاخية – **الناشر.**

واقتربا من القدر، وكشفا غطاءه، فرأيا فيه العصفور الأزرق.
فاقترح حسن:
– هيا نذق لحم العصفور الأزرق.
فوافق حسين.
وغرفا بالملعقة قلب العصفور، واقتسماه، وأكلاه ثم انصرفا.
وجاءت الزوجة واستخرجت اللحم فذهلت: لقد اختفى قلب العصفور! «آه، سيعاقبني زوجي!» وراحت تلعن نفسها لأنها انهمكت في الحديث مع جارتها ونسيت العشاء.
ولكي تنقذ نفسها خرجت الى الفناء وأمسكت بديك وذبحته، واستخرجت قلبه وألقت به في القدر، فاطمأنت.
وجاء زوجها في المساء. وكان العشاء لذيذاً جداً.
وغمز لها زوجها بعينه وهو يأكل، وقال لها مبتسماً:
– لقد أسعدنا الله يا زوجتي. عندما سنستيقظ غداً سنجد ذهباً تحت الوسادة.
فلم تجب زوجته بشيء.
وفي الصباح نهضا، فنظرا تحت الوسادة، فلم يجدا هناك أي ذهب. ونفضا الفرش كله فلم يجدا للذهب اثراً.

في الغابة

كانت دهشة حسن وحسين شديدة عندما استيقظا في الصباح فوجد كل منهما تحت وسادته كيس ذهب. ولم تقل دهشة الوالدين عن دهشتهما. ولما لم يكن والد الصبيين قد رأى ذهباً في حياته، وبهذه الكثرة، فقد تملكه الخوف، وجرى الى أخيه ليستشيره:
– قل يا أخي ما هذا الذي حدث؟ لقد وجدنا في الصباح كيسي ذهب تحت وسادتي الولدين. فهل هذا خير أم سوء
توقدت عينا التاجر من الحسد. ولكنه قطب حاجبيه، وخفض رأسه وقال بلهجة منذرة:
– حالك سيىء يا أخي. هذا من عمل الأرواح الشريرة. لقد تحدثت مع شيخنا ذات يوم فقال لي: «الأرواح الشريرة تفسد البشر، ولابد من أن يتخلص المرء منها». خذ ولديك الى مكان بعيد واقتلهما، والا فلن يصيبك منهما الا السوء. أما الذهب فهاته.

وعاد الأب حزيناً. وفكر طويلا ثم قال: «كلا، لن أقتل ولدي. سآخذهما بعيداً الى السهوب أو الى الغابة وأتركهما هناك بعيداً عن سمعي وبصري».

وفي الصباح استعار من جاره عربة، ووضع الولدين فيها وقال لهما:

– سأحملكما الى مكان فيه كثير من الثمار. وسآتي في المساء لأخذكما، وعليكما أن تجمعا جوالا من التوت البري.

وساروا طويلا في السهوب حتى بلغوا مشارق غابة كثيفة، وبين أشجارها حمائل كثة، ورأى الصبيان هناك كثيراً من الثمار.

وقال الأب:

– حسناً يا أولاد. سأتركما هنا لتجمعا الثمار.

ولم يستطع أن يقول أكثر من ذلك، واستدار وعاد وهو يبكي. وعندما عاد أعطى الذهب لأخيه، وبذلك تخلص من الأرواح الشريرة.

وظل حسن وحسين يجمعان الثمار طويلا، فجمعا جوالا كاملا. ثم جلسا يستريحان في انتظار أبيهما. ولكن الأب لم يأت، فاضطرا الى المبيت في الغابة. وعندما استيقظا في الصباح وجدا تحت رأسيهما كيسين آخرين من الذهب. فلم يمسه الاخوان، وسارا في الغابة غير هدى. وفي الطريق قابلهما عجوز صياد راكباً حصانه. فحياه الصبيان معاً:

– مرحباً.

– مرحباً يا أولاد. من أين والى أين تسيران؟

– من أين لا نعرف، فالغابة كبيرة، ولكننا نسير حتى أول شخص يقابلنا. فاذا لم يكن بنات فسنكون بنتيه، واذا لم يكن لديه أولاد فسنكون ولديه.

– ليس لدي أبناء، كونا ولدي. تأتيان معي؟

فوافق الاخوان.

وأجلس الصياد الاخوين على الحصان وقال لهما:

– امضيا، فالحصان يعرف الطريق الى داري.

فشكره الاخوان وقالا له:

– ياجدي، هناك كيساً ذهب تجدهما حيث كنا نرقد.

... وعاش حسن وحسين طويلا عند العجوز الصياد، وألفا حياة الغابة، وتعلما الرماية، وأصبحا صيادين ماهرين جسورين. وأصبح الصياد، الذي كان فقيراً، من أغنى أهل المنطقة.

وعندما كبر الاخوان انقطع ظهور الذهب تحت وسادتيهما. وذات يوم تحادثا طويلا وتذكرا حياتهما كلها. وقال حسن:

– هل تعرف يا حسين المثل القديم: «مهما دار الكلب فسيعود الى حيث وجد العظمة، أما الانسان فيحن دائماً الى مسقط رأسه». هيا يا حسين نبحث عن والدينا.

فأجاب حسين:

– أفكار أخي هي أفكاري، والى حيث تذهب أنت أذهب أنا. هيا بنا.

وذهبا الى العجوز وقال:

– بامكاني أن أعطيكما قطيعاً من الماشية هدية، لكني أرى انكما لستما بحاجة اليه. أتمنى لكما حظاً سعيداً.

وأعطى لكل منهما حصاناً أصيلا، ورحلا.

الثعبان ذو الرؤوس السبعة

سار الأخوان شهراً حتى وصلا الى مفرق طريق.

فقال حسن:

– هنا يتفرع طريقنا، فلتمض أنت يميناً، وسأمضي أنا يساراً.

فأجاب حسين:

– فليكن كذلك. وأينما كنا، فلنتقابل هنا في طريق العودة.

وغرزا عند مفرق الطريق سكيناً بمقبض خشبي.

وقال حسن:

– هذه السكين ستدل على ما اذا بقينا أحياء أم متنا. فاذا مات أحدنا فسيحترق نصف المقبض المواجه لطريقه.

وودع الاخوان بعضهما بعضاً، وسار كل في طريق.

فلندع حسين في حاله، فسوف نحكي الآن عن حسن.

عندما عبر حسن عدة غابات وخرج الى السهوب المكشوفة، رأى أمامه مدينة كبيرة.

وكلما اقترب من المدينة ازدادت دهشته، فقد انتشرت الرايات السوداء، واتشحت البيوت بقطع كبيرة من القماش الأسود.

وسأل حسن أول شخص قابله:

– لماذا أعلنت مدينتكم الحداد؟

فقال الشخص:

– واضح يابني أنك لست من أهل المدينة. حسناً، فلتعلم انه قد ظهر لدينا ثعبان شره بسبعة رؤوس. وهو يلتهم يوم فتاة وارنباً. واليوم

جاء دور ابنة الخان ليأكلها الثعبان. وقد أعلن الخان أن من يقتل الثعبان وينقذ هانشايم فسوف يزوجها له. غير أنه لم يظهر في المدينة مثل هذا الشجاع، فأمر الخان برفع الرايات السوداء في كل مكان.

فتوجه حسن الى الخان مباشرة، فلم يجده في البيت، ووجد في احدى الغرف أرنباً مقيداً وفتاة رائعة الجمال. كانت جدائلها كالحرير الأوزبكي ونظرات عينيها تعش الأبصار كأشعة الشمس، وعندما رأت هانشايم حسن انتفضت. فقال حسن يطمئنها:

– لا تخافي. سوف أنقذك من الثعبان. فبم تكافئينني؟

– اذا أنقذتني فسوف أتزوجك.

ففكر حسن قليلا ثم قال:

– لقد جئت من مكان بعيد، وأنا مرهق. سأرقد لأستريح، وعندما يأتي الثعبان ايقظيني.

وغاب حسن في نوم عميق، وفجأة ترددت جلبة وهدير، وفتح الباب على مصراعيه. وتسمرت هانشايم من الرعب عندما رأت على عتبة الباب رأساً، ثم ثانياً، فثالثاً...

بينما كان حسن في نوم عميق. ولم توقظه حتى صرخات الرعب التي أطلقتها الفتاة. واقترب الثعبان، وانحنت هانشايم فوق حسن وبكت بمرارة. وسقطت دموعها الحارة الكبيرة على وجه حسن فأيقظته.

ورأى حسن الثعبان أمامه، فاستل سيفه الثقيل ولوح به فأطار برؤوس الثعبان السبعة مرة واحدة.

ونزعت هانشايم خاتمها من اصبعها وأعطته له، وخرج بعدها من القصر.

وفي تلك الاثناء دخل وزير الخان. وعندما رأى الفتاة حية والثعبان مقتولا دهش الوزير، ولكنه أدرك الفرصة قد سنحت ليعلو شأنه في نظر الخان. واختبأ عن عيني الفتاة، ثم أسرع الى الخان يزف اليه النبأ السار وغير المتوقع.

قال الوزير:

– لقد قتلت الثعبان بيدي وأنقذت هانشايم. فلتف بوعدك يامولاي وزوجني من هانشايم.

فقال الخان:

– فليكن كذلك.

وأمر الخان برفع الرايات البيضاء وتزيين البيوت بقطع القماش

الأبيض لكي يعرف الأهالي أن الثعبان قد قتل وأن ابنة الخان قد نجت. ثم دعا الخان جميع شيوخ المساجد ليشهدوا حفل زفاف ابنته الى الوزير.

وسمع حسن كيف راح الوزير يتفاخر بانتصاره على الثعبان، فقال حسن مشيراً الى الوزير:

– انه كذاب جبان! بم يثبت صحة ما يقول؟ أنا الذي قتلت الثعبان وليس هو!

والتفت الجميع نحو حسن وراحوا يتأملونه.

وقال الوزير بتعال:

– وبم تثبت أنت؟

– ان لدي اثباتاً... – وأخرج حسن من جيبه خاتم ابنة الخان وعرضه على المجتمعين.

فصاح الوزير بغيظ:

– لقد سرق هذا الخاتم من هانشايم!

فقال حسن:

– اذا كنت أنت الذي قتلت الثعبان فبوسعك أن ترفعه وتلقي به خارج القصر.

وحاول الوزير كثيراً فلم يستطع حتى أن يحرك الثعبان من موضعه. أما حسن فرفعه بسهولة وألقى به من النافذة الى النهر. وهنا دخلت هانشايم التي استدعاها الخان ورأت حسن فقالت:

– هذا الشاب هو الذي أنقذني، وأنا التي أعطيته الخاتم.

فطرد الخان الوزير وزوج ابنته من حسن وقربه اليه.

وبعد فترة مل حسن من العيش في قصر الخان، وأخذ يكثر من الخروج في رحلات الصيد. وذات يوم حار كان راكباً حصانه على شاطىء نهر. وبقربه ركض كلب الصيد. وقطع حسن لنفسه عصى طرية وأخذ يسوق بها الحصان. وفجأة هبت الريح وبرد الجو وهطل الثلج. وبحث حسن عن مكان يحتمي فيه من الريح والثلج ويتدفأ، فرأى شجرة شوح وحيدة عالية. كانت مغطاة بالثلج الناعم فأصبحت تشبه الخيمة الكبيرة. ووضع حسن الحصان والكلب تحتها، وكسر بعض الأعواد وأشعل النار وراح يتدفأ. واذ به يرى بين الأغصان عجوزاً. كانت جالسة تبكي بمسكنة، فكان عويلها يشبه عويل العاصفة.

فسألها حسن:

– لماذا تبكين؟ هل بردت؟ انزلي وتعالي الى النار لتتدفئي.

فقالت العجوز:

– كان بودي لو أنزل يابني، لكني أخاف الكلب. أعطني عصاك.
وأعطاها حسن عصاه التي لم يكن يعرف قوتها السحرية فلوحت بها العجوز فوق الحصان والكلب وحسن، فتحول الثلاثة الى ثلاثة أحجار تحت الشجرة.

حسين يبحث عن أخيه

فلنعد الآن الى حسين. فبعد أن افترق عن أخيه سرعانما أصبح خاناً في مدينة كبيرة. وفي اليوم الذي لم يعد فيه حسن على قيد الحياة تملك الحزن قلب حسين، فقرر أن يمضي للبحث عن أخيه. وجهز حصانه وانطلق حتى وصل الى مفرق الطرق الذى افترقا عنده. كانت السكين ماتزال هناك، ولكن نصف مقبضها المواجه لطريق حسين كان سليماً، أما الفصت الآخر فكان محترقاً. فأدرك حسين أن أخاه مات فبكاه كثيراً ثم قال لنفسه: «سأبحث عنه حتى أعثر ولو على جسده».

ووصل حسين الى المدينة التي كان يعيش فيها حسن. واستقبلوه هناك بحفاوة وأوصلوه الى القصر. وهناك قابل حسين امرأة شابة وعرف أنها كانت زوجة أخيه المفقود.

وكان الوزير قد عاد الى قصر الخان بعد اختفاء حسن. وأقام احتفالا كبيراً بمناسبة مجيء حسين، فأثار ذلك شكوك حسين، وفكر: «يبدو أن في الأمر شيئاً. ترى الم يقع أخي المسكين ضحية لهذا الوزير؟» وظل طوال الليل يفكر في ذلك. وعندما علم في الصباح من هانشايم أن أخاه فقد أثنا الصيد، مضى للبحث عنه.

وكما حدث لحسن فقد داهمت العاصفة الثلجية حسيناً. وأوى الى نفس الشجرة "تي احتمى بها أخوه وعندما أشعل النار رأى العجوز بين الأغصان فأشفق عليها كما أشفق عليها أخوه من قبل. وقال لها:

– انزلي ياجدتي من الشجرة وتعالي الى الدفء.

فقالت العجوز:

– كان بودي لو نزلت يابني، ولكني أخاف الكلب. انتظر حتى ألوح له بالعصا.

ونظر حسين الى العجوز وأحس بشيء يخزه في قلبه. فلم يسمح لها بالتلويح بالعصى السحرية، ونهض من على الحجر الذي كان يجلس عليه وصوب البندقية الى العجوز وقال لها:

– هيا انزلي والا أطلقت عليك النار!
فنزلت العجوز وهي ترتجف من الفزع.
– يبدو لي تعرفين أين أخي. قولي والا قتلتك.
فقالت العجوز:
– الحجر الذي تجلس عليه هو أخوك. لقد أمرني الوزير أن استدرجه الى هنا وأقتله. ارحمني وسوف أعيد اليك أخاك. خذ العصى المخبأة بين غصون الشجرة ولوح بها فوقه.
وفعل حسين كما قالت فقول الحجر الذي كان يجلس عليه وأصبح حسناً. ومن الصعب وصف الفرحة التي ألمت بالشقيقين عندما التقيا بعد طول فراق.

العودة الى الأهل

بقي حسين طويلا في ضيافة حسن، ثم قال له ذات مرة.
– سأذكرك الآن ياحسن بالمثل الذي قلته لي عندما كنا عند الصياد العجوز: «الكلب يبحث عن المكان الذي كان شبعان فيه والانسان يبحث عن سقط رأسه». الا تعتقد أنه قد حان الوقت لكي نبحث عن والدينا؟
– رغم أنك حرفت المثل فانني موافق. اذا كنا نريد أن نجد والدينا على قيد الحياة فلاينبغي أن نؤجل البحث أكثر من ذلك.
وفعل الأخوان كما قررا. ورحلا مع أول قافلة، حتى وصلا أخيراً في يوم عيد الى ميدان السوق في مدينتهما. وهناك قابلا عمهما التاجر الغني عندما كان يسير ماراً بالحوانيت لملاقاة القافلة. ولم يتعرف العم على ابني أخيه، ولكنه عندما قالا له من هما راح يتملقهما، وينافقها، وكان على استعداد لتقبيل ايديهما.
وسأله حسن وحسين معاً:
– وأين أبونا وأمنا؟
– هنا، في المدينة. ولكن ماحاجتكما الى عجوزين لا يبصران؟ انكما غنيان بما فيه الكفاية.
وأخذ حسن وحسين يسألان الناس عن والديهما. فأشاروا لهما الى منزل قديم شبه مهدم. ولم يكن في المنزل نوافذ، ولا يمكن رؤية ما بداخله من شدة الظلام. وأشعل حسن وحسين النار فشاهدا والديهما الضريرين في أسمال قذرة بالية.

وصاح حسن وحسين:

– أبي! أمي! ماذا حدث لكما؟

وبكت الأم عندما سمعت صوت ولديها. وأشاح الأب بيديه في انفعال وفرح:

– أحقاً هناك في الدنيا أحد يبحث عني؟ أحقاً عاد ولداي، اللذان ماتا منذ زمن بعيد، ليزوراني؟

وروى لهما حسن وحسين كل ما حدث لهما. ثم سأل حسن أباه:

– لماذا تركتنا آنذاك في الغابة؟ هل حقاً أغراك الذهب؟

فبكى أبوهما وقال:

– لا تغضبا مني ياولدي. لقد قال لي عمكما انني يجب أن أعطيه الذهب وأقتلكما لأن الأرواح الشريرة تقمصتكما. وكم كان فراقكما صعباً علينا، وها أنتما تريان كيف نعيش. ولم يساعدنا عمكما الغني بشيء. ولكن أقسى عقاب لنا لا نستطيع أن نراكما.

وصمت العجوز.

وعلى الفور خرج حسن وحسين من المنزل، وذهبا الى السوق وعثرا على عمهما فأمسكا به وألقيا به في بئر عميقة.

وعندما عادا الى البيت وجدا والديهما يستقبلانهما عند الباب والفرحة لا تسعهما وهما يبصران ولديهما. ودهش الولدان في البداية، ثم أدركا أن العصى السحرية قد ساعدتهما هنا أيضاً.

حكاية عن الكسول

الشخص الشبعان، الذي لا يضطر الى تحريك يديه ليملأ بطنه، يصبح كسولا.

وما عندي من متاع يمكن أن تتسع له راحة اليد. ولو وزعت الأعباء على أبنائي لكان نصيب كل منهم من العمل تافهاً ضئيلا. ومع ذلك ففي كل مرة أقول فيها لأبنائي: «عليكم أن تفعلوا كذا وكذا اليوم» يردون علي: «مازال اليوم طويلا أمامنا» أو «سنفعل ذلك غداً». ومثل هذه الردود تذكرني بحكاية الكسول.

كان يا ما كان شخص كسول. وكان أبوه في غاية الثراء، وهو نفسه كان يملك قرية كاملة، ولم يعرف ما العوز. وكان كل شيء لديه جاهزاً. اذا أراد أن يسافر فالحصان جاهز. واذا أراد أن يأكل أو يشرب «فالبيشبرمق» و «الكوميس» بين يديه. وطوال حياته لم يكسر حتى قشة بيديه. واذا كان راقداً على جنبه الأيسر فانه يتكاسل عن التحول الى جنبه الأيمن. هكذا كان كسول الحكاية هذا.

وكانت قريته تقع في واد كبير، ولم يكن أحد يحصد الأشواك وأعواد الغاب من حول القرية.

وفجأة هب سكان القرية مذعورين عندما رأوا النار تشتعل في السهوب، واقتربت النار بسرعة من الوادي.

وهجر السكان بيوتهم وأسرعوا الى سهل أجرد. بينما ظل الكسول، مالك القرية، راقداً في خيمته البيضاء، دون أن يتحرك حتى من مكانه، فقد كان يشعر بالكسل.

فقالوا له:

– انهض يا سيد، فالناس يرحلون. لقد شب حريق كبير.
فأجابهم:
– حسناً، فليرحلوا.
فحذروه:
– ستبقى وحدك هنا يا سيد.
فأجابهم:
– حسناً، فلابق وحدي.
واستمر راقداً لا يتحرك.
ولكن واحداً حذره مرة أخرى من الحريق.
– الحريق منتشر، ينبغي أن ترحل!
– فلينتشر، وماذا في ذلك!
ورحل اهل القرية الى السهل وهم مذهولون من سلوك سيدهم، واعتبروه جد جميع الكسالى.
وقالوا:
– عندما تدركه النار وهو في الفراش، فربما يدب فيه النشاط بسبب الخوف. فلنتركه.
واشتعلت البيوت والعربات وحظائر الماشية، بينما ظل الكسول راقداً في الخيمة.
وعندما هدأت النيران توجه بعض الفرسان الى مكان القرية القديم. وهناك وجدوا وسط كوم الرماد وبقايا بساط أبيض محترق جثة سيدهم المحترقة.

تيبين كوك

في سالف الأزمان عاش بيك بخيل في احدى القرى. وكان لديه ثلاثة أبناء كبار. ولكن لم يكن اي منهم متزوجاً.

وكان البيك يبرر عدم تزويجهم قائلا لأهل قريته:

– زواج الابناء سيفلسني تماماً. فكل عروس بحاجة الى مهر كبير، وانا لا أستطيع أن أفعل ذلك. وكل من يحرص على ثروته لابد أن يفعل مثلي.

وذات يوم اجتمع الاخوة معاً وراحوا يتحدثون عن أحوالهم وحظهم السيىء. فقال الأخ الأكبر والأوسط لأخيهما الأصغر:

– نحن جميعاً مصيرنا واحد. أبناء الأغنياء الآخرين يتزوجون، ولكل منهم أسرته وممتلكاته، أما نحن فمازلنا عزاباً. والسكوت لن يجدي شيئاً مع بخل والدنا. ولكنه يحبك، أنت الصغير، أكثر الكل، وعلى الأرجح كلامك. اذهب اليه وأخبره برغبتنا.

وهذا ما فعله الأخ الأصغر. وأصغى اليه أبوه ثم قال:

– عندما يأتي الخريف، وتكبر الأمهار في القطعان وتكف عن الرضاعة، فسأنفذ رغبتكم.

وحل الربيع، وكبرت الأمهار وكفت عن رضع لبن أمهاتها. فعاد الأخ الأصغر الى أبيه يذكره بوعده فقال الأب:

– عندما ينقضي الشتاء البارد، ويحل الدفء محل البرد، سأزوجكم.

ولكن الشتاء جاء قاسياً. ولم تنقطع الرياح القارسة ولا العواصف الثلجية. وبدأت الماشية تضعف من شدة البرد وقلة العلف. وقبل أن يحل الدفء نفقت ماشية البيك كلها.

ولم يتمكن الاخوة الا من انقاذ مهر واحد. كانوا يحرمون أنفسهم من الطعام، ويخفون قطع الخبز عن أبيهم، ويحملونها الى مهر الحبيب.

ومات البيك أيضاً من الجوع بعد أن فقد كل ثروته. وأصبح الاخوة فقراء. ولم يكفهم ما تركه أبوهم الا لعام واحد.

وكاف الاخوة بالقرى شحاذين، وعانوا كثيراً من الأحزان والمصائب.

وفي تلك الأثناء كبر المهر، لونه أبيض تماماً. وكان شعره يلمع في الشمس كالفضة، أما عرفه فكان ناعماً حريرياً.

وذات مرة قال الأخ الأصغر لأخويه:

– اعطوني هذا المهر. سوف أطوف به القرى وأجمع الخبز والنقود، ثم نقتسمها معاً.

ووافق أخواه. وظل الأخ الأصغر يطعمهما طوال الشتاء والصيف.

وذات يوم تقرر احدى القرى اقامة مباراة سباق وتجمع للاشتراك فيها خمسون جواداً من أفضل الجياد.

وتصادف مرور الأخ الأصغر على مهره الأبيض بجوار القرية. وعندما رأى أناساً كثيرين متجمعين في السهوب أدرك أن هناك سباقاً. فقال في نفسه: «ولماذا لا أشترك في السباق؟». ولحق بكلب صيد وقرر أن يجرب مهره في السرعة بالتبارى مع الكلب.

وهز اللجام فانطلق الحصان خبباً. وجرى الكلب خلفه دون أن يتخلف عنه.

ولكن بعد فترة تخلف الكلب عن الحصان. والتصق الفارس بعرف الحصان الكثيف، ومن حين الى حين كان يتطلع الى الخلف. فرقص قلبه فرحاً. فقد كان المهر ينطلق في الصحراء وكأنه يسبح محلقاً. وتخلف الصيد كثيراً.

وعندما عاد الأخ الأصغر الى البيت قال:

– ان ركض مهرنا يشبه السهم المنفلت من قوس. لقد لحقت بكلب صيد في السهوب، وسرعان ما سبقه مهرنا. وأعتقد أن مهرنا يستطيع ان يسابق أية خيول أصيلة.

واقترح على اخويه أن يشتركوا في السباق، فوافقا.

واستراح المهر خلال الليل، وفي الصباح توجه الاخوة جميعاً الى مكان السباق.

كان حصانا الخان برك أفضل الخيول في السباق، وكانا يشاركان دائماً في جميع المسابقات، ولم يكن في وسع حصان آخر أن يفوقهما. وكان الاخوة يعلمون ذلك، ولكنهم أرادوا أن يجربوا حظهم.

وكم كان حزنهم شديداً عندما وصلوا الى مكان السباق فاذا بمهرهم يعرج على احدى قوائمه.

وتشاور الاخوة كثيراً، ولكنهم قرروا ألا يتراجعوا عن قرارهم.

وبدأ السباق.

أجلس كل مشترك ابنه على ظهر حصانه، ولما لم يكن الاخوة متزوجين وليس لديهم أولاد، فقد اجلسوا على مهرهم صبياً فقيراً كانوا يسمونه في القرية تازشا بالا*.

وأطلق أبناء البكوات على جيادهم الأصيلة الى وادي قره – قوي حيث يبدأ السباق من هناك.

ومضى تازشا بالا معهم.

وظل أبناء البكوات طوال الطريق يسخرون ويضحكون من الصبي الفقير، ويدفعونه ليسقط من على الحصان، ويقرصونه في ذراعيه، ويطيحون بطاقيته. وطفرت الدموع من عيني الصبي، ولكنه تذرع بالصبر الى حين.

وعندما وصلوا الى قره – قوي اصطفوا جميعاً صفاً واحداً، أما تازشا بالا فقد أوقفوه خلفهم.

وبدأ السباق.

وفي البداية تخلفّ تازشابالا. ولكن سرعان ما انطلق المهر أسرع من رياح الأعاصير.

ولحق تازشابالا بأول فارس فانتزع طاقيته ووضعها في صدره. وهكذا فعل مع بقية المتسابقين حتى سبقهم جميعاً. وتخلف حصانا البيك أيضاً.

وأوشك السباق على النهاية.

وذهل الناس عندما رأوا تازشا بالا في المقدمة على المهر الأبيض.

وكان على المتسابقين أن يهتفوا بأسماء آبائهم عندما يقتربون من القرية. فلم يدر الصبي المسكين ماذا يفعل. ومضى يفكر: «ها هو السباق يوشك على النهاية، فهل أهتف باسم أصحاب المهر أم باسم أبي؟».

وبعد أن فكر قليلا هتف وهو يضحك فرحاً:

– تيبين كوك! تيبين كوك*!

---

* تعني هنا: الولد الشقي – **الناشر.**

وكان الخان برك يتابع السباق بقلق، ويتوقع أن يفوز حصاناه. وكم كانت دهشته شديدة عندما رأى المهر الأبيض في مقدمة الجميع.

فقال مخاطباً الجمع:

– ألست مخطئاً؟ أصحيح أن هذا المهر الأبيض الحقير يسبق الجميع؟

فأجابه الجمع:

– صحيح! انه أفضل الجياد.

عندئذ قال البيك وهو في قمة الغضب والهياج:

– هذا الغلام الحقير تسلل الى السباق أثناء الطريق. نحن لم نشرك المهر في السباق! ابعدوه فوراً!

وأسرع خدم البيك الى تنفيذ أوامره، وهبوا للامساك بالمهر. ولكن هيهات! لقد تأخروا.

ولم يجرؤ أحد على استقبال الصبي المسكين، اللهم الا فتاة صغيرة مجهولة تقدمت منه وأمسكت بلجام الحصان وساعدت الصبي على النزول.

وصاح الخان برك بسخط:

– هذا الحصان لا يحسب من المتسابقين! لقد تسلل أثناء الطريق.

فصعد الصبي الى ربوة بيضاء وصاح:

– لقد اشتركت في السباق من البداية!–وفتح الصبي رداءه وأخرج طواقي جميع المتسابقين وألقى بها على الأرض، وقال:

– هاهي طواقي جميع المتسابقين. هل عرفتموها؟ فمن أين جئت بها لو لم أكن مشتركاً في السباق؟ فحيث يمر الحصان القوي لا تبقى أثقال دون حمل.

فعلا هتاف الجمع محيياً الفائز.

واستدار الخان الخائب، وأهوى بالسوط على حصانيه المشهورين سابقاً، وابتعد عن الجمع.

وحصل الاخوة على أربعين حصاناً جائزة. فأعطوا عشرة جياد للصبي الذي ركب مهرهم في السباق.

وسرعان ما تزوج الاخوة بعد ذلك، وعاشوا في خير وسعادة.

اما المهر فأصبح مشهوراً بين الناس، ومن يومها والألسنة تروي حكاية «تيبين كوك» وتتناقلها من جيل الى جيل.

---

* تيبين كوك تعني: الابيض السريع – **الناشر.**

الملاعيب المضحكة

للساخر الأجرد ألدار كوسى

كيف بدأ ألدار كوسى طريقه

زعموا أنه كان فيما مضى من أيام عصر كانت الدنيا فيه تقوم على القرن الأيمن لثور رمادي، وكانت السماء لا تتجاوز فرشة السرج، والأرض لا تزيد على حافر حصان، وكانت الذئاب تأكل العشب، والقبرات تعشش على ظهور الغنم، وعندما كان ظل نجيلة واحدة يحمي من الشمس آلاف القطعان، وذيول الحيوانات والطيور تنبت لتوها، وكان الثعلب مشهوراً بالتقوى، وكان سيداً على الجميع...

وربما في ذلك العصر، وربما في عصر آخر، كان العجوز كوجير، ذو اللحية البيضاء يعيش آخر أيامه. وكان لديه ثلاثة أبناء، ثلاثة فرسان أمجاد. وذات يوم قال كوجير لأبنائه:

– ياأولادي، لقد نال مني الضعف، وآن لي أن أمضي في رحلتي الأخيرة. وأشعر أن ضميري صاف كمياه النبع، ولا أخاف الموت. ولكنني أريد أن أعرف قبل مماتي كيف تزمعون أن تعيشوا بدوني، وأية طرق ستختارونها. فكروا في الأمر وأجيبوني. واذكروا أن الرجل الطيب يترك وراءه اثراً طيباً.

فقال أكبر الأبناء:

– منذ صغري وقلبي متعلق بالأرض. ليس هناك ما هو أفضل من حرث الحقل وعزق النبات، حتى يكفي الخبز الجميع.

فباركه الأب قائلا:

– فلتكن زارعاً يا بني.

وقال الابن الأوسط:

– أما أنا فأهوى حياة الرعاة. أحب الخيل والجمال، والأغنام والأبقار والمعيز. وأكبر سعادة بالنسبة لي أن أرعى الماشية، لكي يكون لدى الناس لحم ولبن وكوميس وملابس وشعر لبناء الخيام.

فبارك كوجير ابنه قائلا:

– فلتكن راعي ماشية يا بني!

وقال الابن الأصغر:

– أما انا فأهوى الغناء والضحك واضحاك الآخرين. أية عيشة هذه التي تخلو من الأغاني والنكات والتعليقات اللاذعة! سأطوف بالدنيا كلها، وسأذهب الى أماكن لم يذهب اليها أحد، وسأظهر في القرى والمراعي والطرقات ومحطات القوافل، وفي الأسواق والاحتفالات وفي الأكواخ والقصور. سوف أخدع المخادعين وأخلص المخدوعين، سأنزل الحزن في قلوب الطغاة وأبعث المرح في نفوس المستضعفين، سأهزأ بالعاطلين وأشجع الكادحين، وبالكلمة الجريئة أسقط المتكبرين وأنهض الضعفاء. سيكرهني المئات، ولكن الآلاف سيصبحون أصدقائي. وربما ظل الناس يذكرون دوما اسمي: ألدار كوسى*.

أصغى الأب لابنه وابتسم قائلا:

– كلامك جميل يا ولدي. الله لم يهبك لحية، ولكن وهبك ذكاء حاداً، وقلباً كبيراً، وطبعاً مرحاً، ولساناً سريعاً. فلتفعل ما قررت! ولينزل اسمك الخوف والحزن في قلوب الأشرار، وليواس ويسعد الأخيار، ولينتقل من فم الى فم، ومن نسل الى نسل، ومن عصر الى عصر، ومن حكاية الى حكاية. انني أهبك بركات الوالد! فلتبدأ طريقك يا ألداركوسى.

---

* ألداركوسى تعني في القازاخية: المخادع الأجرد او الساخر الأجرد، اسم التدليل: ألداكين – **الناشر.**

كيف طرد ألدار كوسى الجني

دهن ألدار كوسى حذاءه، وشد حزامه، ورفع أطراف ردائه، ومضى في سياحة طويلة. سار نهاراً وليلة، وشهراً وعاماً. وفجأة سد طريقه جبل عال تبلغ قمته السحاب، وكأنه جمل عملاق تمدد في السهوب المقفرة.

توقف الدار كوسى وفكر، ثم قال على الفور لنفسه:

– ليس هناك مستحيل أمام الانسان. أقسى أنواع الحديد يلين تحت مطرقة الحداد. والعنيد يستطيع أن يحفر البئر ولو بابرة. كلا، لن أحيد عن الطريق، ولن أتراجع أمام المنحدر الوعر...

وقضى ليلته، وقضى شتاءه، وفي الربيع بدأ يعمل. فأخذ يحفر الصخور، ويصنع درجات، ويصعد خطوة فخطوة الى أعلى.

وجاءت اللحظة التي بلغ فيها ألدار كوسى القمة. وعندما رأى أمامه الشمس الساطعة هتف من الفرحة، وارتمى على الصخر فغاب في نوم عميق. وعندما استيقظ وجد طائر صقر الليل جاثماً على صدره، يدير رأسه وينظف ريشه. فأمسك ألدار كوسى بالطائر من جناحيه.

وقال وهو يضحك:

– هاهو صيدي الأول! لا تخش شيئاً يا صقر الليل، لن أمسك بمكروه. ولكن سيكون عليك أن تتجول معي...

وكانت مئات الأفكار تراود عقله.

وهبط ألدار كوسى الى الوادي وأخذ يتملى من جمال: السفوح الخضراء والمراعي المزهرة، وفي الأسفل يلوح جدول رقراق. وبجوار الجدول انتصبت خيمة جديدة، بيضاء، أبيض من البيضة، وفوقها تصاعد الدخان.

وفكر الدار: «أهي خيمة صديق أم عدو؟ وهل يقطنها بشر أم غيلان رهيبة؟»

اقترب من الباب في حذر، وتطلع من الشق، فرأى اثنين: رجلا وامرأة، جالسين على كليم مطرز، يشربان الكوميس، ويأكلان لحم ضأن دسماً، ويتبادلان الهمسات والغمزات.

فقال الدار لنفسه: «أوه، انني أرى وليمة، وحيث تقام الولائم يتواجد الضيوف. فلأدخل».

وعطس الدار: أتش!

ففزعت المرأة:

– آه، هذا زوجي اللعين قد عاد، اختبىء بسرعة!

وجرى الفارس الذي كان يغازلها في الخيمة مضطرباً، ثم رأى صندوقاً، فاندفع اليه في الحال وأغلق غطاءه عليه.

فهز الدار رأسه «كل شيء مفهوم» وعبر العتبة:

– مرحباً يا سيدتي! اصنعي معروفاً واسمحي لرحالة متعب بالاستراحة قرب موقدك.

ونظرت اليه المرأة بحقد وصاحت:

– الشيطان قذف بك أيها الضيف الثقيل! كم أفزعتني.

أما الدار كوسى فقد تربع في صدر المكان، ووضع ساقاً على ساق وابتسم بملء فمه.

فسألته ربة البيت بغل:

– لم تبتسم؟

وقالت في نفسها: «هذا اللئيم يفكر في شيء ما...»

فقال الدار برقة:

– ابتسم لهذا الابريق ذي الكوميس، ولذلك الطبق ذي اللحم.

– كل اذن واشرب، واغرب من هنا بسرعة!

ولكن الدار سمع «كل واشرب» أما «اغرب من هنا» فلم يسمعها، كأنما أصابه الصمم. وجلس الدار قريباً من المفرش وراح يلتهم كل ما كان موضوعاً عليه. وأكل وشرب حتى التخمة، ثم تربع على الكليم المزخرف.

وعندما رأت المرأة أن الزائر لا ينوي الرحيل، أخرجت درهماً وقالت:

– خذ هذا الدرهم أيها المتشرد، واغرب من هنا!

فشكرها الدار على هبتها، وظل يشكرها ساعة أو ربما أكثر، ثم قال:

– انني ذاهب يا سيدتي... فقد سأطعم طيري ثم أرحل.

وخلي سبيل صقر الليل ليلتقط الفتات من على المفرش. وأخذ صقر الليل يلتقط، والوقت يمر، وربة البيت تتميز غيظاً، والدار يبتسم في سخرية.

وفجأة صهل حصان بجوار الخيمة. وفتح الباب، ودخل البيك، صاحب الخيمة. وتوقف مندهشاً:

– من هذا الغريب يازوجتي؟ وما هذا الطائر؟

وقبل أن تنطق الزوجة حرفاً قال الدار:

– أيها البيك المحترم، أنا ساحر جوال وعراف. أما طائري فهو طائر متنبىء. انه يعرف جميع الأسرار، وهو يعلم الماضي ويتنبأ بالمستقبل. هل تريد أن أكشف لك الغيب وانبئك بأي مكروه يتهددك؟

فنظر البيك باستعلاء الى هذا الغريب، وتربع بجوار الموقد، حيث كان الدرا يتربع منذ قليل، وقال:

– لو كنت حقاً عرافاً لعرفت أنه ليس هناك في هذه الناحية شخص أغنى مني. عندي من الماشية كل نوع: الخيول والأبقار والجمال والغنم، بأعداد لاتحصى. ومن كان غنياً فهو قوى. فأي مكروه يتهددني؟

فقال الدار بلهجة المعلمين:

– أوه يا سيدي البيك. لا تقل أن الذئاب بعيدة، فهي تختبىء في الوادي...

فاعتدل البيك في جلسته:

– الى ماذا تلمح؟ هل تعرف شيئاً ما؟

– أعرف، ولكني لا أعرف كل شيء. الطائر المتنبىء يعرف كل شيء.

– اذا كان الطائر يعرف فليقل.

وبدأت طقوس السحر. فأخذ الدار يدور في الخيمة كالزوبعة، ممسكاً بالطائر فوق رأسه، ويصيح بكلمات غير مفهومة، وينثر الأشياء... وكان الطائر يصرخ والدار يصيح:

– تنبأ أيها الطائر السحري، تنبأ!

وحدق البيك بعينين جاحظتين مندهشاً: «لم أر أبداً مثل هؤلاء العرافين. ربما عاد هذا التنبأ بفائدة».

أما الدار كوسى فمضى يدور أسرع فأسرع، ثم تسمر متصلباً، وهمس بصوت رهيب:

– أوه يابيك، الأمر سيىء!

فامتقع البيك.

– ماذا هناك؟

– الطائر يقول: في الصندوق الأصغر ترقد مصيبة سوداء على ملاءة حريرية. وهذا يعني أن جنياً شريراً تسلل الى دارك يابيك. **لابد من طرده!**

كان البيك يرتعش رعباً، ومع ذلك أخذ يتطلع بشك الى الدار: «أليس محتالا هذا العراف؟ ربما يغرر بي مدعياً وجود الجان؟ ولكن فلننظر ماذا سيحدث».

أما جهراً فقال:

– أطرده ياعزيزي، أطرده بسرعة!

وكان الدار كوسى يعرف ما ينبغي أن يفعله. فتناول مغرفة وملأها بماء ساخن من القدر الموضوع على النار، واقترب على أطراف أصابعه من الصندوق، ورفع غطاءه، ورش الماء الساخن داخله. وفي نفس اللحظة طار غطاء الصندوق فانخلع عن مفصلاته، وقفز الفارس الملسوع بالماء الساخن قفزة واحدة فأصبح خارج الخيمة.

ارتمى البيك مغشياً عليه، واختبأت زوجته تحت البساط. أما الدار فأمسك بخصره وهو يهتز من الضحك.

ثم أفاق البيك فارتمى على الدار يعانقه:

– ألف شكر لك يا عزيزي! طردت البلوى من بيتي. لولاك لأهلكني الجني الشرير. سآكافئك على خدمتك. عندي في القطيع حصان، ليس حصاناً بل دباً. خذه لك!

وقفز الدار من الفرحة، أما البيك فصمت قليلا ثم أضاف:

– حتى لا يعود الجني ثانية – فكل شيء جائز ياأخي – بع لي طيرك المتنبيء. سأدفع لك ثمناً مجزياً.

فأشاح الدار بيديه:

– ماذا تقول، ماذا تقول يا بيك، لا تفكر حتى في هذا! بدون الطائر المتنبيء تصبح حياتي أشد سواداً من الليل!

ولم يتراجع البيك، ولم يستسلم الدار. وظلا يتجادلان حتى الليل، وأخيراً وافق الدار:

– فليكن كما تشاء، سأترك لك الطائر! ولن أخدعك اذا قلت لك انني اشتريته بأربعين حصاناً. ومازال صاحبه يبكي حتى الآن لأنه باعه بثمن بخس. ولكني لا أسعى وراء ربح. فكما اشتريته سأبيعك اياه. أربعون حصاناً مقابل الطائر المتنبيء!

وأخذت عينا البيك تطرفان وكأنما اندس فيهما اصبع:
– أوه! هذا كثير. فالحصان ليس جرادة.
– كما تشاء، فأنا لا أكرهك على الشراء. والطائر المتنبىء أيضاً ليس عصفوراً.
ووجد البيك أن لا فائدة. فقال:
– أعطيك ثلاثين حصاناً.
– هذا قليل. أربعين!
– ثلاثين!
– أربعين!
واذا تجادل ماكران فهل يتفقان بسرعة؟ ظلت الضجة مستمرة شهراً، وربما سنة، في خيمة البيك. كانا يتفقان ثم يختلفان، ويفاصلان ويتساومان ويشدان على الأيادي متعاهدين. وأخيراً استسلم البيك، فقال وهو يمسح العرق من جبينه:
– خذ أربعين جواداً والطائر لي!
وربما بسبب الفرحة، أو الحزن، وربما عن حق أو تظاهراً، أعول الدار بصوت عال، وضم الطائر اليه، وراح يودعه:
– وداعاً يا صديقي، وداعاً أيها الطائر المتنبىء! كيف سأعيش الآن بدونك؟ أين سأجد السلوى وحدي؟
وظل الدار يودع الطائر أسبوعاً، آكلا شارباً نائماً في خيمة البيك، الى أن أخبره قلبه: «البحيرة الراكدة يملؤها الطين، والحصان الذي لا يركب يسبقه المهر. وما أطول دروب الحياة ولكن العمر قصير».
عندئذ امتطى الحصان – الدب، ورفع عقيرته بالغناء، وساق أمامه قطيع الخيول الأربعين التي أخذها من البيك.
وقبيل المساء لحق بشاب مترجل فصاح يناديه:
– اسمع يافتى، لماذا تسير مترجلا؟ أين حصانك؟
فأجاب الشاب بحزن:
– لم يعد لدي حصان... لدغه عنكبوت سام... هلك الحصان.
– هكذا! حسناً، اختر لنفسك حصاناً من قطيعي. أي حصان. أهديه لك.
وفي اليوم التالي لحق الداركوسى براجل آخر، وكان رجلا متوسط العمر.
– ماذا يا عماه، أليس لديك حصان؟

– حتى الأمس كان لدي حصان طيب، أما اليوم... استولى عليه أبناء البيك في الطريق. ونجوت بجلدي...

فقال له الداركوسى:

– ألا فلتحل بهم اللعنة، هؤلاء اللصوص الذين ينهبون الفقراء. لاتحزن. خذ حصاناً من قطيعي وارحل الى حيث تشاء.

وفي اليوم الثالث لحق الداركوسى بعجوز متهالك. كان العجوز يجر ساقيه متوكئاً على عصى.

فقال له الداركوسى:

– من الصعب ياجدي أن تذرع السهوب على قدميك في آخر العمر. أليس لديك حصان؟

فأجاب العجوز.

– كنت طوال عمري أرعى خيول البيك، ولكني لم أحصل لنفسي على حصان. هكذا يابني...

فاستوقفه الداركوسى:

– مهلا ياجدي، لاتتعجل. خذ حصاناً من قطيعي. اختر منه ما يعجبك وخذه لك. لاترفض. واسمح لي أن أساعدك على الركوب...

وكلما سار الدار كوسى تناقص عدد الخيول في قطيعه. وفي اليوم الواحد والأربعين لم يبق لديه سوى الحصان الذي يمتطيه.

وهنا رأى الدار فتاة تجري في السهوب فتفزع الطيور.

– ماذا حدث؟ ممن تهربين يا حسناء؟

فأجابت الفتاة وهي تذرف الدموع:

– أهرب من الموت! أبي باعني لعجوز غني... ولكني أحب راعياً شاباً شجاعاً. وهو أيضاً يحبني... أنا أهرب اليه. فلو نجوت من المطاردة سنعيش سعداء ولو فقراء. ولو أمسكوا بي فستكون نهايتي ونهايته معاً!

فقفز الدار مترجلا عن الحصان، وابتسم برقة وقال:

– يا أختي العزيزة. من العيب أن يفكر المرء في نهاية حياته وهو لا يزال في مقتبل العمر. اركبي واركضي الى حبيبك. بهذا الحصان لن يدركك المكروه أو الموت. فعيشا في سعادة مائة عام.

واستأنف الدار كوسى سيره على قدميه. سار خفيف الخطوات، يتأمل السهوب، ويبتسم للسماء واللشمس، ويغني لنفسه الأغاني كالقبرة، ولا يفكر فيما ينتظره في المستقبل، ولا يأسف على ما مضى من أيام.

كيف خدع ألدار كوسى الشيطان

زعموا فيما زعموا أن الشيطان كان يتجول في أنحاء السهوب. وقد أنزل الكثير من الأذى بالناس. كان يحمل لهم مع كل خطوة بلوى. وكان الناس يقولون: ليس هناك من هو أقوى من الشيطان. اذا كان قد عصى الله، فكيف نقدر نحن عليه.

وكان ذلك لمصلحة الشيطان. فالمثل يقول «الجمل الوديع يسهل قص وبره». وراح الشيطان يسخر بكل من يريد أن يسخر منه، راكباً كان أم راجلا. حتى جاءه اليوم الأسود الموعود.

فمن ذا الذي غلب الشيطان؟

اسمع وستعرف.

كان الشيطان يتجول في السهوب، واذ به يرى رجلا أجرد، راقداً على شاطىء نهر صغير، على حافة الشاطىء العالية تماماً. ولم يكن يستر جسده سوى قميص وسروال، بينما قدماه حافيتان. وكان يتوسد قبضته. ولولا شخيره، الذي كانت تهتز بسببه أغصان الخمائل على شاطىء النهر، لخيل للناظر أنه ميت.

وفرك الشيطان راحتيه وقال ساخراً: «حسناً، اذا كنت حياً فستصبح الآن ميتاً».

وتسلل على أطراف أصابعه الى النائم، ودفعه من حافة الشاطىء المرتفع. وفي نفس اللحظة طوقت يدا الرجل الماهرتان رقبة الشيطان كأنشوطة خانقة، فهوى الشيطان مع الرجل في ماء النهر.

وصاح الشيطان ضارعاً:

— دعني، والا هلكنا معاً!

فقال الرجل:
– سأدعك اذا أخرجتني من الماء.
وتصارعا في الماء طويلا، وأدرك الشيطان أنه لن يستطيع الافلات من يدي ألدار القويتين. فاضطر للخضوع للانسان، وحمله الى الشاطىء.
وجلسا على الشاطىء، واستردا أنفاسهما، وجفت ملابسهما قليلا، فقال الشيطان:
– في هذه المرة أنت غلبتني، ولكن لن تغلبني بعدها. هل تريد أن نتجول معاً في هذه الدنيا، وتتبارى في المكر والحيلة؟
فقال الأجرد:
– لا مانع.
ولم يكن الشيطان يتوقع هذه الاجابة فقال:
– أحقاً تأمل في أن تتفوق علي في الدهاء؟ ألم تعرف من انا؟ أنا الشيطان. فمن أنت؟
فنظر الأجرد الى الشيطان وضحك ساخراً ثم غنى:

أنت الشيطان، وأمكر من نسناس
وأنا رجل، انسان، مثل جميع الناس
لابيك، لا ملك لاسلطان ولاشيطان
ألدار كوسى أدعى في كل مكان

وسار ألدار كوسى والشيطان في السهوب. وعبرا ستة وديان وستة ممرات، وشربا من ست آبار. وعند البئر السابعة على طريق القوافل وجدا كيساً.
فقال الشيطان:
– هذا لقيتي!
فقال ألدار:
– بل لقيتي.
وتجادلا، فقال شيطان:
– فليكن الكيس لمن هو أكبر سناً فينا.
فوافق ألدار كوسى.
ففرح الشيطان في سره «قل للنقود وداعاً يا ألدار» وقال:
– عندما ولدت كان عمر الدنيا سبعة أعوام.

فهتف الدار كوسى وهو يذرف الدموع:

– أوه، يا للمصيبة!

– اية مصيبة؟ لماذا تبكي؟

– أه، ياشيطان، لقد أثرت أشجاني بكلامك. فقد تذكرت ابني الأكبر الذي مات. وكان في مثل سنك. اذن فقد ولدتما في عام واحد.

ودون أن يكف عن البكاء دس الدار كوسى الكيس في صدره.

أما الشيطان فراح يطرف بعينيه. وبالفعل، فالدار على حق. اذ لم يحدث أبداً أن كان الابن أكبر من أبيه.

* * *

ومضى الدار كوسى والشيطان. وكان النهار حاراً والطريق طويلا. ومل الدار من السير. فقال في نفسه: «كيف أستطيع أن أركب الشيطان؟ فلأحاول أن أخدعه». وقال:

– اسمع يا شيطان. هلا اختصرنا طريقنا الممل؟

فلم يفهم الشيطان مقصده وقال:

– لا تقل حماقات، كيف نختصره؟

– بسيطة. هل تعرف أغاني؟

– أعرف.

– فلنتبار. أنا أغني أولا، ثم تغني أنت، ومن كانت أغنيته أطول فهو الفائز.

فبرقت عينا الشيطان وقال:

– مضبوط يا الدار. مع الغناء يصبح الطريق أقصر. ابدأ أنت، ولكن استعد للخسارة. فلن يتغلب الانسان على الشيطان في الغناء.

فقال الدار:

– أنا لا أخاف الخسارة. لكن السيىء في الأمر أنني لم أتعود على الغناء ماشياً. هيا نتفق على التالي: أثناء غنائي تحملني أنت، وعندما أنتهى من الغناء أحملك. اتفقنا؟

– اتفقنا.

قفز الدار كوسى على كتفي الشيطان، واتخذ مجلساً مريحاً، ثم صاح بأعلى صوته:

–حا–حا–حا–حا!..

ومضى الزمن، ومالت الشمس الى الأصيل، بينما راح الشيطان يجري حاملا الدار الذي لم يكف عن الغناء:

– حا – حا – حا...

ولم يحتمل الشيطان فقال بصوت مختنق:

– متى ستنتهي «حا–حا–حا» هذه يا الدار كوسى؟

فأجابه الدار:

– هيا، هيا يا شيطان، لا تتكاسل. فأغنيتي طويلة، وليست «حا – حا – حا» الا البداية. وبعدها ستأتي «شي – شي – شي»...

وصاح بصوت أعلى من ذي قبل:

–شي–شي–شي...

وهكذا قطع الدار فوق ظهر الشيطان السهوب كلها، من أقصاها الى أقصاها.

* * *

وفي طرف السهوب كان هناك حقل، وفي منتصفه محراث ملقى. فقال الدار كوسى للشيطان:

– تعال نجرب من فينا الأقوى.

– هيا. ولكن كيف؟

– أترى المحراث؟ جره أنت الى الأمام، وسأشده أنا الى الخلف. ومن يتعب أولا فهو المغلوب.

وربط الدار الشيطان الى المحراث. وأخذ الشيطان يجر المحراث بكل قوة، حتى تدلى لسانه، وراح يمسح عرقه بكفيه المشعرتين، أما الدرا فسار خلف المحراث مرتكزاً على قبضته ليوجهه. وكيفما كان الأمر، فقد حرث الدار الحقل مستخدماً الشيطان.

وأخيراً خارت قوى الشيطان، وتعالى لهاثه، وتدلى رأسه حتى كاد يلامس الأرض بأنفه.

ففك الدار كوسى النير عن رقبته وهو يضحك:

– الآن اتضح أنك تدعى القوة. أما أنا فلم أتعب تقريباً. أستطيع أن أنازل عشرة شياطين آخرين.

وزرعوا قمحاً، وعندما نضج القمح حصدوه ودرسوه. وكوم الدار القمح كوماً، والتبن كوماً. وقال للشيطان:

– هيا، لك الخيار: هل تختار الكوم الكبير أم الصغير؟
فانقض الشيطان على التبن قائلا:
– الكوم الكبير!
– حسناً، خذ الكوم الكبير.
وباع الدار القمح فاكتسى بثمنه، أما الشيطان فقد بقى مع كوم التبن وباء بالخسران.

* * *

وغضب الشيطان من الدار كوسى فقال له:
– لقد خدعتنى. أريد أن أتعارك معك.
فأجابه الدار:
– فليكن، لنتعارك، لا مانع عندي. ولكن العراك في السهوب المكشوفة لا يجدي، فقد يرانا أحد فيسرع ليفصل بيننا ويصالحنا، وبذلك يفسد علينا عراكنا.
وسارا حتى وجدا كوخاً مهجوراً فباتا فيه ليلتهما، وفي الصباح سأل الدار كوسى:
– بم سنتعارك؟ لا يوجد هنا سوى عصى الرعاة* وسوط. فاختر ما تشاء.
فالتقط الشيطان العصى وقال لنفسه: «ياله من أحمق الدار كوسى هذا! سأحطم له ضلوعه الآن. أما هو فلن يستطيع أن يمسني وانا معي هذه العصى الطويلة».
وبدأ العراك. وأراد الشيطان أن يرفع العصى عالياً ليهوي على الدار فانحشرت في الجدار، ولم يستطع أن يخلصها. أما الدار فانقض على الشيطان وراح يلهبه بالسوط على ظهره المشعر بكل قوته. فألقى الشيطان بالعصى ودار في الكوخ كالشاة المجنونة وصاح:
– كلا، أنا لا أوافق. لقد خدعتني مرة أخرى. هيا نتبادل الأسلحة، ولنتعارك في السهوب.
وخرجا الى الخلاء، وكان الشيطان ممسكاً بالسوط، والدار ممسكاً

---

* عصى طويلة في طرفها انشوطة – **المعرب.**

بالعصى. وبدأ العراك. وقبل أن يتمكن الشيطان من رفع السوط أهوى الدار بالعصى ضلوعه حتى كاد الشيطان يسقط على الأرض...

ومنذ ذلك الحين كف الشيطان عن الشجار والعراك مع الدار كوسى. وأصبح مسالماً، مطيعاً، خدوماً، لايعارض أبداً. ولكنه أسر في نفسه الحقد على الدار. وقرر أن يقوم بآخر محاولة للقضاء على عدوه متظاهراً بأنه صديقه: فقال:

– اسمع ياالدار، لقد قاسيت أنا الكثير من ملاعيبك ومزاحك، ولكني لا أحمل لك في قلبي سوءاً. بل انني أحبك يا عزيزي على شجاعتك ومهارتك المرحة. ومستعد من أجلك لعمل أي شيء، وثق مما أقول. فلنكن صديقين الى الأبد! والآن قل لي كصديق، ألا يوجد شيء في الدنيا يمكن أن يقضى عليك؟ أم أنك وهبت الخلود؟

فقال الدار:

– ليس هناك أحد خالد من بنى البشر يا شيطان. أنا أيضاً سأموت. ورغم أني أعرف متى سأموت لكني أخشى أن أكاشفك بالسر، فهو سر كبير يا شيطان.

فأرهف الشيطان أذنيه وقال:

– ألدار يا عزيزى، كيف لا تثق في! أنت أعز عندي من أخي شقيقي! وعندما سأعرف الخطر الذي يهددك سوف أحافظ عليك كما يحافظ المرء على أحداقه. لا تخف عن صديقك المخلص أسرارك.

وفكر ألدار كوسى طويلا، ثم أشاح بيده وقال:

– حسناً، فليكن ما يكون، سأصارحك كصديق بكل شيء. – وهمس في اذن الشيطان – انا لا أخاف السهام أو الخناجر، او أنياب الذئاب، أو سم الأفاعي، ولا مكر الشياطين، ولا غضب السماء. ولكني أخاف من الباورساك* الطازج. وكلما كانت دسمة كانت أخطر! أنها يا شيطان مقتلي...

وعندما عرف الشيطان سر ألدار لم يستطع أن يخفى فرحته، فراح يسير وهو يرقص، ويقفز وكأنه جدي شبعان...

وقال في سره فرحاً: «الآن سأتخلص منك يا «صديقي» ألدار. الآن أصبحت حياتك في يدي».

---

* الباورساك، أكلة شعبية قازاخية، عبارة عن قطع صغيرة من العجين مقلية في السمن – **المعرب.**

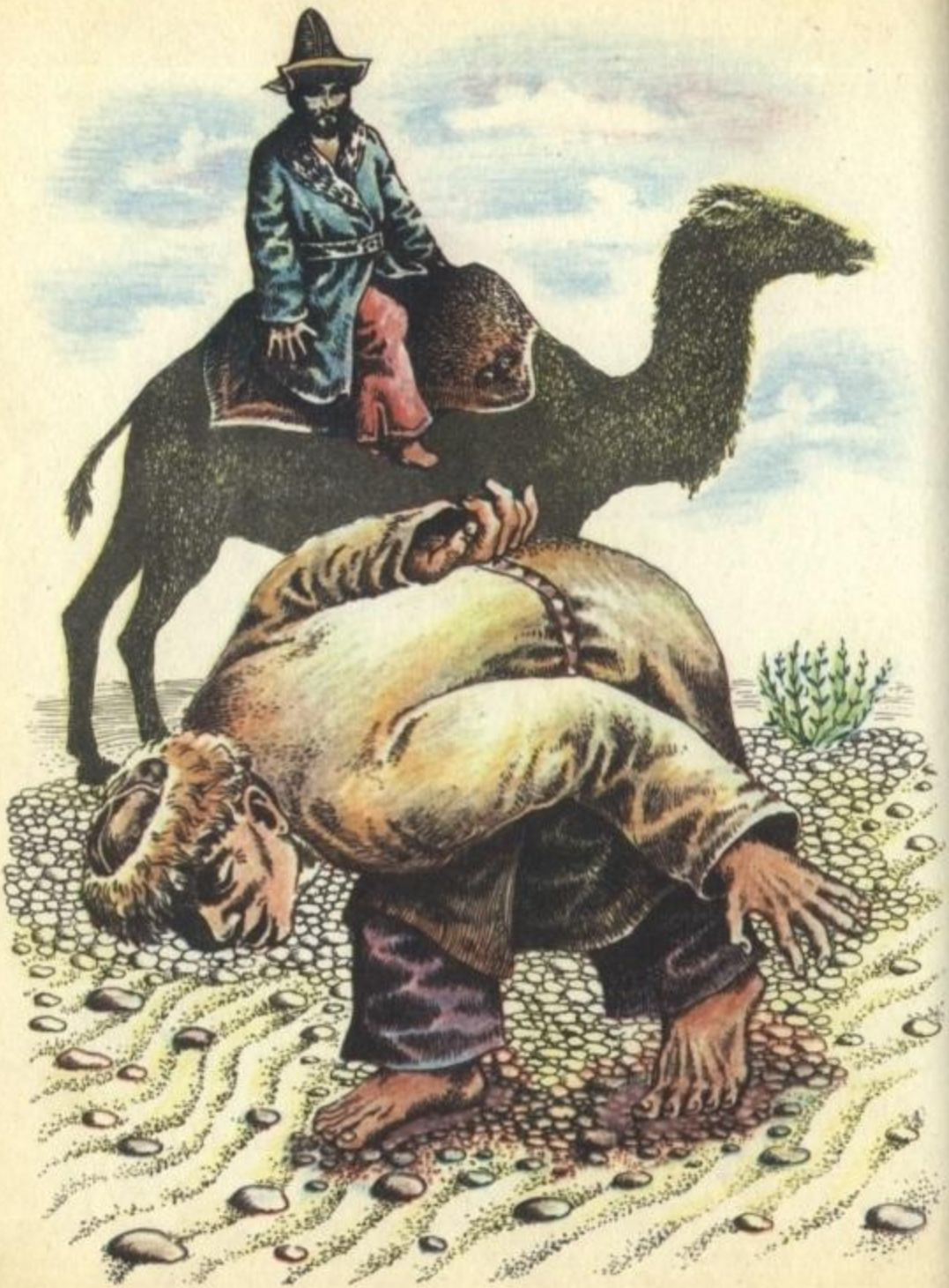

وعندما أوى ألدار ليلا للنوم، تسلل الشيطان الى احدى القرى. ثم الى قرية أخرى، فسرق ملء جوال من الباورساك، وعاد قبيل الفجر. وكان ألدار كوسى يغط في النوم بجوار بقايا نار. فضربه الشيطان بقدمه وقال بفحيح نافذ:

– ودع حياتك أيها الساخر الأجرد. سوف أنتقم منك الآن على كل مافعلته. هل ترى هذا الجوال؟ ان فيه موتك!

فارتعش ألدار تماماً، وأخفى رأسه بيديه، وأسرع يختفي وراء خميلة. وصاح:

– سامحني يا شيطان، الرحمة يا شيطان!

فقال الشيطان:

– لا تستعطف فلن أرحمك!

وراح يلقي بالباورساك قطعة قطعة على ألدار صائحاً:

– خذ! خذ! خذ!...

أما ألدار المختبىء خلف الخميلة فكان يتلقف الباورساك ويلتهمها.. لقد كان شاطراً عموماً، أما في الأكل فلم يكن من هو أشطر منه...

وفرغ الجوال، فتنفس الشيطان الصعداء، وجرى الى الخميلة ليعرف ماذا حدث لعدوه. وذهل عندما أطل فرأى الدار جالساً على العشب يلتهم آخر قطع الباورساك، وكان يلمع كله كسبيكة الذهب ربما بسبب الدهن، أو بسبب المتعة.

ومسح ألدار يديه في ساق حذائه وقال:

– شكراً لك يا شيطان على هذه الأكلة الرائعة. منذ زمن بعيد لم أفطر بهذه الصورة. صحيح يقول المثل: «مع الصديق الطيب يقطر فمك دهناً، ومع الصديق السيىء ينزف أنفك دماً»...

وراح يقهقه من صميم قلبه.

أما الشيطان فبكى من الغيظ والقهر، وانطلق هارباً من ألدار كوسى. وكلما ركض أسرع، علت قهقهات ألدار. ومن كان بوسعه أن يكتم الضحك لو كان مكانه؟

ومن يومها لم يعد في السهوب شياطين. اختفت تماماً. فقد أدركت هذه المخلوقات الخبيثة أن الانسان أكثر مكراً وشجاعة وذكاء. ولم يعد أحد يسمع بالشياطين الا في الحكايات.

كيف أطعم الدار كوسى عمال البيك

ذات مرة اضطر الدار كوسى للعمل أجيراً عند البيك. وسأل الأجراء الآخرين:

– كيف أحوالكم؟

فأجابوه:

– سيئة. نسينا تماماً رائحة اللحم.

– لا تحزنوا، سأطعمكم لحماً على حساب البيك.

فهز الأجراء رؤوسهم يأساً وقالوا:

– المثل يقول يا الدار: «لا تطلب شيئاً من دار لا يزورها الضيوف».

– أنا لا أنوي أطلب. البيك نفسه سيعطي.

– ما الذي تدبره أيها الشقي؟

فقال الدار كوسى متهرباً من الاجابة:

– اذا لم تهب الريح فالعشب لن يهتز.

وفي نفس اليوم، ولسبب مجهول وبطريقة غير معروفة، سقط أفضل كبش من خراف البيك في حفرة فانكسرت ساقه. فأمسك البيك برأسه وقال شاكياً:

– أوه يا الدار كوسى، سيضيع الكبش! ما العمل؟

فنصحه الدار:

– اذبحه بسرعة!

فتشكى البيك:

– خسارة!.. سأفقد كبشاً...

فقال الدار بهدوء:

– اذن فلينفق..
ولم يجد البيك أمامه سوى أن يذبح الكبش. ثم أمر الدار:
– احمله الى السوق وبعه بثمن غال.
وألقى الدار بالذبيحة على كتفيه ومضى الى السوق.
وهناك أخذ يدور ويصيح:
– اسمعوا يا ناس! أبيع كبشاً ميتاً بعشرة دنانير! هيا اشتروا!
فضحك الناس وقالوا:
– كلا يا الدار، في هذه المرة لن تخدعنا. لسنا بحاجة الى كبشك الميت. عد به من حيث أتيت.
وهذا ما كان الدار ينتظره.
فعاد الى البيك وقال وهو يمسح يديه من العرق:
– سنضطر يا بيك أن نأكل نحن لحمه. لم يشتره أحد. وعبثاً أرهقت نفسي. الناس قالوا: لسنا بحاجة اليه...
فلم يصدق البيك أجيره وقال:
– لماذا لا يحتاجون اليه؟ انه كبش طيب! كبش سمين! أنت كذاب ياالدار سأذهب معك غداً ونبيعه.
وفي الصباح الباكر ذهبا معاً الى السوق.
وصاح البيك:
– من يشتري خروفاً؟ من يريد خروفاً؟
أما الدار فصاح:
– من يشترى خروف الأمس؟ نفس خروف الأمس! بعشرة دنانير نبيع خروف الأمس!
وهنا لم يطق الناس صبراً فصاحوا:
– غوروا من هنا أيها العاطلون! لن نشتريه بفلس! كلوه أنتم خروفكم هذا!
فاضطرا الى مغادرة السوق.
وسأل الدار البيك.
– وما العمل الآن؟ هل نأكل اللحم، أم نلقي به في الوادي لتأكله الذئاب؟
فقال البيك بأسى:
– دعني أفكر، دعني أفكر يا الدار.
ثم جمع البيك جميع العاملين لديه وقال لهم:

– اسمعوا أيها الرعاة. الحمقى يرددون أنني رجل شرير، جشع. فليعاقب الله الثرثارين على افترائهم. اليوم ستعرفون أي رجل أنا. أريد ان أطعمكم حتى الشبع، فلم أبخل عليكم بأطيب وأسمن خروف. ولكن بشرط. كل ما هو صلب في القدر لي، والباقي لكم.

تبادل العاملون النظرات وهزوا أكتافهم، فما العمل. طيب، اذا لم يكن ثمة أمل في اللحم، فلا بأس بالمرق.

ومضى ألدار كوسى يعمل بنشاط في اشعال النار وطبخ الخروف. وظل يطبخ طويلا حتى أدرك القلق البيك فسأله:

– متى سنتغدى يا ألدار كوسى؟

– حالا، حالا، اصبر قليلا يا بيك.

وعندما نضج اللحم الى درجة أنه انفصل عن العظام، قال ألدار للبيك:

– أعد يا بيك ما قلته: ما الذي لك في القدر؟

فأسرع البيك يقول:

– كل ما هو صلب!

فقال ألدار وهو يخرج له العظام من القدر:

– هذا هو الصلب! ولنا الباقي.

وجلس الرعاة حول القدر وبدأوا يأكلون. أما البيك فقد أربد وجهه من الغيظ، وراح الرعاة يتضاحكون، وبعد أن شبعوا لحماً، مسحوا شواربهم وقالوا بصوت واحد:

– شكراً على الطعام يا ألدار!

كيف تعرف البيك على ألدار كوسى

ذات مرة أخذ أحد البكوات المغرورين يتحدث أمام أهالي قريته:

– كل أهل السهوب يرددون: ألدار كوسى... ألدار كوسى.. أنا لا أصدف ما يشاع عن ذكائه ودهائه. كم أود أن ألقي نظرة على هذا الصعلوك. وأذن لخدعته فوراً.

وضحك الشبان، وهز الشيوخ رؤوسهم.

فمضى البيك يقول بانفعال:

– نعم، سأخدعه. أعدكم بأن أذبح ذبيحة وأقيم مأدبة للقرية كلها اذا لم أتغلب على هذا الماكر. المهم أن ألقاه...

وذات مرة ركب البيك جمله، ومضى في السهوب. واذ به يرى غير بعيد عن الطريق رجلاً يدور في حلقة وكأنما يبحث عن شيء.

فصاحه البيك:

– ماذا يا أخي، هل فقدت شيئاً؟

فتوقف الغريب برهة ثم أجاب مهموماً:

– لم أفقد شيئاً، ومع ذلك أبحث.

– فعم تبحث اذن؟

– أبحث عن بداية الأرض. أعرف جيداً أنها هنا، في مكان ما، ولكنى لا أعثر عليه. لو أنني نظرت الى السهوب من أعلى لعثرت عليه فوراً. وللأسف، لا يوجد هنا تل أو ربوة لأصعد عليها. ومع ذلك سأبلغ ما أريد. فالمجد والاحترام سيكونان من نصيب من يعثر على بداية الأرض.

أصغى البيك بدهشة الى ما قاله الرجل الغريب، ثم قال له:

– وهل بوسعك يا أخي أن ترى بداية الأرض من على ظهر جمل؟
– وكيف لا؟ طبعاً بوسعي. ولكني لا أملك حتى مجرد حمار أجرب.
فتململ البيك في سرجه وقال:
– اصعد على ظهر جملي، ولكن بشرط: أن تقول في كل مكان اننا وجدنا بداية الأرض معاً. سنقتسم المجد والاحترام. مواقق؟
– فليكن، موافق.
فنزل البيك من على ظهر جمله، وأجلس الغريب عليه، ورفع لحيته الى أعلى متشوقاً الى ما سيقوله.
– هه؟ هل ترى بداية الأرض؟
فاستقر الغريب في مجلسه وأمسك بعنان الجمل وقال متنهداً:
– كلا، لا أراها. أرى يا بيك أنك أحمق كبير. ولكن لا تحزن. فمنذ اليوم تستطيع أن تروي للجميع كيف بحثت عن بداية الأرض مع الدار كوسى...
فصرخ البيك واندفع نحو الراكب:
– الدار كوسى! أهو أنت؟! أعطني الجمل أيها اللص!
فصاح الدار كوسى:
– سأعطيك الجمل اذا لحقتني.
وألهب الجمل بالسوط فانطلق راكضاً، بينما بقى البيك في مكانه مفغور الفم.
وعاد يجرجر قدميه فلم يبلغ القرية الا قبيل الغروب. واستقبلته زوجته قائلة:
– مالك تسير محني الظهر؟ أين الجمل؟
فدمدم البيك:
– لم يعد لدي جمل. خطفه الدار كوسى.
فولولت زوجة البيك، فتجمهر الناس وعلموا بالقصة.
فسألوه:
– كيف خطفه؟ بالقوة أم بالمكر؟
فاعترف البيك قائلا:
– بالمكر.
فارتفعت الضجة، وقهقه الشبان، وضحك الشيوخ:
– تستحق أيها المغرور! هيا اذبح الذبيحة واصنع الوليمة. فقد خسرت الرهان.

فهل كان بوسع البيك أن يتنكر لوعده أمام الناس؟ اضطر أن يذبح، ويطعم أهل القرية، بينما كان يذرف الدموع.

وأثناء الوليمة جاء ألدار كوسى ممتطياً الجمل، وقال وهو يضحك:

– خذ جملك بيك، واياك بعد ذلك أن تتبارى في الذكاء مع الفقراء، أو تطمع في شهرة ليست لك!

وسعد البيك بجمله، وسعد الناس بألدار، فحمله الفقراء على سواعدهم، وأجلسوه في الصدارة، وقدموا له أفضل قطعة لحم. وظلوا يأكلون ويمرحون حتى الصبح.

كيف عاقب ألدار كوسى الشيخ البشع

كانت صناديق الشيخ تغص بنذور المؤمنين، ولكنه كان يطمع في المزيد. وندر أن تجد شخصاً لم يسمع من الشيخ كلمة: «هات»، ولم يكن هناك أحد سمع منه كلمة: «خذ».

وسمع ألدار كوسى عن بخل الشيخ ونفاقه فقرر أن يعاقبه.

وذات مرة كان الشيخ راكباً حماره متوجهاً من احدى القرى الى قرية أخرى. فسمع شخصاً يبكي بحرقه بجوار الطريق. فما هذا؟ ألا يبكي هذا الرجل قريباً له مات؟ فأسرع الشيخ نحوه. والمثل يقول: «الماشية تسمن من كثرة العلف، والشيخ من كثرة الأموات».

وعند ما وصل الشيخ الى بئر قديمة بجوار الطريق رأى رجلا جالساً يبكي وقد القى رأسه على ركبتيه.

فسأله الشيخ:

— ماذا حدث؟

فاستمر الرجل يعول قائلا:

— مصيبة، مصيبة!

— أية مصيبة؟ هل مات أحد أقربائك؟

— بل أسوأ!

— ما الذي يمكن أن يكون أسوأ؟

— لقد نهبني ألدار كوسى الملعون.

— ألدار كوسى؟ هذا الكافر لا يتورع عن أي شيء. أنا لم أره، ولكني سمعت من الناس عنه. ماذا فعل بك؟

— التقيت به صدفة عند هذه البئر. فجلسنا نتحدث. فطلب مني أن

أعطيه قليلا من السعوط، فمددت له كيس. سعوطى القديم، فاختطفه الملعون و ألقاه في البئر...

فضحك الشيخ وقال:

– وهل يستحق كيس سعوط قديم، حتى لو كان مليئاً بالسعوط، أن تقيم من أجله كل هذه الضجة؟!

فصاح الرجل الغريب وهو يعول أكثر من ذي قبل:

– ولكن الكيس كان فيه ثلاث قطع ذهبية، هي كل ثروتي!

فقفز الشيخ مترجلا عن حماره وسأل بلهفة:

– تقول في الكيس ثلاث قطع ذهبية؟ فلماذا لا تنزل وراءها الى البئر أيها الأحمق؟ فالبئر ليست عميقة.

– وكيف انزل وليس معي حبل؟

فلمعت عينا الشيخ جشعاً وقال:

– اسمع، سأعيرك رسن الحمار اذا أعطيتني قطعة.

فقال الرجل:

– حفظك الله يا مولانا. بكل سرور سأعطيك القطعة، ولكني أخشى الا يقيدنى الرسن في شيء.

– ولماذا؟

– لأني منذ صغري أخشى الماء البارد أكثر من أي شيء، والأسهل أن أموت على أن أنزل البئر...

فقال الشيخ لنفسه: «ياله من أحمق! من أجل النقود أنا مستعد أن أنزل الى الجحيم لا الى هذه البئر..!». أما جهرا فقال:

– حسناً، مادام الأمر هكذا فسأساعدك. سأنزل البئر وأخرج من قاعها نقودك. ولكن بشرط أن تعطيني قطعتين مكافأة على مجهودي ومخاطرتي.

– سأعطيك، بلا أسف. فالنقود ستضيع. حسناً، أنت قطعتين وأنا قطعة.

وعلى الفور نزع الشيخ ملابسه، ونظر الى البئر برهبة وقال وهو يمسك بطنه:

– امسك الرسن جيداً. وعندما أنتشل الكيس شدني.

وهبط الشيخ وهو يزفر الى البئر متعلقاً بالرسن.

ومن أعماق البئر تردد صوته:

– دلني شيئاً فشيئاً، ولكن بحذر. ما لك تتباطأ؟

فسمع الشيخ صوت الغريب في الأعلى:

– ولم العجلة يا مولانا. فالمثل يقول: «المتأني يلحق بالأرنب ولو على ظهر عربة». وأنا أتباطأ لأني أفكر. وهذا ما أفكر فيه: ترى هل أصارحك فوراً بأنه ليس هناك نقود في البئر؟

فصرخ الشيخ:

– كيف؟ ليس هناك نقود في البئر؟ أيها المحتال! اذن فقد كذبت علي بأن الدار كوسى سخر منك؟

– نعم، كذبت، فسامحني يا مولانا! صحيح أن الدار كوسى سخر، ولكن ليس مني بل منك. الدار كوسى هو أنا.

فصاح الشيخ:

– آه، يا سوء حظي!

وأفلت الرسن من يده فهوى في الماء.

لم تكن البئر فعلا عميقة. فوقف الشيخ في الماء الى وسطه، وراح يسب ويلعن ويهدد، ولكنه سرعان ما أدرك أن ذلك لن يفيده بشيء مع الدار، الذى أخذ يقهقه بمرح مطلا في البئر. وعندئذ غير الشيخ لهجته:

– الدار يا عزيزي، أنا لست مستاء منك لمزحتك المتهورة، فلا تغضب أنت أيضاً. كفاك مزاحاً، وألق الي الحبل بسرعة، وساعدني يا أخي على الخروج من البئر!

وجلس الدار على الحمار ومضى الى حيث كان يريد، بعد أن أخفى جيداً ملابس الشيخ. أما الشيخ فظل في البئر ساعات طويلة، الى أن أخرجه منها تجار عابرون.

كيف أنقذ ألدار كوسى الأرملة

أصاب المرض ابن احدى الأرامل. وراح الصبي المسكين يهذي محموماً ويرجو أمه:

– ماما ياحبيبتي، اعطيني جرعة «كوميس».

واخذت الأم تبكي، اذ أن دارهم لم يدخلها الكوميس أبداً. ثم أخذت قدحاً مليئاً بالخدوش وذهبت الى البيك ترجوه:

– رحماك يابيك، أرجوك أن تأمر باعطائي ولو نصف قدح «كوميس» لولدي المحتضر. لقد مات زوجي من البرد في السهوب لينقذ قطعانك، ولم يبخل بحياته من أجلك، فلا تبخل علينا بشراب السهوب...

– تريدين «كوميساً»؟ ألا تريدين أن أضربك؟ عشنا حتى رأينا الشحاذين يقلقون راحة الكرام. اغربي عن وجهي أيتها المتسولة الوقحة.

ودفعها خارج الدار.

وعادت المرأة وهي تسكب دموعها. وفي الطريق سمعت خلفها وقع حوافر فالتفتت مذعورة واذا بها ترى ألدار كوسى على حصان أجرد.

وسألها:

– من ذا الذي أهانك أيتها المرأة؟ لماذا تبكين؟

فروت له المرأة مأساتها.

فقال لها ألدار كوسى:

– لاتحزني، سأساعدك. فأنا أعتقد أنه اذا كان للمرء رأس فسوف يجد له طاقية.

وفي تلك الأثناء خرج البيك للتريض ليملي النظر من قطعانه.

واقترب منه الدار كوسى، وسلم عليه، وسأله بحذر عما اذا كان يعرف هل هنا من يحتاج الى حصان.

فاستفسر البيك:

– ماذا، هل تبيع حصانك؟

– لاأبيعه يا سيدي، بل أبادله.

واهتم البيك بالأمر، فقد كان يهوى المبادلة التي يتمكن فيها من خداع البسطاء. كان مستعداً أن يبادل حتى والده، على أن يكسب ولو جلد حمل.

فقال بلا اهتمام:

– وماذا تريد مقابل حصانك العجوز؟

وراح يجس حصان الدار.

– ما أطلبه قليل. هل تعطيني خمسة خراف؟

فلم يصدق البيك أذنيه فسأل:

– كم؟ كم؟

– خمسة خراف. اذا كان هذا كثيراً اعطني ثلاثة.

حصان مقابل ثلاثة خراف! ياله من كسب جاء للبيك سهلا.

فأسرع البيك يقول:

– موافق! انزل، واختر الخراف.

ولكن الدار لم يتعجل، ففي العجلة الندامة. ولم ينزل من على حصانه، ولم يترك اللجام. ومضى يقول:

– حسناً أنك موافق. فلتكن صفقتنا فاتحة خير. ولكن هلا واصلنا المبادلة يابيك؟ أعطيك حصاناً و ثلاثة خراف مقابل ثور. مارأيك؟

فك البيك ياقة قميصه وأسرع يقول:

– موافق!

– رائع أنك موافق. أنت راض وأنا راض. ولكن هلا واصلنا المبادلة؟ أعطيك حصاناً وثلاثة خراف وثوراً مقابل ناقة حلوب.

كان البيك في قمة النشوة، فأسرع يقول وهو يلهث:

– موافق! فلاكن أنا الخسران... ولكني موافق.

– عن أية خسارة تتحدث يا بيك، اتق الله! لقد سلبتني كل شيء. ولكن تمتع بثمار طيبتي. ولنواصل المبادلة. أعطيك حصاناً وناقة وثوراً وثلاثة خراف مقابل أضعف جمل لديك!

فوضع البيك يده على قلبه من شده الانفعال وهتف:
– موافق! خذ الجمل.
– حسناً أنك موافق. ولكني لست موافقاً.
فانتفض البيك:
– لماذا لاتوافق؟ ما معنى هذا؟ الكلمة كالسهم اذا أطلقته لايعود الى الجعبة.
فاجاب الدار:
– لست موافقاً لأني لا أريدُ أن آخذ أكثر من حاجتي. هكذا طبعي! تكفيني الناقة. أما الجمل فليبق لك، وليبق لي حصاني. موافق؟
فقال البيك لنفسه بظفر: «الحظ حالفني من جديد. فأيا كان الجمل فهو أعلى من الحصان...»
– موافق، موافق! خذ حصانك – وراح يساعد في الجلوس على السرج. أماالدار فوضع الحبل في عنق الناقة وانصرف مسرعاً.
وصاح البيك في اثره:
– اسمع يافتى، اذا أردت أن تبادل مرة أخرى فتعال.
فصاح الدار:
– حتماً سآتي. انتظرني.
وعرج الدار في طريقه على الأرملة وقال لها:
– لقد بخل البيك عليك بقدح «كوميس» فجئتك منه بناقة حلوب. الآن سيكون لديك «كوميس».
وفرحت الأرملة، وقامت فحلبت الناقة، وسقت ابنها «كوميس». وبعد فترة شفي ابنها. وظلت الأرملة تذكر الدار كوسى طوال حياتها.
وتذكره البيك أيضاً. فبعد أن هدأت مشاعره بعد المبادلة، اكتشف أنه أعطى الناقة بلا مقابل، ولكن بعد فوات الأوان، فما ترميه في النار، لا تبحث عنه في جيبك.

كيف نزل ألدار كوسى ضيفا على شيجاي بيك

لكل انسان شهرته. فهذا يشتهر بذكائه، وذاك بأصله الكريم، وثالث بأعماله الطيبة، ورابع بثروته وقطعانه. وهناك من يشتهر بشجاعته وقوته، أو بطلعته المهيبة...

أما البيك شيجاي بيك فقد اشتهر ببخله على نطاق واسع. كان يتكالب على كل قطرة لبن وكل عظمة ممصوصة. ولو قضيت عاماً تنحنى له فلن يقدم لك قطرة ماء. أما أن يدعو أحداً في ضيافته فهذا مالم يخطر له ببال. فما أن يرى هذا البخيل العجوز غريباً يقترب منه حتي يصيح:

– ماذا تريد مني؟ اغرب من هنا!

ولهذا أطلقوا عليه اسم شيك بيرميس شيجاي* بيك، فالتصق هذا الاسم به الى الأبد.

ولكن لا يقصده أحد في مطلب، أقام شيجاي بيك خيمته في مكان ناء منعزل. بل ووضع حولها أعواد غاب جافة ثلاث طبقات. وكان قصده من ذلك واضحاً. فما أن يدوس الفارس أو الراجل على أعواد الغاب حتى تصدر خشخشة فينتبه شيجاي بيك الى قدوم شخص غريب.

وهكذا عاش هذا البيك كالذئب وحيداً. ولم يخطر ببال أحد أن يقيم صلة بهذا البخيل المقتر... اللهم الا ألدار كوسى.

---

* شيك بيرميس تعني بالقازاخية: «الذي لا يعطي قطرة ندى»، وشيجاي تعني «هيا، اغرب!...» وهذا الاسم رمز للبخل – **الناشر.**

وهكذا خطر لألدار أن ينزل ضيفاً على شيجاي بيك لأسبوع أو أسبوعين. وألحت عليه هذه الفكرة فلم يستطع أن يطردها من ذهنه. ولم يتردد طويلا، فامتطى ظهر حصانه الأصلع ومضى في طريقه.

وعندما كان يمر على القرى والمرعي يقول له الناس:

– اذا قصدت البخيل في زيارة ليوم فخذ معك طعاماً لأسبوع والا هلكت من الجوع في ضيافته.

فيحث ألدار حصانه ويقول:

– الأحمق وحده هو الذي لا يرتوى وهو في النهر، وهل أنا في اعتقادكم أحمق!

وقبيل المساء لاحت في الأفق خيمة شيجاي بيك. ومن فوقها تصاعد دخان دليلا على أنهم يعدون العشاء هناك.

فقال ألدار في نفسه ضاحكاً: «جئت في الوقت المناسب تماماً» و وجه الحصان الى مربط الخيول حيث كانت تقف خيول البيك. وربط حصانه بهدوء. ووضع أمامه العلف، ثم مضى يجمع اعواد الغاب الملقاة أمام الخيمة.

وحل الظلام ولكن ألدار لم يتعجل، متذكراً المثل: «اذا حششت الحصان عبثاً أصبحت تمشي على قدميك». وظل يجمع الأعواد عوداً عوداً حتى شق لنفسه درباً الى الخيمة واسترق النظر من شق الباب.

كان الهدوء يعم الخيمة، ولاحت الجمرات في الموقد، وفوقها قدر اللحم. وحول الموقد تجمعت أسرة شيجاي بيك: البيك نفسه يقطع القديد، وزوجته تعجن العجين، وزوجة ابنه تمسح رأس الخروف على النار، وابنته تنتف ريش أوزة برية.

المثل يقول: «اذا مد الشاطر اصبعه في شق الباب فاعتبر انه قد احتل في المجلس مركز الصدارة»، وهذا المثل ينطبق على ألدار. فقبل أن يفتح البيك وأسرته أفواههم دهشة كان ألدار يقتحم الخيمة يصحبه هواء السهوب. وانحنى ألدار كوسى محيياً:

– مساء الخير.

فدمدم البيك:

– فليشق حجر رأسك.

وأصدر لأسرته اشارة منذرة.

وعلى الفور اختفى كل ماكان معداً للعشاء، وانشغلت أيدي أصحاب ألدار بأشياء أخرى، فاذا بالبيك يصلح لجام حصان، وزوجته تغزل الصوف، وزوجة ابنه تخيط قميصاً، وابنته تنظف أركان الخيمة.

فدهش الدار وقال لنفسه: «ياللروعة! فلانس اسمي يابيك لو انطلت على الاعيبك!» ودون أن ينتظر دعوة جلس الى الموقد مزخزحاً صاحب الدار. فقال البيك عابساً:

– ماالذي جاء بك ياأجرد؟ هل تطمع في أن أضيفك؟ لا تعول علي، فليس لدي ماأقدمه لك،–وأضاف محولا مجرى الحديث بعيداً عن الطعام،– ولكن ما دمت قد جئت بلا دعوة فلا تجلس صامتاً. حدثنا عن أي شيء...

– عم أحدثك يابيك؟ عما رأيته أو عما سمعته؟

– حدثني عما رأيته. انا لا أصدق الشائعات. انها كاذبة.

– حسناً، فلتسمع – ونهض الدار على ركبتيه، ورسم في عينيه الذعر وقال ،–رأيت يابيك وانا اقترب من خيمتك ثعباناً أصفر في طريقي. ثعبان طويل طويل، غليظ غليظ. ولا أبالغ اذا قلت أنه بالضبط في حجم اسطوانة القديد التي تخفيها تحت طرف ردائك. فقلت لنفسي: وكيف احتمي منه؟ فأخذت حجر بحجم رأس الخروف الموضوع تحت زوجة ابنك ورحت أضرب به الثعبان اللئيم بكل قوة. فهرسته وعجنته كالعجين الذي تجلس عليه زوجتك. ولو كنت كاذباً فلتنتف شعر لحيتي كتلك الأوزة التي خبأتها ابنتك تحتها!

وأدرك البيك أنه لاشيء يخفى على الدار كوسى. فأخذ يقلب الماء في القدر بالمغرفة في أسى ويقول:

– اغل ياقدر ستة أفهر!

وعندما سمع الدار كوسى ذلك، خلع خذاءه على مهل، ووضعه بجواره، وقال متثائباً:

– استرح ياحذائي في هذه الخيمة المضيافة حتى السنة القادمة!

وظل القدر يغلي حتى منتصف الليل، وكان شيجاي بيك يأمل في أن يتمكن من طرد الضيف بعد أن يعذبه الجوع. ولكن الدار لم يكن ينوي أن يتزحزح.

فقال البيك أخيراً بعدأ أن يئس:

– هيا يامرأة، اعدي الفراش. أن لنا أن ننام من زمان.

وبدأوا يستعدون للنوم، وأوى الدار أيضاً، وتظاهر بالنوم فأغمض عينيه. وما أن ارتفع شخير البيك، حتى نهض الدار بخفة، واستخرج للحم من القدر فأكل حتى الشبع، ثم ألقى في القدر بسروال البيك الجلدي، وتمدد من جديد على الكليم وكأن لم يحدث شيء.

وفي منتصف الليل نهض البيك مضطرباً وأيقظ زوجته:

– انهضي، يخيل الي أن الأجرد نام. سنتمكن من تناول العشاء قبل أن ينهض. اسرعي!

وأسرعت زوجته في الظلام فانزلت القدر، وأخرجت منه سروال زوجها الجلدي فوضعته على طبق خشبي، وقدمته لزوجها.

وقطع البيك بالسكين بصعوبة قطعة كبيرة من السروال ورسها في فمه. ماهذا؟ راح يمضغ ويمضغ تلك القطعة ولكن أسنانه لا توثر فيها.

فقال البيك مغتاظاً.

– ياللمصيبة، ضاع اللحم! أصبح قاسياً جداً لا يمكن مضغه. كل ذلك بسبب هذا الشرير الدار!

وتعب البيك من المضغ، فنحى الطبق جانباً وقال لزوجته:

– الفجر أوشك أن يشرق. سأذهب في الصباح لأتفقد القطعان. اخبزي لي شطائر للطريق، فربما أشبع ولو في السهوب.

وأخرجت زوجته العجين المخبأ وبدأت تخبزه.

وبعد قليل همس لها البيك:

– هل الشطائر جاهزة يا امرأة؟

– جاهزة. لكنها ساختة كالنار. فلتبرد قليلا.

وهنا شن الدار بأنفه، وزحر، وانقلب الى جنبه الآخر.

– انه يستيقظ! – قال البيك وأسرع يدس الشطائر في عبه. ومأن خطا الى العتبة حتى قفز الدار واقفاً وسد عليه الطريق. وقال بمودة ورقة.

– يبدو أنك تنوي أن ترحل ياغزيزي البيك؟ تصحبك السلامة! اعتقد أنني أيضاً سأرحل اليوم. ومن يدري، هل سنلتقي مرة أخرى. فلنتعانق عناق الوداع.

وقبل أن يفتح البيك فمه، انقض عليه الدار وراح يحضنه ويضمه اليه.

وحاول البيك أن يخلص نفسه فلم يستطع، اذ أطبقت عليه زراعا الدار كأنشوطة. وأخذت الشطائر تلسع البيك، فلم يطق صبراً أخيراً وصرخ:

– أي، أي، بطني احترق!

فأطلق الدار سراحه، فألقى شيخي بيك اليه بالشطائر كلها.

– خذ أيها اللئيم، كل واشبع من هذه الشطائر اللعينة.

فقال الدار بفرح:

– حرام يا بيك أن تسب خبزاً خبز مع الدعوات. هذه الشطائر تليق بمائدة الخان.

وجمع الدار الشطائر من على الأرض ونفضها، وأخذ يلتهمها بملء فمه. وبعد أن أفطر، تمرد ثانية لينام. أما البيك فخرج من الخيمة مغيظاً وجوعان.

وفي صباح اليوم التالي مضى البيك يستعد للخروج، فأخذ زوجته الى خارج الخيمة وراحا يتهامسان. وقال لها:

املأي الزق باللبن الرائب، واحذري أن يراك هذا الأجرد اللئيم. وسأشرب اللبن في الطريق لأروى ظمأي.

– الملء ليس مشكلة، ولكن كيف ستحمله.

تحت الرداء سأضعه وأعلقه في رقبتي...

ولم يدر بخلدهما أن الدار يرى مغمض العينين، ويسمع مغلق الأذنين.

وأخذت الزوجة تجهز البيك للرحيل. فملأت الزق باللبن الرائب، وعلقته في رقبته، وألبسته الروب فوقه ثم شدت على خصره منديلا ملوناً.

– بالسلامة يابيك، يرعاك الله في سفرك ويحفظ قطعانك.

وهنا قفز الدار – كوسى من الخيمة وانقض على البيك:

– مع السلامة يابيك، مع السلامة. لن أثقل عليك بعد الآن فسأرحل. لا تذكرني بسوء – وأمسك بكلتا يدي البيك وأخذ يهزهما حتى ارتعش بدن كله كأنما أصابته رجفة. وأخذ الزق يتمايل معه وينسكب منه اللبن على صدر البيك ويسيل على سرواله الى حذائه.

فصرخ البيك ضارعاً:

– دعني! – وخلص يديه منه بصعوبة وألقى بالزق لألدار – اشرب آيها الكريه، اشرب لبني وليغص زورك!

وتلقف ألدار الزق، وصب في حلقه كل ما فيه من لبن حتى آخر قطرة.

– أه يا بيك، شكراً على كرمك. هاأنت ذا أطعمتني منذ الصبح. فلأوجل سفري، فلا يمكن أن أرحل وبطني مهتلىء. سأذهب لأرتاح في الخيمة الظليلة.

ومضت عدة أيام. وهزل البيك وضعف بدنه من الغيظ، وراح يلفح ألدار بنظرات وحشية. واشتكى لزوجته:

هنا الأجرد نهب طعامنا. لا أستطيع أن أنظر الى وجهه الصفيق. والغيظ يملأ صدري. سأنتقم منه على كل ما فعله انتقاماً لن ينساه!

وأدرك ألدار أن البيك يدبر له شراً. وقال نفسه: أخشى أن يصنع هذه البخيل شيئاً ما بحصاني».

وما أن هبط الظلام حتى تسلل الى مربط الخيول، ولوث بالروس صلعة حصانه البيضاء، ورسم على جبين أفضل خيول البيك صلعة مشابهة بالطباشير. وقال لنفسه: «لو فكر شيجاي بيك في الحاق ضرر بي، فليعد عليه الضرر».

وهذا ماكان.

تسلل البيك في منتصف الليل يحبو على يديه وركبتيه، وزحف وهو يتلفت كاللص حتى بلغ مربط الخيل، وطعن بالخنجر الحصان ذا الصلعة البيضاء.

– هذا هو انتقامي أيها الضيف الغالي!

ومسح الخنجر في العشب، وعاد الى الخيمة وتظاهر بالنوم. وما أن أشرق الفجر حتى أثار ضجة:

– انهض أيها الأجرد! مصيبة! هاهي زوجتي جاءت مذعورة، تقول أن حصان الضيف يلفظ أنفاسه. يبدو أنه وقع على شيء حاد، فهو ينزف. يالك من رجل سيىء لاتهتم بحصانك. لا يهمك الا أن تملأ بطنك من قدر غيرك!..

كان البيك يصيح بينما يضحك في قرارة نفسه.

واستيقظ ألدار فجلس في الفراش يتثاءب ويقول:

– مالك تصيح يا بيك؟ حصان من يلفظ أنفاسه؟

– حصانك يا أحمق. ذو الصلعة البيضاء!

فعاد ألدار الى نومه قائلا:

– فليلفظ أنفاسه. ولكن انتبه... اذا كانت الصلعة ملوثة بالروث فهو حصاني. اما اذا كانت ملوثة بالطباشير فأخشى أن يكون حصانك...

وبدت كلمات ألدار مريبة لشيجاي بيك. فاندفع الى مربط الخيول، فرأى أنه قتل أعز جياده. فصرخ البيك بصوت ملأ الأجواء، ولكن الذنب كان ذنبه.

وظل ألدار ضيفاً على شيجاي بيك طويلا. وكان خلال كل هذه الفترة يتطلع خلسة الى ابنة البيك بيز – بيكيش. وأعجبته هذه الفتاة النشيطة الموثبة النظرات. وهي أيضاً أعجبها هذا الزائر المرح.

وذات مرة، عندما كانا وحيدين، قال لها ألدار:

– بيز، هل تقبلينني زوجاً لك؟

فتضرجت بيز – بيكيش، وخفضت بصرها وقالت:

– أنا على استعداد أن أذهب معك الى آخر الدنيا يا ألدار! لقد سئمت هذه الخيمة المظلمة، وهذه الحياة البخيلة. ولكن من أين تحصل على المهر الذي يشبع جشع والدي؟

فعانق ألدار الفتاة وقال:

– سآخذك معي غداً ياروحي، بدون أي مهر.

وحل يوم جديد. ورحل البيك في الصبح الباكر حتى لا يرى وجه ضيفه الثقيل الكريه.

ولكن ألدار لحق به وأمسك بمرفقه قائلا:

– يا بيك أنا اليوم راحل حقاً. أقسم بالله أني لا أخدعك. وعندما ستعود ستجد خيمتك أوسع. لي رجاء أخير، أعرني «بيزا»*، فينبغي أي أصلح حذائي قبل الرحيل، فقد تهرأ تماماً.

وقف البيك متفكراً عابساً، بينما ألح ألدار:

– أعرني يابيك «بيزاً»، لا ترد طلبي، أرجوك. والا سأضطر الى قضاء الشتاء عندك.

فروح البيك «لم يكن ينقصني الا هذا!» فقال من بين أسنانه وهو لا ينظر ناحية الدار:

حسناً أيها النهاب. اذهب الى زوجتي وقل لها أن تعطيك بيزاً... قل لها البيك أمر... واغرب عنا بسرعة أيها الجشع.

فقفز الدار من الفرحة:

أوه، شكراً، شكراً يابيك.

وطار كالسهم الى الخيمة.

– البسي ابنتك ياخالة!

– ولماذا؟

– لقد اتفقت مع البيك، سآخذ بيز زوجة لي.

– فليقطع لسانك أيها المحتال! وهل يرضى البيك أن يزوج ابنته من نصاب مثلك؟

– اذا لم تصدقي كلامي، فصدقي أذنيك – وشدها خارج الخيمة

---

* «بيز» بالقازاخية تعني مخيط، واسم ابنة البيك و المختصر هو آيضاً «بيز». على هذا الخلط اعتمد الدار كوسى الماكر – **الناشر.**

وصاح في اثر البيك الذي ابتعد – يابيك، يابيك، زوجتك لا تريد أن تنفذ طلبك. انها لا تعطيني بيزا. مرها أنت!

فصاح شيجاي بيك:

– أعطيه بيزا! أعطيه بدون كلام وانتهينا. دعيه يأخذ بيزاً ويذهب الى الشيطان!

فغمز لها ألدار بعينه:

– هل سمعت؟ وكنت لا تصدقينني...

فأعولت زوجة البيك.

– ماهذا يا ربي؟ هل جن هذا العجوز المخرف؟ لمن يعطي ابنته؟ لمحتال فقير، بلا أصل ولا نسب ولا جاه ولا مال! – ولكنها لم تجرؤ على عصيان أمر زوجها – خذ أيها الملعون ابنتي، ولكن أياك أن تراك عيناي!

وفي لمح البصر كان ألدار كوسى فوق صهوة جواده الأصلع الذي راح يتواثب تحته بعد طول وقوف وقد أحس ببداية رحلة طويلة. وشد ألدار اللجام، واركب بيز – بيكيش الحسناء معه في السرج، وطار بها، مخلفاً وراءه سحب الغبار.

كيف باع ألدار كوسى للبيك أرنبا مدربا

ذات يوم قابل الدار كوسى أحد أصدقائه فعانقه وسأله:
لماذا هزلت هكذا؟ ماالذي يحزنك؟ خبرني كيف احوالك.
فتنهد صديقه بحزن وقال:
الأحوال سيئة. لا أجد ما أضعه على كتفي ولا ما أطبخه في قدري. الجوع يطردني من البيك، والبرد يدفعني الى البيك... أسرتي تعاني ياألدار.
– مهلا، لقد كانت لديك أغنام!
– نعم، عشر غنمات. وليس لدي الآن حتى واحدة.
– هل نفقت؟
– كلا، لم تنفق. استولى عليها البيك كارنباي كلها. قلت له: «ماذا فعلت لك يابيك حتى تقضي علي؟» فضحك قائلا: «لأن جدك وصف جدي في اغنية بأنه مصاص دماء».
فقال الدار:
– اسمع ياصديقي. فمهما قلت «الحلاوة الحلاوة» فلن تشعر في فمك بطعمها. أنت بحاجة الى أغنام لا الى كلمات. وأقسم لك، قبل أن يطلع البدر الجديد، أن تعود اليك غنماتك...
وودعه وافترقا. ومضى ألدار يقفز ويدندن وكأنما نسي ذلك الحديث. وفجأة وثب تحت قدميه مباشرة أرنبان، وانطلق كل منهما في جهة.

ولكن ألدار لم يكن أقل مهارة منهما فجرى يميناً، وجرى يساراً، وأمسك بالاثنين من آذانهما.

وعندما عاد بهما الى المنزل فرحت زوجته وقالت:

– دعني أمسكهما ياعزيزي! أين أخذتهما؟

– ستعرفين كل شيء فيما بعد. أما الآن فاسمعي ما سآمرك به. اشعلي الموقد، وجهزي غداء دسماً لذيذاً. سيزورنا اليوم كارنباي، هذا الأكول النهم. ينبغي أن نستقبله بحفاوة ونطعمه حتى الشبع. وعندما يسألك: من أخبرك بقدوم الضيف، قولي: «الأرنت» وأريه الأرنب. هل وعيت ماقلت؟ وداعاً.

ودس ألدار أحد الأرنبين في يد زوجته المندهشة، وانطلق خارجاً بالأرنب الآخر. وقبل أن يهتز الشيح في السهوب ثلاثاً كان قد أصبح في قرية كارنباي.

نظر البيك العبوس شذراً الى ألدار والى الأرنب الذي كان ألدار يضمه الى صدره، وضحك بسخرية:

– ماذا، يبدو أن ملاعيبك لا توفر لك أكلا طيباً أيها الأجرد. فليس من الشبع رحت تصطاد الأرانب.

فأجاب ألدار كوسى بكبرياء:

– لا تخلع نعليك قبل أن تصل الى النهر يابيك. وبدلا من السخرية كان الأجدر أن تسألني عن هذا الأرنب. فليس هذا أرنباً عادياً، بل مدرباً. فكل ماتأمره به ينفذه بدقة. لن تجد خادماً أبرع منه حتى لدى الخان.

فقال البيك كالملسوع:

– يالك من كذاب عديم الحياء! من تريد أن تخدع؟ أم أنك لا تعرف طبعي؟ لو حاولت خداعي فسأحطم لك فكيك.

فقال ألدار كوسى معاتباً:

– عيب عليك يابيك أن تشتم وتهدد. ولكن هل يتوقع المرء منك غير هذا؟ من فم السود تخرج كلمات السود. ولكني لست غاضباً، فالكلاب تنبح والقافلة تسير. ولكني مستاء من أجل الأرنب. لماذا لا تثق به؟ هل تريد أن أريك شطارته؟

فقال البيك:

– أرني:

فرفع ألدار الأرنب فمه وهمس فى أذنه:

– أسرع ياخفيف الساقين بكل قواك الى البيت، وقل لزوجتي انني دعوت كارنباي الموقر. فلتنظف الدار ولتعد الطعام لنا.

وأفلت الأرنب من يده.

فجلس الأرنب، وحرك أذنيه، وقفز قفزة، ثم أخرى، وعندما شعر أنه مطلق السراح أطلق العنان لساقيه كأنما يطارده صقر.

وصاح البيك في اثره، ولكن الدار ربت على كتفه قائلا:

– لا تستحثه. الأرنب المدرب يعرف ما المطلوب عمله. هيا نتبعه. وعندما نصل ستكون زوجتي قد أعدت أشهى المأكولات. ستأكل اصابعك من لذتها.

فرفع البيك قبضته الضخمة مهدداً وقال:

– حسناً، سأذهب معك أيها الكذاب. لن أبخل بوقتي ولا بجاهي كي أكشف خداعك. سوف تذكر هذا اليوم جيداً!

وسارا. كان البيك عابساً يزفر، أما الدار فلم يكف عن امتداح الأرنت.

وأشرفا على خيمة الدار، فاستنشق البيك رائحة لحم. ماهذه الرائحة! وبلع البيك ريقه، وازداد عبوساً.

ودخلا الخيمة فوجداها نظيفة مرتبة، وفي وسطها بسط مفرش ناصع البياض حافل بالمأكولات التي تكفي عشرة أشخاص.

وحملق البيك في كل ذلك بدهشة، أما الدار فتأبط ذراع البيك وكأنه قريب عزيز، وأجلسه في صدر المجلس، وتناول حفنة من البيشبرمك فوضعها في فم البيك اكراماً.

وانقض البيك المذهول على الطعام وهو لايكاد يتنفس، بينما وقفت ربة البيت حسب التقاليد على يسار الضيف تضع المزيد والمزيد من الطعام وتقول:

– كل، كل ياكارنباي – أغا!

وعندما ملأ البيك بطنه حتى التخمة، أصبح أكثر طيبة. فاعتمد بمرفقه على الوسادة وقال زافراً:

– سلمت يدا زوجتك ياالدار. أدخلت السرور على قلبي. لم أكل مثل هذا الطعام من قبل. في سبيل هذا الطعام الوفير سأنسى خصامنا وأغفر لك كذبك... – ثم قال مخاطباً ربة الدار – ولكن خبريني ياصبية، كيف عرفت أن زوجك قادم مع ضيف؟

فابتسمت زوجة الدار، واختفت لحظة وراء الحاجز وعادت وفي يدها أرنب فقالت:

– هاهو ذا الذي حمل الي النبأ السعيد بقدوم ضيف عزيز.
وراحت تمسد الأرنب بحنان.
وعلى الفور تبدلت ملامح وجه البيك، فقال:
– أريد أن أتحدث اليك ياألدار. فلنخرج.
وعندما أصبحا على انفراد، أمسك البيك بيد ألدار برقة وقال:
– الآن رأيت أنني كنت مخطئاً في حديثي معك ياألدار كوسى. فأرجو المعذرة. كان غداء زوجتك رائعاً، ولكن أرنبك أروع. لكن خبرني ياألدار... أليس من الترف أن يكون لدى فقير مثلك هذا الأرنب المدرب؟
فتنهد ألدار وقال:
– معك حق يابيك. خيمة الغني تصمد للعاصفة، وخيمة الفقير تهددها قطرة مطر. لقد فهمت قصدك يابيك، ومستعد أن أتخلى لك عن الأرنب. مادام قد أعجبك فلتأخذه، ولتفاخر به أمام أصدقائك وخصومك. ولكن ماذا ستعطيني في المقابل؟ مائة خروف؟
فاسود وجه البيك كقعر القدر.
– أليس هذا كثيراً ياألدار؟
– اذا كنت لا تريد فلا داعي...
وابتعد ألدار عن البيك.
فاضطر البيك الى الرضوخ.
وفي اليوم التالي ساق اليه قطيعاً من مائة خروف، فسلمه ألدار الأرنب قائلا بلهجة احتفالية:
– فلتخدم سيدك الجديد كما خدمتني!
وارتعش صوته، وقبل الأرنب.
وبعد يومين اقتحم البيك الهائج خمية ألدار وهو يسب وأمسك بحناقه:
– أيها المحتال! أعد ماأخذته مقابل أرنبك الحقير! سأريك الويل اذا لم ترد ما أخذته!
فقال ألدار متهرباً:
– مهلا، اهدأ يابيك، ماذا بك؟ هل لدغك ثعبان؟ خبرني ماذا حدث؟
– حدث أيها الشقي أنك خدعتني، وجعلتني سخرية في السهوب كلها. فقد ذهبت في رحلة صيد مع اثني عشر بيك من المشاهير، وأخذت معي الأرنب في كيس. وأخذ البكوات يتفاخرون، هذا بحصانه، وذاك بصقره... وهنا أخرجت الأرنب، وقلت انه لايوجد عند أي واحد منهم مثل هذه الأعجوبة. قلت لهم «أن أرنبي ينفذ كل ما أمره به». فلم يصدقوا.

وتراهنا. عندئذ قلت للأرنب: «اذهب الى القرية وقل لزوجتي أن تجهز لنا وليمة، اذ سآتي مع اثني عشر شخصاً قبيل المساء». وركض الأرنب، أما نحن فطاردنا الصيد قليلا، ثم عدنا الى القرية جوعى كالذئاب. وكان الضيوف يقولون: «متى نصل!» ويستحثون الجياد. فأقول لهم: «اصبروا قليلا، فالطعام الشهي في انتظاركم، اذ الأرنب المدرب يعرف ما يفعله». وعندما وصلنا وجدنا الخيمة قذرة، غير مرتبة، والموقد بارد. فقلت لزوجتي: «لماذا لم تعدي العشاء لاثني عشر شخصاً كما أمرت؟». فاتسعت عيناها دهشة وقالت: «متى أمرت؟ هل حلمت بذلك؟» – «ألم يقول لك الأرنب المدرب شيئاً؟» – «أي أرنب؟ أفق!..» – «اذن فلم يأت الأرنب المدرب؟». فصاحت زوجتي: «ياناس، النجدة! زوجي جن!» وركضت مبتعدة عني، أما الضيوف فأمسكوا ببطونهم وهم يقهقهون، ونسوا جوعهم. وأخذوا يشيرون الي بأصابعهم: «ياسلام ياكرنباي، أدهشتنا بأرنبك المدرب!...». أرأيت ماذا فعلت أيها الصعلوك؟ الآن لاأستطيع أن أظهر أمام الناس بسببك. أعد الي الغنم أيها المحتال، وستدفع أيضاً ثمن خداعك لي.

فقال. الدار باخلاص:

– يا عزيزي البيك. أقسم لك بحياتي أنني أشاركك مشاعرك. ولكن يبدو أنك المذنب فيما حدث. قل لي: هل كنت تطعم الأرنب كل صباح عشب السماء؟

فارتج على البيك:

– عشب السماء؟ وهل كان مطلوباً أن أطعمه عشب السماء؟

– طبعاً. أن أغبى غبي يعرف أن الأرانب المدربة لا تستطيع أن تعيش يوماً واحداً بدون هذا العشب. لقد أسأت الى ذلك الحيوان المسكين فهرب منك.

فصاح البيك:

– ولكني لم أكن أعرف أنه بحاجة الى عشب السماء!

فسد الدار فم البيك:

– هس! اياك أن تقول ذلك لأحد! والا أصبحت في نظر الناس أغبى من الغبي. فماذا لو عرف بذلك أصدقاؤك المشاهير!

دمدم البيك بشيء ما ، وبصق وغادر الخيمة.

وظل الدار يضحك هو وزوجته حتى المساء.

وفي المساء، عندما أشرق الهلال في صفحة السماء، ساقا القطيع الى ذلك المسكين الذي نهبه كارنباي الجبار.

كيف عالج ألدار كوسى البيك

مر ألدار كوسى ذات مرة بأحد المراعي الصيفية، وراح يتلفت حواليه بحثا عن مكان يجد فيه طعاما. واذ به يرى قطيعا من الغنم، يضم زهاء ألف رأس، ينتشر متموجا بين الكثبان، ومعه راع واحد فقط، عجوز في أسمال قذرة.

وهبط ألدار على سفح الجبل وسأل الراعي:

– أغنام من ترعى ياأبتاه؟

فدمدم الراعي بلهجة عدائية:

– ومادخلك انت بمن يملك هذه الاغنام!

– عبثاً تغضب ياوالدي، فما قصدت بسؤالي الا خيراً. أشفقت على شيخوختك. فليس أمراً سهلا أن ترعى قطيعا كهذا. فما أقسى قلب سيدك البيك، عليه ألف لعنة!

فازداد العجوز غضبا وقال:

– فليقطع لسانك على هذه الكلمات! أي بيك سيدي؟ ليس هناك سيد علي. أنا نفسي البيك.

فصفر ألدار من الدهشة وقال:

– تلك هي المسألة! حسناً، ما أغرب ما حدث في هذه الدنيا. قد يحدث أن يختطف الكلب الجشع عظمة من كلب جائع. ومع ذلك فلا افهم لماذا لا تستأجر راعياً وانت بهذا الغني؟

– الراعي يحتاج الى أن تطعمة، الاتفهم هذا؟

فقال ألدار موافقا:

– هذا صحيح، فللحصان الشبعان ثماني أرجل... ولكن مع الراعي

تعيش في راحة أكبر. فسريعاً ما ستمرض اذا رحت تجري وراء الغنم في مثل هذه السن.

فقال البيك بضيق:

– تمرض، تمرض... أنا بالفعل مريض.

فمال الدار من سرجه وسأل:

– بماذا مرضت يا والدي؟

فنزع العجوز طاقيته الفراء:

– أنظر؟ رأسي كله أصابه القرع. وهذه البثور لا تدعني أشعر بالراحة من شدة الحك. وكلما حككتها ازددت رغبة في حكها أكثر...

فهز الدار رأسه مواسياً:

– هذا سيىء ياسيدي البيك... لابد أن تتعالج.

فانتفض العجوز:

– العلاج يعني دفع النقود. والمداوون آفاقون، لا يقدمون شيئاً بدون مقابل حتى لو كان ضربة سوط. وقد جاؤوني وحاولوا معي. أحدهم طلب ثمناً للعلاج جملا و والثانى طلب جواداً، والثالث قطيعاً كاملا... فطردتهم جميعاً. الأفضل أن يضيع رأسي على أن أتحمل هذه الخسائر.

فرفع الدار يديه فجأة وصرخ:

– سيدي البيك! أشكر ربك! ماأسعد حظك!

– مالك تصرخ، فليحترق لسانك! أخفت الغنم. فيم سعد حظي تكلم!

– حظك سعيد يابيك لانني أيضاً مداو، ولكني لست كبقية المداوين. فأنا أساعد الناس دون طمع في شيء، بل لأني قطعت عهداً على نفسي بذلك. واستطيع أن أداوي أي مرض...

حملق البيك بعنين جاحظتين من الدهشة، ثم سأل:

ومع ذلك، هلا أخبرتني ماذا تطلب مقابل العلاج يافتى؟

وفي نفسه قال «عبثاً تحول أن تتربع بجوار موقدي ياعزيزي. فلم يحدث أن عض العجل ذئباً».

فأجاب الدار ببساطة.

– ولم لا أخبرك. انني أطلب من الله الرحيم عمراً طويلا وميتة سهلة، ولا أطلب شيئاً آخر.

وخيل للبيك أنه أخطأ الفهم فسأل:

– هل تقول الحق؟

فهز الدار كتفيه:

– ولماذا اخدعك؟ الناس تكذب طمعاً في مكسب، فما الداعي للكذب من أجل الخسارة.

وقال البيك في نفسه: «يبدو أنه مداو معتوه. أن غباء الأغبياء يكثر من مال الأذكياء. يبدو أن الله ارسل الي توفيقاً غير متوقع. وهاهي، كما يقال، الفرصة قد جاءت لزيارة بخارى على جمل غريب. فلماذا لا اتعالج اذا كان ذلك لن يكلفني شيئاً؟ فاذا شفاني المداوي كان حسناً ذا لم يشفني لم أخسر شيئاً...»

وعلى الفور تبدلت ملامح العجوز، فصاح متهللا:

– مرحبا بمخلصي! فليستجب الله لدعواتك ورغباتك. لا تتركني أتعذب أنا العجوز وداوني، اظهر قدرتك السحرية!

فترجل الدار كوسى من على حصانه وقال:

– لا تتوسل الي، فسوف أعالجك بدون توسلات. اذبح خروفاً!

فانتفض البيك وتراجع:

– أذبح خروفاً؟ ألم تقل الآن انك تعالج مجاناً؟

– ومستعد أن أكرر ذلك مائة مرة. أنا لا أطلب شيئاً، بل هذا لمصلحتك. لكي أعالج القرع أحتاج الى كرش خروف. وقبل العلاج ينبغي أن يأكل المريض لحم غنم حتى الشبع. والا فلن يفيد العلاج.

واستغرق البيك في التفكير، وفي تلك اللحظة تهيجت قرعته حتى أنه هز رأسه بشدة كبغل يطرد عنه الذباب. ولاحظ الدار ذلك. فقال:

– حسناً يابيك، هل ستتعالج؟ أم أن كرش الخروف العفن أغلى لديك من حياتك؟

وزفر البيك وتوجه الى القطيع، فاختار خروفاً نحيلا وذبحه وسلخه، فأعطى الكرش للدار، ووضع اللحم في القدر.

ونضج اللحم. فأمر الدار كوسى:

– كل يابيك! ولا تهتم بي، فأنا لا أذوق اللحم.

فاقتطع البيك قطعة كبيرة وهو ينظر بارتياب الى الدار، ومن شدة جشعه التهمها دفعة واحدة.

فمضى الدار في الحاحه:

– كل يابيك، كل!

فمسح البيك فمه وقال:

– كفى، فالأيام قادمة. واذا اقتصدت في تناول الطعام فسيكفيني لفترة طويلة...

فضحك الدار قائلا:

– يالك من بخيل يابيك! تريد أن يكفيك خروف سنة كاملة؟ كلا ياعزيزي، فجلد الكلب لا يكفي لتغطية الخيمة. على كل هذا شأنك، أما أنا لدي وقت للكلام معك. هيا اجلس متربعاً في هذه الخفرة، وانزع طاقيتك، ولاتتحرك.

وأطاعه البيك. وشق الدار كوسى كرش الخروف بالسكين وأخذ يشده على رأس البيك كالطاقية مغطياً وجهه.

فصاح البيك:

– ماذا تفعل؟ انني قد اختنق.

فنهره الدار:

– اصبر، يامحترم. اصبر وردد هذه العبارة بصوت مرتفع: «ماأنت به الرياح. تذهب به الرياح». فاذا كررت هذه العبارة سبعة آلاف مرة ستشفي. واياك أن تخطىء في الحساب!

فقفز البيك من الحفرة:

– ومن يرعى غنمي؟

اطمئن، سارعاها أنا.

– أتظنني أحمق حتى أثق بك؟ سوف تهرب بها، فأنا لا أرى شيئاً الآن...

– اذا لم تكن عيناك تبصران فأذناك تسمعان. طالما كانت الغنم ترعى بجوارك فستسمع ضجها، فاذا اختفى الصوف تحس بذلك.

صمت البيك، فالمداوي محق في كلامه، رغم أنه شخص غريب الأطوار. فجلس في الحفرة، وكرش الخروف مشدود على رأسه،وراح يردد كالفقيه:

– ماأنت به الرياح، تذهب به الرياح... ماأنت به الرياح، تذهب به الرياح...

وعندئذ أخذ الدار كوسى يصيح في الغنم، واستخرج اللحم خلسة من القدر وأكل حتى شبع، ثم بعثر بقايا اللحم والأمعاء في المرعى. ثم جمع القطيع وساقه أمامه عبر الجبال والوديان، ولا يعلم أحد الى أين ساقه. ولكن منذ ذلك اليوم ظهرت الغنم لدى الفقراء الذين لم يملكوا في حياتهم شاة واحدة. فمنهم من أصبح يملك خمس شاة، ومنهم من أصبح يملك عشراً، أما ذوو الأسر الكبيرة فأصبحوا يملكون أكثر من ذلك.

وما أن تحرك القطيع حتى انقضت الطيور الجارحة على بقايا اللحم

والأمعاء المتناثرة، ورفرفت بأجنحتها، وصخبت وهي تتقاسم الفريسة. أما البيك فكان يسمع هذا الصخب فيظن أنها غنمه ترعى قريباً منه وبعد أن يصيخ السمع قليلا يواصل ترديد عبارته:

– ماأنت به الرياح، تذهب به الرياح... ماأنت به الرياح، تذهب به الرياح...

وقبيل المساء جاءت النساء من القرية لحلب الشياه. فنظرن الى هنا وهناك فلم يجدن سوى أسراب الطيور تحلق فوق المرعى، وصوت البيك يأتي من مكان وكأنما من تحت الأرض. ونظرن في الحفرة فصحن جميعاً:

– مالك جالس هنا؟ هل نويت أن تموت، أم تختبىء من شخص ما؟ وماهذا الذي على رأسك؟ وماذا تردد عن الرياح؟ وأين اختفت الغنم؟ هل وقع مكروه؟

وعندما سمع البيك هذه الأصوات أصابه الرعب، فقفز من الحفرة، ونزع عن رأسه كرش الخورف. وأدرك كل شيء. فراح يدور حول الحفرة صائحاً:

– النجدة! سرقوني! النجدة!

وخف على صياحه الفرسان من القرى المجاورة رافعين الهراوات، وعندما عرفوا بالأمر أنزلوا الهراوات، وراحوا يضحكون من البيك:

– ذلك المداوي ليس الا ألدار كوسى. فمن غيره يتفتق ذهنه عن حيلة كهذه؟ لقد اقتص من هذا البخيل لنا جميعاً. ماأروع حيلته: «ماأنت به الرياح، تذهب به الرياح... «كفاك عويلا يابيك، فما بقى لديك يكفيك الى آخر العمر!

وكظم البيك غيظه وسكت ولم يعد أمامه الا أن يحك رأسه. ولكن ماهذا؟ لم تعد فيها بثور! سقطت كلها. وأصبحت رأسه صلعاء ملساء كالبطيخة. وصدقوا أو لا تصدقوا فان ألدار، الواسع الحيلة، قد عالج البيك الأقرع وشفاه.

كيف زوج ألدار كوسى شابا فقيرا

في سالف الازمان عاش بيك غبي، شديد الغباء، بينما كان يعتبر نفسه موسيقاراً عظيماً. وعندما كان ينفخ خديه، وتبرز مقلتاه وهو يعزف لحناً ما على الناي، كان الناس يهربون الى السهوب، وتعوى الكلاب كأنما أحست بذئاب تقترب. وكان البيك كان يخيل اليه أنه لا يوجد عازف أمهر منه في العالم.

وكانت لدى هذا البيك ابنة حسناء. وأحبها شاب شجاع يدعى مالك. ولكن مالك كان فقيراً، فلم تكن لديه ماشية أو أموال. بينما طلب البيك مهراً كبيراً لابنته. وذات مرة رأى البيك الشاب مالك بجوار ابنته وسط مجموعةمن الشباب فصاح فيه:

– اغرب من هنا أيها الوقح، واياك أن تراك عيناي في القرية. الشحاذ ليس أهلا لابنة رجل وجيه. لن أزوجك ابنتي، اللهم الا اذا دهمني الموت فأعدت الى حياتي...

ورحل الشاب مهموماً حزيناً الى السهوب، فقابله ألدار كوسى، فسأله:

– ما لي أراك مهموماً يا صديقي؟ هل توقفت الشمس عن ارسال دفئها الى الأرض، أم كفت الأرض عن اطعام الماشية بالعشب؟

فصارحه مالك بكل شيء فقال ألدار:

– لا تحزن، ستكون الحسناء ذوجةلك. اعتمد على. ارقد على العشب اللين حتى المساء، أما أنا فسأزور البيك.

ولم ينتظر البيك مثل هذا الضيف:

– ما الذي جاء بك أيها الجوال؟

فانحنى ألدار محييا باحترام:

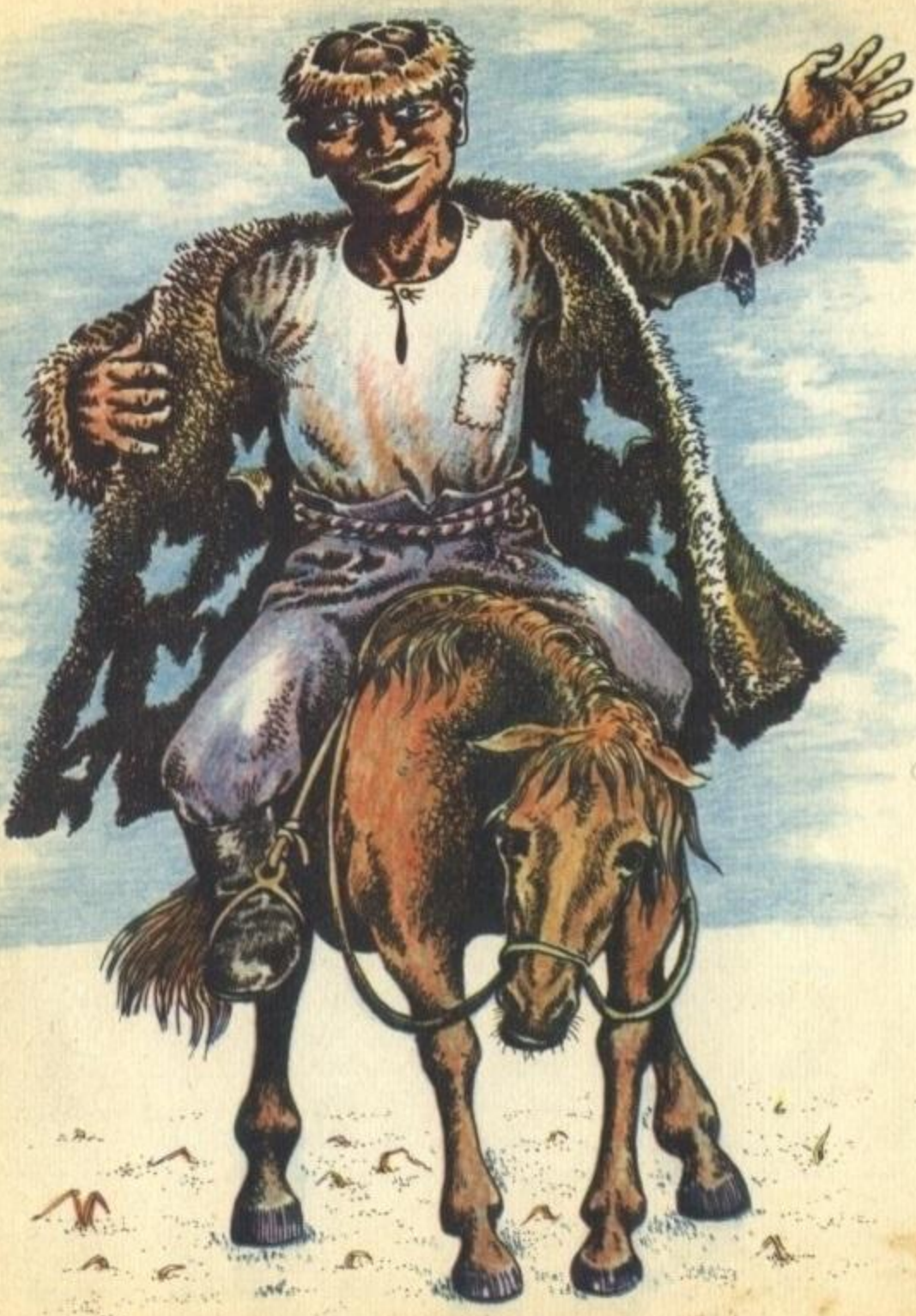

– جئتك أيها البيك المحترم برجاء كبير.
فامتعض البيك وسأل.
– برجاء؟ أي رجاء؟
– انني أرجو يابيك أن تعزف لي قليلا على الناي.
فانتشى البيك وعاوده المرح:
– انني أرى ياالدار كوسى أنك رجل ذكي محترم. تعال الى خيمتي، وسأعزف لك بكل سرور. أنت طفت بالسهوب وزرت كثيراً من الرحل، وقابلت آناساً مختلفين. فلتسمع عزفي، وقل لي هل هناك موسيقار مثلي في أي مكان.

وبينما كان البيك يتكلم راح الدار يتفحص الخيمة. كانت خيمة غنية! كانت الابسطة والوسائد والمخمل والحرير في كل مكان. وعلى الجدران علقت حيول ثمينة، وعند طرف الفراش صندوق مخروط، مغلق بقفل كبير.

فقال الدار لنفسه: «لن اخرج من هنا بدون الصندوق، ففيه على الارجح يخفظ البيك نقوده».

أما البيك فاخرج الناي، ووضعه على شفتيه، ونفخ بكل ماأوتي من قوة. فانطلق من الناي صرير مزعج، حتى أن كل من كان في القرية هرب الى السهوب، وعوت الكلاب بوحشية، ومضى البيك يعزف، والدار يصغي باستمتاع ويطقطق بلسانه.

وقال البيك منحياً الناي:
– مارأيك؟
فأجاب الدار وهويتظاهر بمسح دموعه من التأثر:
– ياعزيزي البيك. عندما كنت أسمع عزفك المدهش، نسيت تماماً انني على الأرض، بل حيل الي أن حوريات الجنة يحلقن فوقي. أنت حقاً موسيقار لامثيل له.

فمسح البيك ذقنه وقال بارتياح:
أن اعجابي بك يزداد ياالدار كوسى. أعتقد أنني ساهديك ردائي القديم.

فقال الدار:
أشكرك، أشكرك أيها البيك الغالي. ولكن لا تغضب مني ياسيدي، اذا قلت لك انني كنت أعرف شخصاً يعزف أفضل منك.

فعقد البيك حاجبيه ونظر الى ضيفه بغضب:

– ففيم كانت مهارة ذلك العازف؟

فقال الدار كوسى مصارحا:

– كان ذلك العازف يستطيع أن يعزف على الناي ثلاث ساعات مغمض العينين.

فضحك البيك قائلا:

– وهنا كل شيء؟ انا استطيع ان اعزف ولو خمس ساعات دون ان نظر الى أصابعي. ألا تصدق؟ اذن اعصب عيني بمنديل.

ولم يتردد الدار. وأخذ البيك ينفخ في الناي باجتهاد اكثر من السابق. فابتعد الناس اكثر في أعماق السهوب، وارتفع أكثر عواء الكلاب المجنون. اما الدار فخطا على البساط بحذر، ورفع الصندوق الثقيل على كتفه، وخرج متسللا من الخيمه.

وظل البيك يعزف حتى المساء، على ان تبلل تماما من العرق الغزير وأخيراً توقف لالتقاط أنفاسه وسأل:

– حسناً، ماذا تقول ياألدار؟

ولكنه لم يسمع جوابا.

ونزع البيك العصابة عن عينيه فصرخ بصوت خائر، اذ لم يجد في الخيمه لاالدار ولا الصندوق الغالي!

تجمع الناس حول خيمة البيك وراحوا يضحكون قائلين ان البيك ظل ينفخ في المزمار طارت نقوده.

وأخذ البيك يعول ليلة كاملة:

– أو، أوه، حلت نهايتي! انني اموت! أنا ضعت!

وفي الصباح جاء مالك الى البيك، ووضع امامه صندوقه المخروط دون أن يتفوه بكلمة.

وذهل البيك لحظة. تم انقض على الصندوق فتحه، فوجده مليئاً بالنقود حتى حافته. وراح البيك يحصى النقود بأصابع مرتعشة فوجدها كاملة.

فقال البيك وهو يشهق من الفرحة:

– مالك ياعزيزي. انت اعدت الي حياتي. خذ ابنتي! فليكن! ولكن لا تأمل في جهاز العروس. لن اعطيك شيئا. استطيع ان اعطيك مزماري فقط. انه مزمار جيد! فلتنفخ فيه كما تشاء، وعش سعيدا، أما انا فلست بحاجة اليه. عوضني الله عنهخيراً.

وهكذا تزوج مالك ابنة البيك. ولم يعرف البيك حتى آخر حياته كيف حصل مالك على الصندوق. اما نحن وانتم فنعرف ذلك جيدا.

واذن فهو جواد اصيل. ومن يملك جواداً كهذا سوى البيك؟ وداخل المرح نفس الدار.

«هاهي الفرصة الموفقة. لاأحد يدفع الذئب الى الفح، بل هو الذي يمضي اليه».

ورفع الدار طاقيته الى مؤخرة راسه بحماس. وفتح الرداء على صدره، وأرخى عنان الحصان، كأنما لا يستعجل، ورفع عقيرته بالغناء.

والتقى الفارسان، فأدرك الدار على الفور أنه لم يخطىء التقدير: فعلى جواد برذون أصيل تربع بيك ممتلىء، مرتديا معطفاً فخماً من فراء الثعلب.

وشد البيك عنان جواده وقال:

– مالك تصرخ؟ هل جننت من البرد؟

فأجاب الدار بمرح:

– أنا لاأشعر باي برد. واذا أردت الحقيقة فأنا مسرور بهذه النسمة المنعشة. ولولاها لاهلكني الحر.

فنهره البيك:

– كفاك ثرثرة فارغة! أنظر الى معطفي، ومع ذلك فقد بردت حتى النخاع. فهل أسمالك البالية تدفىء أكثر من فراء الثعلب!

فابتسم الدار بتسامح وقال:

– يبدو أيها الرجل الطيب أنك لا تخلو من ذكاء، ولكن تنقصك الخبرة. ألم تفطن الى حقيقة ردائي؟

فقال البيك بغيظ:

– أية خبرة أحتاجها لكي أقول ان ردائك كان يمكن أن يضم مائتي ثقب لو لم تكن فيه مائة رقعة؟

فزر الدار عينيه وقال مؤنباً:

– يالها من كلمات طائشة تقولها يابيك. الانسان الجاهل يبدو له العالم كله جاهلا. لقد لاحظت في ردائي عشرات العيوب ولكنك لم تفطن الى أن هذه العيوب هي سر القوة السحرية لهذا الرداء. فهو رداء مسحور. فالريح والبرد يدخلان من ثقب فيخرجان على الفور من ثقب آخر. ولهذا أشعر في ردائي الذي لا يقدر بثمن في زمهرير الشتاء وكأني في يوم حار من أيام الصيف.

سمع البيك هذا الكلام ففغر فاه دهشة. وقال في نفسه بحسد: «ياله من رداء! كيف استولى عليه من هذا الغفل؟»

كيف بادل ألدار كوسى رداء باليا بمعطف فراء

حل شهر فبراير (شباط)، شهر الصقيع والزمهرير، شهر العواصف الثلجية والانواء ومن قديم الزمان يقول الناس: «اذا جاء هوت، جاء الجوت».* فالويل من الزمهرير للماشية، والويل للفقراء. وحتى تحت أسقف الخيام لا تطيب الحياة، فكيف بمن يسكن العراء!

وفي يوم تلجي عاصف، حتى لا ترى فيه عرف الفرس امامك، مضى ألدار كوسى على ظهر فرس عجوز تغوص قوائمها في الثلوج، فتسقط بين الحين والحين على ركبتيها، وسواء حثثتا ام لم تحثها، فلن تسرع من سيرها.

أما ملابس ألدار فكانت طاقية ممزقة على رأسه، ورداء بالياً على كتفيه، وجورباً رثاً من اللباد على ساقيه. وتثلجت أطراف المسكين فراح يتململ في السرج وينكمش، وينفخ في راحتيه، ويلعن البرد والطريق، ولكنه لم يستسلم لليأس. كان يقول لنفسه: «الميت وحده هو الذي لا يأمل في فرصة موفقة».

وما ان قال ذلك حتى مزقت الريح أمامه غلالة الثلج فرأى فارساً يقطع السهوب نحوه. وكان الجواد يركض بحيوية فوق أكوام الثلج،

---

* «هوت» هو شهر فبراير و «جوت» كارثة تصيب الماشية بالهلاك نظراً لاحتفاء العشب من المراعي – **الناشر.**

وفي نفس الوقت كان الدار يقول لنفسه : «ماأعظم معطف يا بيك، ولكنه لن يبقى على كتفيك، كما لا يبقى الماء في دلو مثقوب».

صمت البيك، وشن بأنفه الأزرق من البرد، ثم قال فجأة:

هل تريد أن تبادلني؟ أعطيك معطفي من فراء الثعلب وتعطيني رداءك المسحور.

نزع الدار طاقيته وراح يخفق بها كأنما يبرد نفسه وقال ساخراً:

– أعطيك ردائي؟ كلا ياعزيزي. بدلا من اضاعة الوقت في الكلام الفارغ، اسرع الى دارك قبل أن تتجمد من البرد في معطفك من فراءالثعلب.

فاندفع البيك وقد شده الاغراء:

– اذا كان معطفي لا يكفيك زدتك نقوداً. الجوع الآن منتشر، وبالنقود لن تهلك.

– وماحاجتي الى النقود. «ذو البال الخالي يشبع من الماء».

فراح البيك يغريه:

– لا تعاند. سأعطيك فوق ذلك حصاني. أنظر أي حصان · هو؟ انه أفضل جيادي. انزع رداءك والبس معطفي، انزل عن فرسك واركب البرذون! هيا، لا تتباطأ!

«بينما الحكيم يفكر يكون الجريء قد أقدم». وهل هناك من هو أجرأ من ألدار؟ لم تمض خمس دقائق حتى كان يركض في السهوب على ظهر حصان البيك، مستدفئاً بفراء الثعلب.

وفيما بعد سأله أصدقاؤه:

– من أين حصلت على هذا المعطف؟ من أين جئت بهذا الجواد الأصيل؟

فغمز ألدار بعينه في مكر قائلا:

فليحدثكم بذلك البيك الذي أغراه ردائي البالي. أما أنا فأعرف شيئاً واحداً: «الأفضل أن يكون لك عقل بحجم الزر، على أن يكون لك جسم بحجم الجمل».

كيف انتصر ألدار كوسى على ثلاثة عمالقة

كان ذلك الصيف صيفاً هادئاً فى السهوب، فلم يهجم الأعداء، ولم تنشب حروب بين القبائل، ولم يحدث سطو على القطعان. وفجأة هبط من وراء الجبال، من حيث لا يدري أحد ثلاثة عمالقة. ونصبوا خيمتهم العملاقة تحت سفح الجبل، ومضوا يبحثون عن طعام لهم.

ولم البحث اذا كان الطعام بقربهم:

تسير الخيول في الوديان... عظيم!
وترعى الشياه على الكثبان... عظيم!
والماعز يقفز فوق الأحجار... عظيم!
وعلى الشطآن تنام الأبقار... عظيم!

فانقض العمالقة على القطعان وأخذوا يلتهمونها. وصاحت الماشية، فهب الرعاة لتخليصها، ولكن كيف يستطيعون مقاومة العمالقة! اما العمالقة، فبعد أن ملأوا بطونهم، بدأوا يلهون باقتلاع الأحجار والصخور المستقرة منذ آلاف السنين، والتي يزن الواحد منها ألف قنطار، يقذفونها من مكان الى مكان.

وأنت الأرض من شواطىء الأنهار، وهربت الحيوانات من جحورها وعرائنها، وطارت الطيور من أعشاشها، وجلا الرعاة عن المراعي الخصبة الى السهوب القاحلة.

وتجمع الشيوخ الكبار وزعماء العشائر والقرى وأخذوا يفكرون في

كيفية التخلص من هذه المصيبة، واستعطاف العمالقة. وأمسكوا بذقونهم وهم يفكرون يوماً، وثانياً، وثالثاً ...

وبينما كانوا يفكرون مضى الدار كوسى يعمل. فرتق نعليه، وبدل قميصه، وصنع عصاة، وأخذ معه كيساً به جبن طري طازج، ومضى الى الجبال مباشرة، الى منزل العمالقة.

وكان كل من يقابله يحاول اثناءه عن عزمه.

– ارجع ياألدار كوسى والا هلكت... اهرب معنا بعيداً عن الشر، انج بجلدك!

فيقهقه ألدار كوسى مجيباً:

– الأرنب يموت من اهتزاز أعواد الغاب، والبطل يموت من أجل الشرف!

– ستقول غير هذا الكلام أيها الضحوك عندما تلقى العمالقة. ستجبن فوراً ياعزيزي.

فيقول ألدار:

– لو طاردت الجبان طويلا فسيصبح شجاعاً، ولو أهنت الضعيف بشدة فسيصبح قوياً.

– بالشجاعة وحدها لن تهزم العمالقة. ولن تجد في الدنيا كلها قوة تواجههم.

– الحجر يكسر الرأس، واليد تكسر الحجر. هل سمعتم بذلك؟ لن يناك مني العمالقة شيئاً، فلكل جبار علة.

وسار ألدار كوسى طويلا، وهاهي الجبال العالية ذات القمم الثلجية تلوح. وتقدم نحوه عملاق كأنما جبل حي.

وعندما رأى ألدار كوسى هذا العملاق المهول اختبست أنفاسه، ولكنه قال لنفسه:

«يموت الجبان ألف مرة، ويموت الشجاع مرة. فمم أخاف. العريان لايخشى البلل».

وتوقف العملاق، ووضع قبضتيه في خصره، وانحى ليتفحص هذا الرجل. وتوقف ألدار أيضاً، وراح يتفحص العملاق أيضاً، ولكن من اسفل الى أعلى وبعد أن تفحصه طويلا قهقه فجأة:

– ها – ها – ها!

ولم يكن العملاق قد سمع في حياته ضحكاً بشرياً، فزمجر:

– ماذا تقول؟

– لاأقول شيئاً. بل أضحك منك.
– تضحك؟ وماهو المضحك في؟
– تبدو لي ضعيفاً جداً ياعملاق.
– وهل أنت أقوى؟
– لست أدري، ولكن أستطيع أن أعصر الحجر.
وانحنى الدار كوسى كأنما يلتقط حجراً، بينما كان يخبىء في قبضته قطعة جبن كبيرة. وعصر الجبن في قبضته بقوة فتناثرت قطرات اللبن من بين أصابعه. وقال للعملاق:
– هيا يا عملاق، حاول أن تفعل مثلي!
وتناول العملاق حجراً، وظل يعصره طويلا، حتى تصبب عرقه غزيراً، فلم تخرج المياه من الحجر، فألقاه بعيداً وقال:
– الآن أرى أنك قوي. فلماذا نتخاصم. هيا معي أيها البطل وانزل علي ضيفاً.
واقتربا من خيمة العمالقة. يا لها من خيمة! لو طفت حولها بالعربة ثلاثة أيام فلن تحيط بها، أما بالحصان فلن يكفيك يوم لذلك.
ودخلا. وحيا الدار كوسى باحترام، أما العملاق فراح يشيد بقوة ضيفه وشجاعته.
وأجلس العمالقة الدار كوسى في الصدارة، وأخرجوا من القدر، الذي كان يشبه ربوة مقلوبة، ثوراً مذبوحاً وأخذوا يضيفون ضيفهم.
لكن الدار اعتذر عن تناول الطعام قائلا:
– أشكركم، ولكني أكلت في الصباح حتى شبعت. التهمت مائة ثور وألف شاة. كلوا أنتم وتقووا، فمنظركم يثير الرثاء...
وأعمل العمالقة أسنانهم وأشداقهم، ففرغ القدر الضخم في لحظة. بعد أن شبعوا دعوا ضيفهم للعب في الخلاء. فقال الدار كوسي:
– انني أحب اللعب، اذا كان نظيفاًبلا غش، والويل لمن تسول له نفسه أن يخدعني...
– لاتخش شيئاً ياعزيزي. أن لعبنا بسيط. فمن يرفع أثقل صخرة ويلقي بها الى أبعد مسافة، هو الفائز.
أمسك العملاق الأول بصخرة بحجم الخيمة، وطوح بها الى مسافة تبلغ مرمى السهم. ورفع العملاق الثاني صخرة أكبر مرتين، وطوح بها الى مسافة أبعد مرتين. والعملاق الثالث رفع صخرة أثقل وطوح بها الى مسافة ثلاثة اضعاف مرمى السهم.

وأنت الأرض، وفاضت المياه، وارتفع الغبار الأسود حتى عنان السماء.

وال العمالقة لألدار:

– جاء دورك لترينا قوتك أيها البطل.

فتثاءب ألدار كوسى وتمطى، وحك ظهره بكسل، وقطب وجهه وقال باستياء:

وهل هذا لعب؟ لستم جديرين الا باللعب بالحصى مع صبية القرى. أما أنا فاذا قذفت فلأقذف جبلا.

فصاح العمالقة:

– جبلا؟

فقال الدار كوسى مؤكداً:

– نعم، جبلا. ولكن ارجو أن تنصحوني كاصدقاء بالجهة التي أقذف بالجبل اليها. فلو قذفته نحو الشرق فسيسد الطريق على النهار، فيحل ليل دائم. واذا القيت به الى الغرب سد الطريق على الليل، فيحل نهار دائم، وهذا أيضاً أمر غير مرغوب. هل ألقى به الى الشمال؟ اذن فسيسد الطريق على ريح الشمال فيهلك كل شيء حي بسبب الحر. واذا القيت به الى الجنوب فسيسد الطريق على الرياح الدافئة، وعندئذ تتجمد الأرض الى الأبد. أفضل شيء أن ألقي بالجبل الى أعلى!

فارتمى العمالقة على قدمي الدار يتوسلون:

– أيها البطل العظيم. نحن نقر بفوزك، لكن نرجوك الا تلقى بالجبل الى أعلى.

فأصر الدار:

– كلا، لا أنا اريد انتصاراً هدية من أحد. ان لي الحق في أن أرمي وسأرمي الجبل الى حيث أشاء.

فراح العمالقة يستعطفونه:

– ياسيدنا ومولانا، ارأف بنا. افعل ماتريد بالجبل لكن دعنا أولا نعود الى ديارنا.

فأخذ الدار يوبخهم:

– عيب عليكم! لقد وعدتم أن تلعبوا بشرف، فاين نزاهتكم؟ فالناس تقول: «الكريم لا يمن بهداياه والأصيل لا يحنث بوعده». واذن فوعودكم كالرماد، تطير الى حيث تذروها. الرياح... ولكن لابأس. رغم غشكم فسأطلق سراحكم. فحسب تقاليدنا نغفر للغرباء ما لا نغفره حتى لآبائنا. ولكن

أأسرعوا! والافانني أتحرق شوقاً إلى قذف الجبل الى السماء، عروقى تنفر من الرغبة!...

ومضى ألدار يشمر عن ساعديه. ورغم أن ذلك لم يستغرق طويلا، الا أن العمالقة كانوا قد اختفوا.

أما الشيوخ ذوو اللحى البيضاء فكانوا لا يزالون جالسين مهمومين يفكرون في تدبير.

وفجأة سمعوا صوت ألدار كوسى المرح:

– السلام عليكم أيها الشيوخ الحكماء. اعذروني على تدخلي، رغم أنه لا يليق بأجرد مثلي أن ينضم الى مجلس موقر كهذا، ولكن قد يحرث أحياناً أن تنزل الماء بحذائك. كفاكم تفكير! هاتوا الحلاوة! لقد رحل العمالقة الرهيبون عن أرضنا.

فهز الشيوخ لحاهم بغضب قائلين:

– ماهذا الكذب أيها الثرثار! هل هذا وقت المزاح!

فضحك ألدار كوسى:

– كل ما يقوله الفقير يعتبرونه كذباً! اذا لم تصدقوا آذانكم فصدقوا عيونكم.

وخرج الشيوخ من الخيمة فرأوا الفرحة والمرح والتهليل تعم كل مكان. وعاد الرعاة الى المراعي وهم يغنون ويرقصون. وعاد السلام الى السهوب من جديد.

تسير الخيول في الوديان... عظيم!
وترعى الشياه على الكثبان... عظيم!
والماعز يقفز فوق الأحجار... عظيم!
وعلى الشطآن تنام الأبقار... عظيم!

كيف علم ألدار كوسى البيك زرع الحمير

الحمار لمن لا يملك حصانا يعتبر دابة كما يقال. أما كمال المسكين، الذي كان له أبناء كثيرون، فلم يكن يملك حتى حماراً. ولذلك فقد فرح جداً، كأنما زوج ابنته بالسلطان، عندما وافق أقربائه الأغنياء، بعد توسلات كثيرة، بأن يعيره ثلاثة حمير، لينقل على ظهورها الحطب الى المدينة لبيعه هناك. وقال له قريبه:

– أنت مسؤول عن الحمير فاياك أن يصيبها أذى، أما مقابل هذه الخدمة فستعمل عندي ثلاثة أشهر.

وحمل كمال الحمير بحطب السكساول، ومضى وهو في غاية المرح، يفكر:

«لو بعت الحطب بثمن جيد فسأشتري نعجة. فمن يملك ولو نعجة واحدة فليس فقيراً. وستلب ذوجتي النعجة فتطعم الأولاد لبناً. وما أن تلد النعجة مرة، فأخرى، فثالثة حتى يظهر الدهن في طعامنا، والصوف للكليم ولترقيع الخيمة... وبمرور الوقت يصبح لدي مهر. وصدق من قال: «لا تستهتر بالمهر، ففي الصيف سيصبع جواداً». والجواد هو جناحا الرجل. فالراجل أمام الراكب مثل المريض أمام الصحيح. وعندما امتطي الجواد سأصبح انساناً. عندها ستبدأ الحياة الحقة يا كمال!..».

وشرد المسكين مع أفكاره حتى نسى كل شيء في الدنيا، ولم ينتبه الى المستنقع الصغير الذي كان يعترض طريقه وبدلا من أن يدور حول هذا المستنقع، ساق الحمير الى الأمام مباشرة.

وهنا وقعت المصيبة، فقد غاصت الحمير في الوحل.. غاصت في البداية حتي بطونها، ثم حتى ظهورها. وأسرع كمال لينقذها، فكاد أن يهلك هو نفسه، وبأعجوبة تخلص من وحل المستنقع. ولم يتمكن الا من انقاذ خرج السفر. أما الحمير فلم يعد من الممكن الوصول اليها. كانت رقابها المشدودة فقط هي التي تلوخ فوق سطح المستنقع.

ومهما هرول كمال، ومهما صاح حولها فلم يسمعه أحد، اذ لم يكن هناك أثر لحي»...

وحل الغروب، فانهار المسكين على الأرض، وأخذ يعول:

– آه، آه، لوأن الموت جاء وأخذ روحي!

ومماأنقال ذلك حتى سمع صوتاً خلفه:

– ماذا تريد يا رجل؟

فتجمدت أوصال كمال رعباً.. ترى ماذا سيحدث الآن؟ ورفع رأسه فرأى أمامه فارساً على ظهر جواد أصيل.

فدمدم كمال وهو لا يكاد يحرك لسانه من شدة الرعب:

– ارحم يا موت كمال المسكين، لا تقبض روحه! ساعدني على اخراج الحمير من المستنقع.

– عن أي حمير تتحدث؟ خبرني، ماذا حدث لك؟

فأخبره كمال بكل ماجرىله. ثم عاد يتوسل اليه:

– لا تقبض روحي يا موت، ودعني أودع زوجتي وعيالى. فما أن أعود الى البيت حتى يكسر قريبي رقبتي لأنني أهلكت الحمير.

فقهقه الفارس قائلا:

– آه يا كمال! ألم تعرفني؟ أنا لست الموت، أنا ألدار كوسى. ويبدو أنني جئت في الوقت المناسب. لا تحزن ياصاحبي. الصباح رباح، وفي نوره سنجد الطريق.

ونزعا سرج الحصان، ورقدا فناما.

وفي الفجر هب ألدار كوسى من نومه، أما كمال فكان مستيقظاً منذ وقت طويل. كان يتطلع بحزن الى المستنقع، حيث غاصت الحمير خلال الليل فلم تظهر فوق المستنقع سوى ثلاثة أذواج من الآذان.

ولم يكن ألدار كوسى يهوى تضييع الوقت، فقال لكمال:

– اذهب الى السهوب، وأجمع في خرجك ماتستطيع جمعه من بعر الأرانب، وعد بسرعة.

وبعد فترة عاد كمال بالخرج مملوءاً.

فقال ألدار:

– اركب الأن حصاني، وعد الى البيت على مهل. واياك ان تضيع الخرج! لن تقطع نصف الطريق حتى يتحول بعر الأرانب فيه الى نقود. ألا تصدق؟ اذا لم يتحقق ما أخبرتك به فخذ حصاني. واذا تحقق فلا تنس أن تقيم وليمة بهذه المناسبة.

ولم يفهم كمال شيئاً مما قاله الدار كوسى. ترى هل يمزح أم يتكلم عن جد؟ وما أكثر ما يذاع عنه من غرائب، ولكنه لم يسمع بشيء مثل هذا.

ومضى كمال يساوره الاضطراب والقلق.

أما ألدار فتربع على حافة المستنقع مباشرة، حيث غرقت الحمير، وراح ينتظر. والجميع يعرفون أنه اذا كان ألدار كوسى ينتظر شيئاً، فلابد أن يصل الى غرضه.

وبالفعل.. فقبل أن يجف الندى ترددت من بعيد صلصلة أجراس ثيران، وثغاء ابل، وصهيل وخوار وثغاء، وهمهمة أصوات بشرية ونباح كلاب. لقد كان ثمة قطيع كبير يسير في السهوب. وفي المقدمة، سار بيك على صهوة جواد رهوان، رداء حريري، وهو يتطلع الى قطعانه.

ووصل البيك الى ألدار كوسى فقال:

– مالك تجلس وسط السهوب كالأحمق؟

فأجابه ألدار:

– الأحمق هو الذي ينظر فلايرى، واذا رأى لا يفهم. فلتحكم اذن يا بيك أينا الأحمق. أما اذا أردت الحقيقة، فاني جالس هنا لغرض، وهو أن أحرس ذرعي.

– وماذا ذرعت؟

– انظر الى الغرسات وستفهم من نفسك..

وأشار ألدار كوسى بيده الى المستنقع.

– آذان حمير؟ ولماذا تبرز آذان الحمير من الوحل؟

– آه يابيك. ألست أنت المقصود بالمثل: «الأفضل الا يكون لديك قطيع من ألا يكون لديك عقل». آذان الحمير هي النبت الذي خرج مما زرعته. انني كما ترى ياسيدي أزرع الحمير. بالأمس فقط بذرت بذور الحمير، وها هي النبتات قد ظهرت اليوم!...

نظر البيك الى ألدار كوسى بارتياب، ثم قال:

– انني أعيش منذ أربعين عاماً في هذه الدنيا، وأعرف أن

المزارعين يزرعون القمح والقطن، والشعير والشوفان، ولكني أسمع لأول مرة عن زرع الحمير ...

– لا تدهش يابيك، فمن المستحيل أن يعرف المرء كل شيء. من يقول «اعرف كل شيء» فكأنه قال «انني أموت». واذا شئت الصراحة فأنا لم أكن أعرف شيئاً عن بذور الحمير، الى أن هداني الله الى رجل طيب، يدعى كمال. وهو عائد الى وطنه من بغداد، ويحمل معه من هناك خرجاً مليئاً بالبذور العجيبة. وقد حصل عليها بمشقة بالغة متعرضاً لأخطار كبيرة. وبالأمس التقيت مع كمال في هذا المكان، وتحدثنا فأراني بذوره. ولكن منظرها غريب، تشبه بالضبط بعر الأرانب. ولكن الحصان لا يقدر بلونه بل بخفة حركته. وحصلت من كمال على حفنة بذور وألقيت بها في الوحل. وظننت أن ذلك لا فائدة منه، ولكن أنظر أية نبتات ظهرت خلال ليلة واحدة فقط! وبعد أسبوع سيصبح لدي قطيع من الحمير. فاذا شئت بعته، واذا شئت أبقيته. لايحزنني الا شيء واحد: لم يكن معي نقود لأشتري الخرج كله. لقد طلب كمال مائة دينار ثمناً له. ويا له من ثمن تافه. بمائة دينار كان من الممكن أن أكسب ألفاً ...

فقال البيك في سره: «ابتسم الحظ لهذا الأجرد، فلتخطفه الأبالسة، لكنه لم يستطع أن يقبض على سعادته بكلتا يديه. آه لو قابلت أنا كمال!» وقال:

– ألدار ياعزيزي، أنا أيضاً أود أن أحذو حذوك وأزرع الحمير. فكيف أحصل على بذور الحمير؟ قل لي، في أي اتجاه مضى كمال؟ وهل حصانه حصان طيب؟

فأجاب ألدار كوسى:

– حصان كمال لابأس به، لكن حصانك أحسن. اتجه مباشرة وستلحق به عند منتصف النهار. أبلغه سلامي وأخبره أنني بخير، وسأحضر وليمته حتماً كما وعدته رعيا طيباً يابيك!

وألهب البيك ظهر الجواد، فاختفى عن الأنظار في لحظة.

اما ألدار فراح يضحك في اثره:

– ألا فلتطاردك المصائب بمثل هذه السرعة التي تجري بها أيها الجشع وراء بعر الأرانب!

وفي منتصف النهار لحق البيك بفارس يحمل خرجاً، فصاح به وهو يقطع عليه الطريق:

– هل أنت كمال؟

فأجاب كمال بوجل:
– نعم أنا.
– اسمع ياكمال. انا أعرف كل شيء عنك وعن خرجك ...
فدق قلب كمال بشدة من الخوف وقال في نفسه: «هاهي مصيبة أخري! كنت أهرب من المطر فوقعت في الثلج ...»
الا ان البيك مضى يقول:
– سأشتري منك الخرج. لقد أخبروني أنك تريد مائة دينار ثمناً له. حسناً، دعنا لانساوم. هذه هي المائة دينار. هات الخرج!
وقبل أن يفيق كمال من دهشته كان كيس النقود بين يديه، والخرج على كتف البيك.
وأدار البيك السعيد حصانه ولوح بالسوط لكمال مودعاً:
– وداعاً ياكمال. وعندما ترى الدار كوسى قل له انني بلغت ما أريد. فليتميز غيظاً من أن الخرج أصبح ملكي لا ملكه!
ومأأن قال ذلك حتى اختفى
وبعد عدة أيام أقام كمال، في خيمته الجديدة الواسعة، وليمة حافلة. وأصبح لديه الآن مايضيف به الأصدقاء.
وامتلأت الخمية بالضيوف، كما فرش لهم حولها أكلمة بيضاء مطرزة.
وحضر الوليمة الدار كوسى أيضاً. واستقبله كمال كما يستقبل أخاً شقيقاً بعد فراق طويل. وقال والدموع تترقرق في عينيه:
– كيف أشكرك ياصديقي الدار؟ لقد أنقذت حياتي، ووهبت السعادة لأسرتي.
فابتسم الدار كوسى وقال:
– وعلام تشكرني أنا ياكمال؟ لقد حصلت على نقود ليست نقودي. ورغم أن البيك خسر قليلا فلا داعي للاشفاق عليه. «فالجواد الشبعان لن يهزل على الفور» فليذكر هذا الأحمق ان «من يهجم على الطعام يكوي فمه».
وقص الدار كوسى على أصدقاء كمال كيف خدع البيك فتعالت الضحكات.
وفي اليوم التالي كان سكان السهوب جميعاً يرددون هذه القصة. البيك الذي اشترى «بذور الحمير» هو وحده الذي لم يسمع بها. وفي ذلك الوقت كان هذا البيك يجلس خفيةعند المستقع، منتظراً ظهور نبتات الحمير من وحل المستنقع.

كيف سلى ألدار بيكين صيادين

حل أكباي ضيفا على كارباي، ثم حل كارباي ضيفاً على أكباي، ثم خطر للصديقين أن يذهبا معاً في رحلة لصيد الطيور. فأخذا عدة الصيد وأسرجا حصانيهما وانطلقا الى بحيرة بعيدة.

وبينما يسيران أبصرا شخصاً يهيم في السهوب.

فأطلقا العنان لجواديهما. ولاحقاه صباحاً ونهاراً فلم يدركاه الاقرب المساء. وعندما أبصراه وجدا أنه ألدار.

– ماأسرع سيرك ياألدار كوسى.

– التؤدة تليق بالأغنياء، والسرعة تليق بالفقراء. ومن يسرع السير يقطع مسافة أكبر. ومن طريقه أطول فعمره أطول.

فسأله الصيادان:

– هل هناك أخبار؟

– نعم.

– ماهي؟ قل لنا.

– أصاب أحد الأبطال بسهم واحد حماراً وحشياً في حافره وأذنه معاً.

فهز البيكان رأسيهما معاتبين:

– أما تزال تختلق الحكايات ياألدار كوسى! لا يمكن بسهم واحد أن تصيب وحشاً في حافره وأذنه معاً.

– بل اتضح أن ذلك ممكن. فعندما أطلق البطل سهمه كان الحمار الوحشي يحك أذنه اليمنى بساقه الخلفية.

فأحرج الصيادان وقالا:

– طبعاً في هذه الحالة ممكن ... وماذا لديك أيضاً؟
– يقال أن نفس البطل أسقط بسهمه نجماً من السماء.
ومن يصدق ذلك يا الدار كوسى؟
– اذا كنتما تشكان فانتظرا حتى الليل، وعدا النجوم. ومهما حاولتم فستجدونها ناقصة نجماً اوحداً.
فمن ذا الذي يستطيع أن يتغلب على الدار كوسى في الجدل؟
وسأله الصيادان:
– وهل تجيد الرماية يا الدار كوسى؟
فأجاب:
– السهم الحاد يصيب واحداً، أما الكلمة الحادة فتصيب الآلاف.
– حسناً ياسليط اللسان، انضم الينا. نحن سنقوم بصيد الطيور، وأنت ستقوم بتسليتنا والترفيه عنا. اتفقنا؟
– اتفقنا.
ونصبوا خصاً، وأشعلوا ناراً، ثم أووا الى النوم.
وفي اليوم التالي عاد أكباي وكارباي من الصيد ببجعة بحجم خروف سمين. وسألاه:
– كيف سنقسم البجعة يا الدار كوسى. هيا انصحنا.
– حاضر، أليس عملي أن أسليكما؟ ولذلك ستكون نصيحتي مسلية. فلتكن البجعة من نصيب الذي لا ينطق بكلمة حتى ظهور اول نجمة.
– يالك من شيطان يا الدار كوسى! حسناً، فليكن كما قلت.
وجلسوا ثلاثتهم امام النار وركنوا الى الصمت، كأنما ملئت أفواههم بالرمل. وهاهو النهار يميل الى الغروب ولم ينطق أحدهم كلمة. عندئذ أخذ الدار كوسى البجعة وراح ينتف ريشها، ثم نظف بطنها، ووضعها في القدر وعلق القدر فوق النار.
وكان أكباي وكارباي ينظران الى ذلك بدهشة، ودون أن يتفوها بكلمة، فمازال الوقت طويلا حتى ظهور أول نجمة.
وعندما نضجت البجعة، جلس الدار كوسى الى القدر وانقض على البجعة أكلا دون أن ينبس.
وحدق أكباي وكارباي في فمه مباشرة وكأنهما يريدان اطلاق النار عليه بنظراتهما، ولكنهما أيضاً لم ينبسا. ولكن عندما مصمص الدار آخر عظمة انقضا عليه دفعة واحدة.
– ماالذي تفعله أيها الشقي؟ هذه بلطجة!

فلعق الدار كوسى أصابعه وقال:

– لماذا تصرخان؟ وهل أنا خالفت الاتفاق؟ لقد اتفقنا أن البجعة تكون من نصيب من لا ينطق حرفاً حتى ظهور أول نجمة. ولكنكما صرختما. واذن فالبجعة من نصيبي. وطالما هي من نصيبي فقد تعشيت وتلذذت.

وحك الصيادان لحيتيهما، وأويا الى الفراش جوعانين.

وفي اليوم التالي اصطاد أكباي وكارباي أوزتين سمينتين وديكاً صغيراً. وسألا الدار كوسى:

– كيف سنقسم الصيد؟

فأسرع الدار كوسى يقول:

– يا أكباي أغا وكارباي أغا المحترمان. انتما اثنان أما أنا فوحيد مسكين. والوزتان أيضاً اثنتان، والديك وحيد. خذا الديك واعطياني الوزتين، وبذلك نتوزع هكذا: انتم ثلاثة، ونحن ثلاثة.

فقال البيكان بريبة:

– ايه أيها المحتال، مهلا، وهل يمكن أن يتساوى الديك مع الوزتين؟

فأشاح الدار كوسى بيديه مستدركاً:

– أعوذ بالله ياسيدي! لم يدر بخلدي أبدا أن أساوي الديك الهزيل بالوزتين السمينتين. فلا يمكن أن يخط لأحد في بال أن يساوي بين الدار كوسى اليتيم المجهول وبينكما أيها السيدان النبيلان. ولهذا أقترح عليكما أن تأخذا الديك بدلا مني، وسآخذ أنا الوزتين بدلا منكما.

نظر الصيادان بعضهما الى بعض، ثم الى الدار، فالى الصيد، ولم يفقها شيئاً، فقد أدار الدار رأسيهما تماماً. فشرعا يأكلان الديك وهما يتنهدان.

أما الدار فأكل حتى شبع، ووضع ماتبقى من لحم الأوز في كيسه.

وفي اليوم التالي اصطاد البيكان لقلقاً. فكيف يقتسمونه وهم ثلاثة والطائر واحد؟

فاقتح عليهما الدار كوسى:

– هيا نضع اللقلق في القدر ليستوي على مهل. وأثناء ذلك دعونا ننام قرب النار. ومن يرى منا أحسن حلم، فهو الذي يقسم اللقلق كمايشاء.

ورقدوا. تمدد الدار كوسى فنام فوراً. أما البيكان فلم يكن في نيتهما أن يناما. «نم ياالدار وشخر! فبينما تشخر سنؤلف أحلاماً لم يرها من قبل ذكي أو أحمق». وظل البيكان يتقلبان من جنب الى آخر حتى منتصف الليل وهما يتشممان رائحة اللحم. ثم داهمهما النوم، فناما حتى الصباح.

وعندما أفاقا كانت الشمس عالية في السماء، والدار كوسى جالس غير بعيد يدندن لحناً ما، بينما الجمرات تحت القدر تخبو.

وبدأوا يروون الأحلام. وبدأ أكباي حسب الاقدمية:

– لقد رأيت حلماً مدهشاً.. كأنما لم أكن أنا، بل أنا حصان أسطوري. وعلى ظهري جناحان هائلان، وفي سيقاني حوافر فضية، وعلى ظهري يمتد عرف ذهبي متمرج. وفجأة ظهر أمامي بطل عظيم والبسني عدة ذهبية، وقفز الى ظهري. فهززت أنا عرفي، وضربت الأرض بحوافري، وخفقت بجناحي، وصعدت الى السماء...

فقال كارباي:

– حلمك مدهش حقاً ياأكباي، ولكنه فقط بداية حلمي. فذلك البطل الذي صعد على ظهرك الى السماء كان أنا. وعندما وصلت الى السماء لم أخف ولم ارتبك. ورحت اركض بالفرس أبعد فأبعد. ومن أمامي الشمس، ومن ورائي القمر، وتحت أقدامي النجوم ومن فوق رأسي تحلق حوريات الجنة ويشرن لي الى الطريق نحو العرش الالهي...

فقال الدار كوسى:

– آه، ما أحلى حلميكما ياسيدي! ومهما ألفت فلن تبتكر شيئاً أفضل. أما انا فليس عندي ما أقوله. فقد رأيت في الحلم كل ما رأيتماه: رأيت كيف تحول أكباى المحترم الى حصان مجنح، وكيف أصبح كارباي المحترم بطلا. وعندما بلغ الأمر حد صعودكما الى السماء، بكيت أنا بحرقة وقلت لنفسي: «لن يعود مطعماي ثانية، لقد هجرا الدار اليتيم. ولم يعودا بحاجة الى اللقلق، فلابد أن هناك طعاماً أفضل عند العرش الالهي. ولكن لن أدع الطعام «الأرضي يضيع هدراً...». ومن شدة حزني التهمت اللقلق صدقة على روحيكما...

– هل أكلته في الحلم أم في اليقظة؟ أجب أيها الافاق!

– صاح أكباي وكارباي معاً، واصطدم جبيناهما عندما أطلا في القدر. لم يكن هناك سوى عظام اللقلق.

فانهال البيكان على الدار كوسى:

– شبعنا من مزاحك السخيف! اغرب من هنا!

فقال الدار كوسى:

– حسناً. سأمضي في طريقي. الأرض كلها مأوى لمن لا بيت له. ولكن اين أجد مكاناً لا يغضب فيه الحمقى من مزاح الأذكياء؟

واختفى عن الأنظار بين أعواد الغاب.

لماذا اصبح ألدار كوسى أجرد

ذات مرة اثناء احدى الولائم، سأل أحد ما ألدار كوسى:

– اسمع يا ألدار.. لماذا لا تنبت لحيتك؟

وكأنما كان ألدار كوسى ينتظر هذا السؤال فقد رد على الفور:

– من قبل أن أولد بوقت طويل، تجادل أبي وأمي حول المولود القادم وهل سيكون ولداً أم بنتاً. وقال أبي مؤكداً: «سيكون ولداً»، بينما أصرت أمي: «كلا، بل بنتاً!» ولا بد أن أصارحكم بأنني، قبل مولدي، كنت أحب والدي جداً واحترمهما. ولهذا فقد ولدت ولداً لكي أرضي أبي، ولكيلا أحزن أمي، أصبحت بلا شوارب أو لحية. فالحياة ياأصدقاء كثيراً ماتواجهنا بمواقف صعبة، ولا ينبغي أبداً أن نرتبك. فاذا جعلتك الأقدار راعياً، فعليك أن تجد المرعى!

وضحك الجميع، اما ألدار فقد ألقى بمزيد من الحطب في النار واستطرد:

– وعموماً، فما جدوى الشوارب والحية؟ اذا أردت ان تبصق الى أعلى عاقك الشارب، فاذا أردت أن تبصق الى أسفل عاقتك اللحية.. أما أنا فأبصق الى حيث أشاء دون عائق. أليس ذلك مفيداً؟ لكن الفائدة الرئيسية ليست في هذا. خبروني من ذا الذي لا يشيب من السنين والمصائب؟ أما أنا فليس للزمن ولا للمصائب سلطان علي. ولذا يقول المثل: «الجمل القوي لا يعرف التعب، والأجرد لا يعرف الشيب». ومهما كان الأمر فالشباب الدائم أحسن من اللحية أليس صحيحاً ما أقول؟

فضجت أصوات مرحة:

– نعم ما تقول يا ألدار! اشرب الكوميس أيها الظريف، اشرب بالهناء والشفاء، وليقابلك في طريقك المزيد من الناس الذين تصغر عقولهم وتكثر نقودهم.

كيف جاء ألدار كوسى الى البيك يطلب النصح

كان هناك بيك اذا جاءه مذنب بهدية غالية خرج برئياً يرقص فرحاً. واذا جاءه محق ولكن بيد خاوية، خرج من عنده مذنباً ينذب حظه ولذلك كان البكوات يمتدحونه على حكمته، بينما كان الفقراء يسبونه ويلعنونه.

وقال الدار لنفسه مهدداً البيك «مهلا أيها النهاب. رغم أن لديك لحية طويلة، فسوف أعلمك أنا الأجرد، وسألقنك درساً لن تنساه».

وها هو الدار كوسى يترجل عن حصانه وقد بلغ خيمة البيك.

ولكن ما كان أحد ليتعرف على الدار في هذا الزى! كان يرتدي رداء لايتورع حتى الخان عن ارتداء مثله. حريره الأطلس يسطع مثل شمس الشروق، وتزدهر زخارفه كأزهار المروج. ولكن المعروف منذ زمن بعيد أنه عندما يتزين البيك فالجميع يهنئونه بالثوب الجديد، فاذا ماتزين الفقير راحوا يسألونه: «أين سرقت هذا؟»

وعندما رأى البيك الدارصاح مادّاً ذراعيه:

—أوه، ياله من رداء! ممن سرقته أيها المحتال؟ لست أهلا لهذا الشيء الثمين. انما الجدير بارتدائه شخص محترم مثلي، بل وليس كل يوم، وانما في الأعياد فقط...

ودون أن ينبس الدار كوسى ببنت شفة، نزع عنه الرداء ووضعه على كتفي البيك.

وعلى الفور أصبح البيك بشوشاً، فابتسم، وراح يلبس الرداء على عجل، وهو لا يتمكن من ادخال يديه في كمي الرداء.

وأخذ يدور في مكانه ويتملى نفسه تارة من هذا الجانب، وتارة من ذاك، قائلا:

– ياله من رداء! كم أسعدتني ياعزيزي الدار كوسى! الآن عرفت أن ماقيل لي عنك من كلام السوء ليس صحيحاً... ربما تكون بالفعل قد كدت لأحد الأغبياء، حسناً، وليلم نفسه. فلا تفغر فاك حتى لا يسقط فيه الذباب.

واكتسب البيك كعادته مظهر الرجل الهام، فجلس وهو يزحر على الوسائد الطرية.

وسأل برقة وهو لا يكف عن مسح أطراف الرداء:

– في أي شأن قصدتني ياولدي؟

– جئت لسيادتكم في طلب النصح، ولكني لا أعرف من أين أبدأ...

فشجعه البيك:

– تحدث ولا تخجل. فكما يقال: اذا جئت تطلب لبناً فلا تخبىء الكوب خلف ظهرك... الرداء الأطلس سيدفىء قلبي، ولذلك أقول لك سلفاً: مهما كانت قضيتك فسوف أفصل فيها لصالحك.

فانحنى الدار كوسى:

– شكراً جزيلا، شكراً جزيلا! حسناً طالما أنت عطوف علي الى هذه الدرجة أيها البيك الحكيم، فسأحكي لك كل شيء بأمانة. كان عندي عبد. دفعت فيه ثمناً ليس بالقليل. وكم تعلقت به، كم أحببته. الطير لا يحافظ على فراخه مثلما كنت أنا أحافظ عليه. لم يكن هو خادمي بل انا الذي كنت خادمه. كان يحدث أن أعمل أنا وأكد، بينما هو يستريح. واركض أنا في السهوب، مهموماً، وهو يرقد في البيت. فاذا سقطت عليه ذرة غبار نفختها، واذا مسته قطرة ندى جففتها. وأحياناً كنا نخرج سوية، فتصور، كنت أنا أمشي وأحمله على كتفي.

فماذا جرى؟

– ماذا جرى؟ – مد البيك عنقه بفضول.

فقال الدار كوسى بأسى:

– اليوم فقدت عبدي.

– كيف حدث ذلك؟

– حدث على هذا النحو. اليوم قابلت أنا وهو أحد اللئام العجائز. وما أن رأى هذا الرجل المغرض عبدي حتى طمع فيه. فراح يمتدحه أمامي، يذمني ويمجد نفسه، حتى استمال عبدي اليه وما كنت لأتصور هذا. فهرب مني عبدي الجاحد الى سيده الجديد. فماذا أفعل الآن؟ انصحني.

فرفع البيك حاجبيه بسخرية:

– ماذا تقول؟ هذا بسيط جداً. ابحث عن عبدك فوراً حتى تجده واجلده بالسوط دون رحمة، واسحبه من تلابيبه الى خيمتك. فليعرف العجل من هي أمه!

– مد الله في عمرك أيها البيك الحكيم! ان رأسك لمن ذهب! انك لم تصدر في حياتك حكماً أعدل من هذا. وها أنذا أسارع الى تنفيذ حكمك. فلا داعي للبحث عن المذنب بعيداً عن هذا المكان. انه هنا. ولما كنت أثق في فطنتك فقد أطلقت صفة العبد على شيء وليس على انسان، أي على ردائي. لقد اشتكيت لك من ردائي أيها البيك النبيل. ألم أكن أنا الذي حافظت عليه، ورعيته، فما أن قلت أنت بضع كلمات، حتى صار على كتفيك ... حسناً، سوف ينال الآن جزاء خيانته!

واخرج الدار كوسى السوط من ساق حذائه.

وعلى الفور أدرك البيك أن الرياح غيرت مجراها، فهم بالهرب، ولكن الدار هوى بالسوط على ظهره، فطار البيك حتى السقف، وصرخ بأعلى صوته:

– النجدة! سيقتلني!

فقال الدار وهو يلهب البيك بالسوط:

– مالك تعوى يابيك كابن آوى؟ ومالك تقفز كتيس جبلي؟ لست أنت الذي أعاقبه، بل ردائي بناء على حكمك!

فصرخ البيك:

– فليصبح رداؤك جلد ثعبان عليك أيها الشرير!

وتخلص البيك من الرداء، وقفز وراء صندوق، واختبأ هناك.

ودس الدار كوسى السوط في ساق حذائه، والتقط الرداء، وسحبه من ياقته، كأنما ينفذ حكم البيك، وتوجه الى الباب. وقبل أن يخرج التفت الى الصندوق وقال:

– لاتغضب يابيك اذا سقطت في فمك ذبابة. لقد أردت فقط أن أذكرك بأنه عندما يصاب الرداء فان الانسان يشعر بالألم. هل فهمتني؟

وقيل فيما بعد ان البيك فهم الدار كوسى، فأصبح يفصل بين الناس منذ ذلك اليوم بالعدل والحق.

كيف أذل ألدار كوسى البيك الطاغية

كان هناك بيك طاغية، جبار، فرض الرعب على كل أهل قريته والمنطقة المجاورة. كان أقوى من ثور وأقسى من وحش. ولم يكن يدع كبيراً الا وأهانه أو ضربه أو عذبه. ولم يكن هناك من يجرؤ على كبح جماح هذا الطاغية. وأصبح الحل الوحيد هو اللجوء الى الخان ليردع هذا الجبار. ولكن من ذا الذي لا يعرف أن الذبابة تهلك اذا انحشرت بين جملين. وقد يحدث أن ترتمي على قدمي أحد الأقوياء فتحطم جبينك. ولذلك يقال ان العنزة القرعاء ذهبت الى الأسد تسأله قرنين، فعادت بلاأذنين.

وهكذا ظل هذا البيك الجبار في مأمن من العقاب على مايقترفه من أفعال. وكان أصدقاؤه الأثرياء يشجعونه على ذلك، فقد كانوا جميعاً من قطيع واحد.

وسمع البيك الجبار ذات مرة أن ألدار كوسى قد نزل عند الرعاة غير بعيد عنه، فصاح مشيحاً بيديه:

– كيف يجرؤ هذا الصعلوك الأجرد على الاقتراب من مراعي! ياله من وقح! لو تسامحت معه اليوم فسيدس يده غداً في جيبي ... كلا، هذا لن يكون! سرجوا الحصان! سأذهب الى ألدار كوسى، وساوزع عنه مع جلده السروال والقميص! سآتي به عارياً ليكون فرجة للجميع! سأجعله يركض كالعقاب المنتوف الريش في السهوب!*

---

* كانت طواقي الأطفال والفتيات تزين بريش العقاب. وكان بعض «المازحين» القساة ينتفون ريش العقاب، ثم يطلقونه ليركض عارياً في السهاب كنوع من التسلية – **الناشر.**

وجاء الخدم بحصان البيك. وفزقع البيك بسوطه وغاب عن الأعين.
ولم يتفرق الناس في القرية في انتظار ما سيسفر عنه الأمر. وراح الفقراء يتنهدون بأسى مشفقين على الدار المسكين. أما رجال البيك فكانوا يهتفون بتشف:
– هلك الأجرد! فلتعدوا له القبر.
وفي تلك الأثناء وصل البيك الى مضرب الرعاة.
– أين الدار كوسى؟
– كان هنا ورحل.
– الى اين رحل؟
– ومن يدري؟ وهل يختار السمان طريقه؟ انه يسير حيثما يشاء، ويغني حيثما يسير...
فصر البيك على أسنانه وقال:
– سالحق بالوغد! لن يغيب عني ولو تحت الأرض. سأجعله يرقص عارياً وسط السهوب!
وركض بحصانه قدماً.
وهاهو يبلغ نهراً. وعلى الشاطىء تجلس امرأة عجوز محفية الظهر تغزل صوفاً. وليس من حولها كائن آخر.
فصاح بها البيك وهو على ظهر حصانه:
– أنت أيتها العجوز الشمطاء! ألم يمر عليك شخص أجرد منذ فترة قريبة؟
فسعلت العجوز، وزحرت رأسها ثم ثاثاث:
– سمعي ثقيل يابني، لا أسمع ماذا تقول. انزل ياولدي من على حصانك، وكرر ماقلته بصوت عال قرب أذني.
قفز البيك بأسى من سرجه، واقترب من العجوز وانحنى نحوها وصاح:
– أقول ألم يمر من هنا ... – ولم يكمل عبارته.
فقد اطاحت به العجوز أرضاً بسرعة مذهلة وألقت عليه غطاء رأسها.
وفي نفس اللحظة سمع البيك المفزوع قهقهات عالية، ووقع حوافر حصان، وطرطشة مياه.
وصرخ البيك:
– النجدة! العفاريت تخنقني!
وأخيراً نزع عنه الغطاء بأصابع مرتعشة فرأى، ويالليته ما رأى!
كان جواده العزيز واقفاً على الضفة الأخرى، وعلى ظهره استقر، وهو يتلوى من الضحك، الدار كوسى.

وقال ألدار كوسى وهو يتلوى:

– هاأنا ذا قد هزمتك يابطل بدون قتال. هل تقر بانتصاري؟

فدمدم «البطل» وهو يحمر غضباً:

– نعم! أعد لي حصاني ياألدار كوسى.

– انا لست بحاجة اليه. اعبر الى هذه الضفة سباحة أو خوضاً، كما تشاء، وخذ حصانك.

فماذا كان على البيك أن يفعل؟ خلع نعليه، ونزع عنه ملابسه حتى تعرى تماماً، ونزل الى الماء العكر. وشرب ماء كثيراً قبل أن يخرج الى الشاطىء الآخر.

اما ألدار، فانتظر حتى خرج البيك الى الشاطىء، فصرخ كالجني، وألهب ظهر الحصان، واندفع الى النهر ثانية.

وغطى الرذاذ البيك وأعماه، وعندما فرك عينيه وفتحها، تهاوى على الأرض في يأس. فقد عبر ألدار النهر، وترجل، ثم جمع ملابس البيك على مهل، وربطها صرة، وودع البيك باشارة من يده، ثم غاب في وهج السهوب ...

كان ذلك في الصباح. وبعد منتصف النهار اقتحم القرية حصان البيك، يتفصد عرقاً، بدون فارس، وقد تدلت من سرجه ملابس سيده. ودب الذعر في القرية. وانطلق أصدقاء البيك، وقد تسلح كل منهم بما وقعت عليه يداه، يبحثون عن زعيمهم المفقود. وسرعان ما رأوا في السهوب رجلا. كان يسير حافي القدمين، عريانا، متجهاً نحو القرية، وبين الحين والحين يقفز من وخز الأشواك. ومن بعيد عرف فيه الفرسان صديقهم. فأحاطوا به وأمطروه بالأسئلة:

– ماذا حدث؟ من ذا الذي جلب عليك هذا العار؟ أهو ألدار كوسى؟

ولكن البيك طأطأ رأسه ولزم الصمت.

ومنذ ذلك اليوم تغير البيك تماماً، كأنما أصبح شخصاً آخر. صار وديعاً كالحمل، رقيقاً كالوبر. وعندما كانت الرغبة تراوده في البطش بأحد كما في السابق، كان يكفي أن يذكر اسم «ألدار كوسى»، حتى ينكمش البيك وينطوي.

كيف تصدى ألدار كوسى لنصرة الغناء

اقترب ألدار كوسى من قرية كبيرة، ممتطياً حصانه، سائراً به على مهل، عازفاً على الربابة ومغنياً من قلب لا يعرف الهموم. وخرج الناس الى لقائه ملوحين بأيديهم:

– أسكت يا ألدرا، أسكت. الغناء في قريتنا ممنوع.

فنهض ألدار كوسى في سرجه:

– الغناء ممنوع؟ ولماذا؟ البيت بلا صاحب بيت حزين والقرية بلا غناء أشد حزناً. أم أن مصيبة ألمت بكم؟

– مصيبة حقيقية يا أخي، أسوأ من الطاعون... لقد سكن قريتنا أحد الشيوخ. هاقد مر عام منذ وصوله، ولا يبدو أنه يزمع الرحيل. وقد نزل ضيفاً على واحد من المتدينين يدعى الحاج يوسف. ولكنه يأكل ويشرب على حسابنا. قريباً سيفني مالدينا. يجلس الشيخ والحاج يوسف طول النهار يقرآن القرآن، ولا يفعلان شيئاً، ويأمراننا بالصلاة والصوم. ومنعا أهل القرية من الغناء والمزاح والضحك. وأصبحنا نعيش وكاننا في مسجد: لا الاولاد يستطيعون أن يلعبوا، ولا الشباب يستطيع أن يمرح، ولا الشيوخ يستطيعون أن يفرحوا بمرأى الأطفال. والشيخ يهددنا والسعير لا جزاء على الغناء فحسب، بل حتى على مجرد الابتسام...

فازبد ألدار كوسى وقال:

ما أسوأ حياتكم. ليس هناك جريمة أبشع من سد فم الأغنية. فما قولكم لو حاولت طرد الشيخ من القرية؟

– لك منا كل ثناء، والعمر المديد لك على ما قلت أيها الشهم! اذا طردت الشيخ أعدت الينا الضياء والبهجة.

– دلوني اذن على منزل الشيخ.

وعندما اقترب ألدار من خيمة الحاج يوسف سعل، وملأ رئتيه بالهواء، وصاخ بصوت أخن:

– باسم‌الله الواحد الأحد، القهار، الجبار، الرحيم، المنعم، السميع، العليم، اله السموات والأرض، الحكيم، المهمين، ذو الجلال والكمال...

فخرج من الخيمة رجل ربعة، في عمامة، اخرق الهيئة كصندوق، وسأل بغضب:

– ماذا تريد أيها الغريت؟

فانحنى ألدار كوسى محيياً وقال:

– أرجو المعذرة، ألست أنت الحاج يوسف التقي، زينة المؤمنين؟

فأجاب ذو العمامة بصوت اكثر بشاشة:

– بلى، أنا.

– الا ينزل في ضيافتك، يا سيدي الحاج، ذلك الشيخ الفقيه، أخلص أتباع النبي؟

– نعم عندي، فماذا تريد منه؟

فحور ألدار عينيه قائلا:

– الحمد لك يارب على أنني عثرت أخيراً على الشيخ الجليل! – وقال بصوت عال حتى يسمعه من في الخيمة – لقد جئت لمولانا بهدية. هدية ممتازة، لم ير مثلها، أرجوك يا سيدي أن تعطى له هذا...

وهنا تدلى ألدار كوسى من السرج، وصفع الحاج صفعة قوية كادت تطيح بالرجل. ومن شدة المفاجأة لم يستطع الحاج أن ينطق، أما ألدار فألهب حصانه بالصوت، وغاب عن الأنظار.

وعاد الحاج الى الخيمة ممسكاً بخده، محولا نظره عن الشيخ، وهو في شدة الغيظ. أما الشيخ فقد ثبت فيه بصره، ورأى أن يد الحاج فارغة، ففكر: «يبدو أن هذا الوغد أخفى الهدية في صدره».

وسأل الشيخ بارتياب:

– من هذا الذي جاء؟

فدمدم الحاج مربداً:

– انه أحد المارقين.

فقال الشيخ معارضاً في عصبية:

– المارقون لا يسبحون باسم الله. وماذا قال لك؟

– لاداعي لتكرار كلام أهل المعصية.

فتأكد الشيخ تماماً من أن الحاج يتخابث، فقال:

– أتعتبر من أهل المعصية من يحترم شيخه، ويحمل له بمشيئة الله هدية؟ لاتتخابث! لقد سمعت حديثكما. هات الهدية حالا.

فتضرج الحاج من الغضب، ولكنه تمالك نفسه وقال:

– اقسم بحياة النبي ياشيخ أنني لا أستطيع أن أفعل ماتريد. لا تطلب مني المستحيل.

فاستشاط الشيخ غضباً:

– كيف؟ أتريد أن تستولي على ماهو ملك لضيفك الشيخ المسكين كلا، لن تستطيع أن تخدعني. هيا، هات ماسرقته. والا لعنتك ايها المرتد، فتذوق نار الجحيم...

كان راس الحاج مازال يدور من وقع الصفعة، وجعله سباب الشيخ يفقد رشده تماماً. فقال وهو يتقدم نحوه:

– أتريد أيها الشيخ الأحمق أن تحصل على ما أعطاه ذلك المهذار؟ حسناً، خذ اذن...

وطوح ذراعه وأهوى بكفه على وجه الشيخ.

ونسي الشيخ وقاره، فانقض على مهينه، وأطبق يديه كالكماشة على رقبته. وصاح:

– أيها الكلب الغادر! ياخادم الشيطان! أيها اللص! أتسرقني وتجرؤ على رفع يدك على شيخك!...

وتدحرجا على البساط. واهتزت الخيمة وتمايلت من عراكهما، وتمزقت ثم انهارت. وبعد جهد تمكن الناس من استخراجهما من تحتها وفصلهما عن بعضهما.

وفي نفس اليوم اختفى الشيخ، ولم يظهر بعدها في تلك النواحي. ورحل الحاج أيضاً الى الجبال حتى يتجنب السخريات.

ودب المرح في القرية، ولم ينقطع الغناء فيها من الصباح الى المساء، وكأنما كان كل يوم عيداً.

وظل الشيوخ طويلا يروون للصغار كيف تصدى الدار كوسى لنصرة الغناء، وأخرج من القرية ذلك الشيخ الكريه.

كيف فضح الدار كوسى ابن السلطان المتكبر

كان ابن السلطان عائداً الى مملكة أبيه، ممتطياً صهوة ناقة بيضاء بكسوة مزركشة. يحيط به الخدم والحرس.

وبينما القافلة تسير ظهر في الأفق فارس أجرد، في ثياب بالية. كان يسير ضاحكاً وهو يحدق في السماء. وصاح فيه ابن السلطان:

– اسمع يا هذا! ألست انت الدار كوسى؟

– الحقيقة ياسيدي ما قلت. انا الدار كوسى، خادمكم المطيع.

فرفع ابن السلطان يده فتوقفت القافلة.

– قل لي ياالدار، هل صحيح أنك تخدع جميع الناس؟

فطأطأ الدار رأسه في خشوع وقال:

– يامولاي، هناك كذب كالحقيقة، وحقيقة كالكذب. فلحكم بنفسك: هل يستطيع واحد، مهما كان ذكياً، أن يخدع الجميع؟ ان الجميع يعني الشعب، أليس كذلك؟..

فقاطعه ابن السلطان:

– مالك تلف وتدور؟ ولماذا حشرت كلمة «الشعب» هنا؟ انني لا أحب هذه الكلمة.

– سواء أحببتها أم لم تحببها فان المثل يقول: «لاتبصق» على الشعب فلن يكفي لعابك، ولو بصق عليك الشعب لغرقت في بصقته كما في بحيرة...»

فاكفهر وجه ابن السلطان وقال:

– احذر! انك تطلق العنان للسانك. أجب على سؤالي دون لفّ أو دوران: هل تستطيع أن تخدعني أنا مثلا؟

فقال الدار بعد تفكير:

– أخدعك أنت يامولاي؟ كلا، أعتقد أنني لا أستطيع. وعموماً، لكي أكون دقيقاً يلزمني أن ألقي نظرة على قدميك العاريتين.

فقال ابن السلطان متحفزاً:

– هكذا اذن؟ فليكن، أنظر ...

وأمر خدمه باناخة الناقة، وجلس على الأرض، وراح ينزع حذاءه وهو يلهث.

– أنظر، هاهي قدماي العاريتان.

– ارفعهما أكثر لو سمحت، أعلى يامولاي!

فاعتمد ابن السلطان بيديه على الأرض ورفع ساقيه عالياً.

وتطلع الدار طويلا الى قدمي ابن السلطان، وأخذ يدمدم بشيء ما وهو يهز رأسه، ثم قال بصوت متهدج:

– كلا يا مولاي! كلا وألف كلا! فلتصنع بالدار كوسي المسكين ماتشاء، ولتأمر بسلخ جلده، أو بالقائه في النار، ولكني لست بقادر على خداعك ...

فقهقه ابن السلطان برضى:

– هكذا. لم يولد بعد ذلك الذي يقدر على خداعي ... ومن حسن حظك أيها الشقي أنك لم تكذب علي...

وسرعانما وصلت القافلة بعد ذلك الى المملكة، فأقام السلطان وليمة كبيرة تكريماً لوصول ابنه. وروى الابن أثناء الوليمة ماحدث له في الطريق، وكيف اعترف الدار كوسى المكار أمامه بفشله.

فصرخ السلطان:

– مهلا، مهلا! ولكنك نزلت عن الناقة بناء على رغبة ذلك الأجرد! وبناء على طلبه خلعت نعليك في البرية! وكالأحمق رفعت أمامه وأمام الخدم فأصبحت أضحوكة! واذن فقد خدعك الدار كوسى ثلاث مرات!

وأشاح السلطان عن الناس بوجهه وهو يكاد يجن غضباً، أما الابن فأخذ يطرف بعينيه ويدمدم بخوار ما وكانما أصابته ضربة أطارت بعقله.

وعندما رأى ضيوف الوليمة هذا المنظر، أخذوا يدفعون بعضهم بعضاً في الاجناب ويكتمون الضحكات، لأنهم لم يجرؤوا على الضحك بصوت عال. ولكن كلا منهم كان يفكر بينه وبين نفسه:

«الابن المجيد يخلد اسم أبيه، والابن اللعين يجلب العار لأبيه».

كيف اصبح ألدار كوسى من حاشية الخان

قال ألدار كوسى لنفسه:

– اذا سقطت فلستقط من على ظهر جمل.

وتوجه قاصداً مضرب الخان.

وكان يحكم السهوب كلها آنذاك خان يدعى الاشار خان، وكان حاكماً لئيماً ومتقلباً. لم يكن أحد يعرف أبداً ما الذي يمكن ان يطرأ على ذهنه من أفكار، وكيف تكون نهاية وده، والام يؤدي غضبه.

وعندما كان الخان يمر مع رهطه في السهوب، كان الناس يتفرقون من طريقه ويختبئون. وكان يعد من سوء الحظ أن تقع عين الخان على أحد. ولكن اين يختبىء الناس من قوانين الخان؟ ولهذا يقول المثل: «عصى الخان تطال أقصى اطراف السهوب».

وأصدر الخان أمراً: «كل من يملك ولو شاة واحدة، عليه أن يدفع الى خزينة الخان ديناراً ذهبياً قبل حلول الشتاء، ومن يعص هذا الأمر سيحكم عليه بالعبودية».

ودب القلق في السهوب، وذعر الناس. فمن أين يحصل الجائع الفقير على دينار ذهبي وهو لم يمسك بين اصابعه درهماً ممسوحاً؟

واستغرق الدار كوسى في التفكير.

«لابد من ذهب كثير لانقاذ الفقراء من هذه المصيبة! فمن لديه كل هذه النقود؟ لدى الخان وحده. فلاذهب ولاتحدث معه. ألا يمكن ان أحصل منه كيس أو كيسين من الذهب؟ فليكن ما يكون. «ان الشجاع لا يغرق»...

كان الوقت ربيعاً. واشتعلت السهوب بلون الخشخاش والتوليب الأحمر. وأحس الدار بالمرح وهو سائر في طريقه.

كان مضرب الخان ممتداً على سفح تل بجوار بحيرة. وانتشرت الخيام البيض الجميلة في نصف دائرة. وكان في وسطها خيمة كبيرة أبهى من بقية الخيام. وعند مدخلها وقف الحراس، ومن فوقها انتصب رمح وراية. كانت تلك خيمه الخان.

لم يجرؤ الدار كوسى على الاقتراب من الخيمة، مباشرة وراح يخطو جيئة وذهاباً غير بعيد عنها وهو يصفر.

وانقض عليه حراس الخان.

– مالك تصفر؟ من أنت؟ ولماذا جئت؟

– انا الدار كوسى. أريد أن أكشف للخان سراً هاماً.

فاقتادوه الى الخان.

فقال الاشار خان:

– اذن فهذا هو أنت أيها المحتال الأجرد! سمعت الكثير عن ملاعيبك، واشتكى لي منك كثير من الناس المحترمين الأكابر. لماذا جئت؟

فارتمى الدار كوسى على قدمي الخان:

– يا مولاي. لا تصدق وشايات السوء. فمن ذا الذي يرضى كل الناس؟ اذا قلت كلمة، واذا لزمت الصمت اعتبروك أحمق. ستتأكد الآن من اجتهادي ونزاهتي، فقط اسمح لي بأن أقول ما يدور بخاطري.

فأومأ الخان برأسه علامة الاذن له بالكلام، فمضى الدار يقول بحمية:

– يا مولاي، انا لم أحص النقود في خزينتكم، ولكني واثق انه لا يمكن احصاؤها. ولكن لا يوجد في الدنيا حاكم لا يرغب في المزيد من الذهب و أنا أعرف طريقة لمضاعفة ثروتكم. الآن فصل الربيع. موسم البذار. اعطني مكيال ذهب، وسأبذره في حقلي وفي الخريف أحصده، واحمل لكم المحصل كله. وأنا أعرف أنه اذا كان الطقس جيدا فان قطعة النقود الواحدة تعطى الفّ قطعة.

فسأله الخان بصرامة:

– واذا ضاعت النقود؟

فباعد الدار بين يديه وقال باذعان:

– في مقدوركم يا مولاي أن تقضوا على حياتي عقاباً على خداعي.

وكف الوزراء الحاضرون عن التنفس انتظاراً لما سيقوله الخان. ولكن

الخان لزم الصمت وهو يحدق مليا في الدار، كانما كان يريد أن يسحقه بنظراته، وأخيراً قال:

– صبوا له مكيال ذهب، فليبذره – وعندما رأى الدهشة على وجوه الوزراء قال بابتسامة منذرة – لن يفلت منا أبداً.

ونفذ أمر الخان على الفور، ومضى الدار كوسى سعيداً مرحاً، وهو يحمل على ظهره كيس الذهب، ومن خلفه سار جواسيس الخان خلسة لكي يروا ماذا سيفعل بالنقود.

وبعد فترة عاد الجواسيس واخبروا الخان بأن الأجرد، بعد عودته الى البيت ربط زوجاً من البغال الى المحراث، وتوجه الى الحقل، وحرث قطعة أرض، وراح يبذر فيها شيئاً ما ويقول: «فلتلد الواحدة ألفاً! فلتلد الواحدة ألفا!». ثم أقام بجوار الأرض المحروثة خصاً، وجلس فيه ليحمى البذار من الطيور. وهكذا لم نر ما اذا كان قد بذر ذهباً ام شيئاً آخر...

وحل الخريف. ورحل الأوز البري من البحيرات الى الجنوب، وجفت الحشائش في المراعي الصيفية، وتحرك الرعاة بقطعانهم لقضاء الشتاء. بينما لم يصل الى الخان أي نبأ من الدار.

فأرسل الخان ثلة من المحاربين اليه وقال لهم:

– اسحبوا هذا المخادع الى هنا. حان الوقت لينال جزاء الاعيبه.

وتسابق الجند السهوب، وسرعان ما عادوا بلا شيء. وقالوا للخان:

– يا مولانا. عندما اقتحمنا خيمة الدار كوسى لم نجد فيها صاحبها. ووجدنا بجوار الموقد الخابي فتاة جميلة قالت انها اخته. وكانت تبكي بحرقة. فسألناها: «أين أخوك؟»، فسألناها: «انه ليس في البيت، وربما لم يعد على قيد الحياة..». فسألناها: «وما الذي حدث؟» فأجابت: «لم تنزل الأمطار عندنا منذ الربيع. فلم ينبت ذهب الخان الذي بذره أخي المسكين. وخوفاً من غضب الخان ذهب أخي ليكسب نقوداً ويرد دين الخان. فاذا لم يستطع الدار أن يسدد الدين فسيقتل نفسه...». وهذا كل ما استطعنا ان نعرفه. فما الذي تأمرنا الآن به يا مولانا؟

وفكر الخان ثم قال:

– أعتقد ان أخت الدار كوسى متآمرة معه. ما كان ينبغي أن تصدقوا دموع هذه الخبيثة. أحضروها الى هنا بدلا من أخيها. فلتكن رهينة.

ولكن عندما أحضروها أعجب الجميع بجمالها وسلوكها، وبدت وموعها صادقة حتى أن الخان تأثر. فخصص لها خيمة مستقلة، وأرسل اليها بالهبات والعطايا والمأكولات اللذيذة.

وفي تلك الأثناء خطب سلطان شاب ابنة الخان. ولم يكن الخان يريد أن يصاهر هذا السلطان، فواتته فكرة أن يزوجه بأخت ألدار كوسى. وعلى الفور ألبسوا الفتاة ثياب العرس، واركبوها جواداً وشيعوها بالأغاني الى اهلها الجدد.

وفي الطريق سألت العروس السلطان:

خبرني يا عزيزي بم تمتلي أكياس سفرك؟

– بالذهب الذي أعطاه لي الخان بائنة لك.

وتوقفوا في الطريق للمبيت. ونصبوا للعروسين خباء. وأكل السلطان وشرب وغاب في نوم عميق. فقامت العروس و نزعت عنه ثيابه وطاقيته، ولبست بسرعة هذه الثياب، فتحولت فجأة الى... ألدار كوسى. فمنذ البداية كان هو الدار الماكر!

وألجم الدار كوسى حصان السلطان، وربط أكياس الذهب، وقفز بخفة الى السرج، واختفى في الظلام.

وفي الفجر وصل الى مضرب الخان، وقصد الخان من فوره:

أرجو العفو يا مولاي. لست المذنب في أن ذهبكم لم يعط محصولا، فقد هلك الزرع بسبب الجفاف. ورغم أن ذلك ليس خسارة بالنسبة لكم، ولكن هل كنت أستطيع أن أبقى في نظركم كذابا؟ كلا، الشرف أغلى من الحياة. فماذا يكون الذهب لو سالتكم؟ انه حجر. ولكنه حجر يصعب على الفقير أن يحصل عليه. ولكن الله ساعدني فأصبح بوسعي أن ارد لكم ما أخذته من نقود. والآن أصبح ضميري مرتاحاً امامكم. ولكن اتضح يا مولاي أنه ما أسهل أن يهان الانسان الصغير الشان في بلد لا حقيقة فيه! فعندما كنت غائباً تعرض مسكني لهجوم خدمكم، وخطفوا اختي المسكينة، وزوجوها رغم ارادتها في بلد غريب. وأنا اخوها الوحيد لا أعرف شيئاً عن مصير اختي. ياللفظاعة! ياللعار!

وانخرط الدار كوسى في نحيب عال.

– لا تحزن هكذا ياألدار كوسى! لقد زوجنا أختك من سلطان ومنحناها بائنة جيدة. فهل السلطان في رأيك ليس زوجاً جديراً بها؟ عيب عليك ان تشكو. اما عن الذهب فلتاخذ كل ما جئت به، وليكن ذلك بدلا من مهر أختك.

وما أن قال السلطان ذلك حتى أقبل رسول من السلطان على حصان عرقان، وأخبر الخان بأن العروس هربت في الطريق، ومعها ضاع جواد السلطان والذهب.

فارتمى الدار كوسى على الأرض قبل أن يفيق الخان من ذهو له وصرخ:

– اه يامولاي؟ اه يامولاي! وقعت جريمة شريرة. لابد أن السلطان قتل أختي، وأرسل رسوله ليخفي جريمته. اغثني يا مولاي.

ارتبك الاشار خان تماماً واحتار. وأخيراً نهض من مجلسه وأنهض الدار كوسى المنهار.

– اسمع ما سيقوله الخان يا الدار كوسى. اذا لم نعثر على أختك خلال ثلاثه أيام فسأجبر السلطان على ان يدفع لك فدية لم يحصل عليها احد من قبل. أما انتفابق موقتاً ضمن حاشيتي.

وبالطبع لم يعثروا على العروس لا بعد ثلاثة أيام ولا بعد ثلاثة اشهر. وحصل الدار كوسى على العزية، ومن حيث لا يحتسب وجد نفسه ضمن حاشية الخان.

وسرعان ما حل الشتاء فتذكر الخان الأمر الذي كان قد أصدره. وزحف جيش من الجباة عبر السهوب من مضرب الى مضرب، يجمع الذهب، ويقيد بالحبال من لم يسدد الجزية.

ولكن الدار كوسى استطاع أن يسبق الجباة ويمر على جميع المضارب.

وحدثت المعجزة... فقد حصل الخان على الجزية كاملة! ولم يسق الى العبودية شخص واحد، ففي أفقر البيوت كان هناك دينار ذهبي لدفع جزية الخان.

وكان الخان راضياً، وكان الفقراء راضين، الدار نفسه راضياً ايضاً.

كيف انتصر ألدار كوسى على ألاشارخان

ذات مرة دعا الاشار خان اليه الدار كوسى وقال له:

– انني اشعر بالضجر يا الدار كوسى. هل تفهم هذا؟

– مفهوم أيها الخان العظيم. فعندما يشعر الخان بالمرح تسيل دموع الرعية، وعندما يشعر بالضجر تسيل دماؤهم. كيف أبدد عنك ضجرك؟ أتريد أن اعزف لك، وأغني لك أغنية قديمة، او أروي لك حكاية مسلية؟

فقال الخان بنفاد صبر:

– كلا. لقد مللت الموسيقى الغناء وكرهت الحكايات والامثولات. هيا نتسلى بلعبة ابتكرتها أنا.

فسأل الدار كوسى وهو يتوقع شراً:

– وما هي هذه اللعبة أيها الخان العظيم؟

– اللعبة كالتالي. سنجلس كل منا مقابل الاخر، ونضع بيننا قطي المحبوب، ونعلق في ذيله شمعة مشتعلة، ويدعوه كل منا اليه. والفائز هو الذي يقفز القط الى ركبتيه، والخاسر هو من تسقط الشمعة نحوه. أراهن على فوزي بمائة دينار ذهبي كبداية.

وفكر الدار كوسى:«الاحوال سيئة. بالطبع سيستجيب القط لنداء سيده. أخشي أن يحدث كما يقال في المثل «الضحك للنمر، والموت للجدي». ولكن، هل يمكن أن يعارض الخان؟!.

ولذا قال الدار بمرح:

– انها لعبة رائعة! ولكني لا افهم يامولاي ما الفائدة التي ستجنيها من اللعب معي، فليس لدي حتى درهم ممسوح.

فأمره الخان:

– اذا لم تكن لديك نقود، راهن بالرداء.

ووضع الدار كوسى القط في وسط خيمة الخان، على بساط، وعلق في ذيله المنفوش شمعة مشتعلة، ثم تربع في مقابل الخان، وبدأت اللعبة.

– بس، بس، بس! – دعا الخان القط.

– بس، بس، بس! – دعا الدار كوسى القط.

أدار القط رأسه، وحرك شواربه، وقفز بكسل على ركبتي الخان. وسقطت الشمعة نحو الدار كوسى.

فصفق الخان مرحاً وقال:

– أنا كسبت!

وفي المرة الثانية، والثالثة، والرابعة كان القط يقفز على ركبتي الخان. وخسر الدار كوسى بعد الرداء الطاقية، واللفاع والحذاء... وصار حافياً، في قميص داخلي فقط، بينما لم يهدأ الخان.

وقال الدار لنفسه وهو يخلع قميصه: «ترى ماذا بعد؟ يبدو أن الخان قرر القضاء علي».

وصاح الخان بجنون:

أراهن بخمسمائة دينار! اللعبة لم تنته! اذا لم يكن معك شيء، راهن برأسك.

فقال الدار كوسى بهدوء:

– حسناً. سأراهن برأسي. وان كنت أعلم مقدماً أنني سأفقده. فلتستجب أيها الخان العظيم لرجائي. اسمح لي أن ألقي نظرة أخيرة على سهوبنا الحبيبة.

فقال الخان وقد زم شفتيه.

– حسناً، اذهب والق نظرة. اياك أن تتأخر!

وخرج الدار كوسى، وأغلق الباب خلفه. بعد دقيقة عاد. وقال مبتسماً:

– أنا مستعد. فلنواصل اللعب أيها الخان العظيم.

ووضع القط ثانية على البساط، وأشعل الشمعة. وأسرع الخان قبل الدار بدعوة القط اليه:

– بس، بس، بس!

وهنا حدث مالم يتوقعه الخان أبداً. فقد انقض القط كالمجنون بأعين محمرة وشعر منتصب على صدر الدار كوسى وتدحرجت الشمعة نحو الخان.

فقال الدار كوسى بهدوء:

– أنا كسبت!

وجن جنون الخان من الغضب وصرخ:
– أراهن بألف! بثلاثة آلاف!
وتضرج وجهه بالدم، وسقطت طاقيته من على رأسه، ومضى يصرخ:
– أراهن بأربعين ألفاً!
ولكن القط مضى في كل مرة ينقض على الدار – كوسى كأنما سحره.
وأخيراً قال الدار كوسى:
– الايكفي لعباً اليوم يا مولاي؟ انني أرى أنك متكدر لسبب ما، كما أن قطك الحبيب قد تعب تماماً. فلنكمل اللعب غداً، اذا لم تكن تخشى أن يصل الأمر الى حد رأسك يا مولاي.
فقال الخان بصوت كالخوار وهو يتصبب عرقاً:
– قلبي يحترق. يبدو انني ابتكرت هذه اللعبة ليحل بي الخراب أيها الشرير. أنت الفائز ياالدار كوسى. خذ ما كسبته، ولكن اشرح لي سر فوزك ماهو السحر الذي صنعته لتغلبني؟
– انا لم أغلبك بالسحر يا مولاي، بل بالمهارة. فعندما طلبت منك أن ألقي نظرة وداع على السهوب، اصطدت هناك حيواناً أعز لدى القط من كل الملوك في الدنيا وأثناء اللعب كنت أظهر للقط هذا الحيوان في قبضتي. وهذا هو كل ما في الامر من سحر يامولاي.
وفرد الدار أصابعه، واذا في قبضته فأر صغير يرتجف.
فصرخ الخان، وقفز جانباً:
– فأر!
لقد كان يخشى الفئران أكثر من أي شيء آخر في العالم.
وبسبب هذه الصرخة سقط الفأر من يد الدار على البساط. وانقض القط عليه يطارده، وهو يسقط في طريقه المصابيح ويطفئها.
وكان ذلك أنسب وقت لكي ينسحب الدار كوسى بسلام. فجمع ملابسه من على البساط بسرعة، وتسلل من الباب دون صوت.

كيف نجا ألدار كوسى من الموت

أمر الخان بالقبض على الدار كوسى، وحكم عليه بأقسى انواع الموت. وقال:

– الاحمق المتمرد روضه بالسوط، والذكي المتمرد روضه بالسيف. لقد صبرت طويلا على ملاعيب هذا المتمرد. فلننظر الآن بأية نكات سيرد على الجلاد، وهل سيفيده خبثه في الافلات من قبضة الموت، فلتدعوا الناس لحضور الاعدام!

وانطلق المنادون الى الجهات الأربع، وسرعان ما توافدت الجموع نحو مضرب الخان، وكان بعضهم سعيداً وبعضهم حزيناً. جاءوا ليروا كيف سيقطعون رأس الدار كوسى.

وفي تلك والاثناء كان الدار المسكين جالسا في خيمته الخاوية ينتظر مصيره.

وحول الخيمة وقف اثنا عشر حارساً على مسافات متساوية، مسلحين بالسيوف والرماح. وصدرت اليهم الأوامر بألا يتكلموا أو يتبادلوا النظرات أو يتحركوا، بل أن ينظروا ويراقبوا بانتباه خيمة الدار، ويصغوا الى ما يمكن أن يقوله المجرم قبيل اعدامه.

ولكن ألدار كوسى كان جالساً وسط الخيمة على الأرض العارية وقد ركن الى الصمت. صمت ومضى يفكر:

«لو كنت طيراً لخفقت بجناحي وطرت الى الآفاق الرحبة. ولو كنت خلداً لحفرت نفقاً تحت الأرض، وهربت الى السهوب الواسعة. ولو كنت أسداً لهجمت على حراس ومزقتهم اربا. ولكن كيف يستطيع شخص في وضعي أن ينجو؟».

وفجأة أشرق وجهه وتهلل. لقد تحسس في جيبه زراً نحاسياً قديماً، كان قد وجده منذ وقت بعيد في السوق، واحتفظ به فقد ينفعه في يوم ما. وها هو هذا اليوم قد جاء.

«هذا هو منقذي!» – قال الدار كوسى بظفر، وراح ينظف الزر الذي علاه الصدأ ويجلوه بالرمل.

وأقبل الليل، وأطل القمر من فتحة المدخنة في الخيمة فوضع الدار الزر تحت أشعة القمر، فلمع كالذهب. وعندئذ سمع الحراس صوت الدار الحبيس يقول وكأنما يحادث نفسه:

– ما أغبى خاننا. يبدو أنه يطمع في الخلود اذ يحكم على الناس بالموت. ولكن الجميع يعلمون أن الموت يطبق على الرقاب عاجلا أم آجلا. وعلى ذلك فالخان أيضاً محكوم عليه بالاعدام. فبم يمتاز مصيره عن مصيري اذن؟ وما دام الأمر كذلك، فما الذي يجعلني أخشى الموت؟

وصمت قليلا ثم استطرد:

– كلا، أنا لا أخشى الموت. ولكن ما يحز في نفسي ان كنزي سيدفن معي اذ أموت...

وحبس الحراس أنفاسهم: «كنز؟ أي كنز؟»

وهتف الدار كوسى ضارعاً:

– يارب! أنت الذي ساعدتني على الحصول على خاتم شاه فارس، هذا الخاتم الذي أضعه الآن في اصبع يدي المحكوم عليها بالموت. لقد أخفيته طويلا عن الناس وخباته في رفعة السروال. لم يعرف بسره أحد: لا أبي، ولا اخوتي، ولا عدو ولا حبيب، ولا لص، ولا شريف. آه، ياله من خاتم لا يقدر بثمن. فما أن يذهب به أحد الى شاه فارس ويظهره له حتى يحصل على نصف ما في خزائنه وعلى ابنة الشاه زوجة له...

وتسمر الحراس كأنما أصبحوا أحجاراً، وجفت حلوقهم من الانفعال. وراح كل منهم يفكر:

«أحقاً لدى هذا الأجرد خاتم الشاه؟ ومثل هذا الكنز سيضيع هدراً! ربما فتشوه قبل الاعدام واستولى الخان الخاتم؟ فهل قليل ما لدى الخان من ثروات؟ آه لو أحصل أنا على الخاتم! ما كنت لأخفيه تحت الرقعة، بل لانطلقت فوراً الى فارس!...»

وهنا تردد صوت الدار من جديد:

– أعرف، أعرف ماذا أفعل بالخاتم! لقد هداني الله الى فكرة. سألقي بالخاتم في السهوب عبر فتحة المدخنة. حتى لا يدفن في الأرض او

يقع في يد الخان السفاح. فليعثر عليه أحد الفقراء وليسعد به.

وما أن ترددت آخر كلمة حتى ومض فوق الخيمة شيء كالبرق وطار على شكل قوس، وتدحرج وهو يلمع وسط نباتات الشيح.

ونسي الحارسان القريبان أمر الخان، واندفعا الى نباتات الشيح.

وفح أحدهما:

– انه لي!

وفح الثاني:

– انه لي!

وعلى الفور اندفع الحراس العشرة الآخرون من أماكنهم واختلط جمعهم في كتلة، وراح كل منهما يشد من الآخر ذلك الشيء البراق وأخيراً استولى عليه أقواهم.

ولكنه سرعان ما صاح فيهم بصوت مكتوم:

– أيها الحمقى، توقفوا! لقد خدعنا الدار كوسى. ليس هذا خاتماً بل زراً نحاسياً! ارجعوا الى أماكنكم أيها البلهاء قبل أن يهرب الأجرد من الخيمة!

وهرول الحراس الى أماكنهم، وانتصبوا فيها وكأن شيئاً لم يكن.

وفي الصباح تجمع خلق كثيرون عند مضرب الخان فلم يكن هناك موضع لوتد.

وفرش الخدم الأبسطة البيضاء، فجلس عليها الخان ووزراؤه تحف بهم العظمة. وأعطى الخان الاشارة، فاتجه الجلادون الى خيمة السجين المحاصر، التي احاط بها اثنا عشر حارسا على مسافات متساوية، وكانوا مسلحين بالسيوف والرماح وقد انتصبوا بلا حراك.

وران الصمت على الحشد. ورفع الجلادون ستارة الباب، واذ بهم يتراجعون.

فصاح الخان بسخط:

– ماذا هناك؟ اسحبوا المجرم.

فأجاب الجلادون:

– يا مولانا! المجرم ليس في الخيمة! هنا فقط رداؤه البالي!

فاشاح الخان بيديه وارتمى على البساط.

كيف أفلت ألدار كوسى من المطاردة

قال الخان لوزيره الأكبر:

– خذ من قطيعي خمسين جواداً من أسرع الجياد، وضع على ظهورها أكثر المحاربين خبرة، واذهب للبحث عن ألدار كوسى. احضره الي حياً أو ميتاً!

فانحنى الوزير الأكبر أمام الخان في طاعة.

وأشرق الهلال سبع مرات، ثم سبع مرات أخرى بينما فصيل الوزير الأكبر يجوب السهوب، حتى وقع أخيراً على أثر ألدار كوسى.

كان ألدار يهرب من المطاردة تارة ركضاً، وتارة زحفاً في الوديان والأغوار. واسود وجهه، وهزل بدنه، وتمزقت ملابسه، وبلى حذاؤه. وفي هذه الهيئة ظهر فجأة، كأنما سقط من السماء، أمام نزل قوافل قديم شبه مهجور، على شاطىء بحيرة غطتها أعواد الغاب.

لم يكن هناك من يتردد على هذا النزل الا نادراً، ولذلك ما أن سمع صاحبه وقع أقدام بشرية، حتى أسرع بالخروج من باب النزل وهو يقول لنفسه: «ربما يكون الله قد بعث الينا بزبون». ولكنه عندما نظر الى هذا الغريب وأسماله البالية حتى داهمه الحزن، فاستدار عنه غاضباً، وقال:

– اذا كنت قد أتيت طمعاً في صدقة، او لتبيت الليلة دون مقابل، فاليك نصيحتي: امض يا عزيزي في سبيلك.

فهز ألدار رأسه مؤنباً:

– كلا، كلا، أيها البيك المحترم. أنا لا أريد منك شيئاً. لم أسرع الى هنا لغرض في نفسي. بل من أجل انقاذك أسرعت ولم أبال بصحتي. قل لي يا صديقي دون مداراة: ما الذي اقترفته في حق الخان حتى غضب عليك كل هذا الغضب؟

فارتجف صاحب النزل من شدة المفاجأة.

– الخان غاضب علي؟ ما هذا الهراء! أنا لم أر الخان في حياتي. فما شأنه بي؟ من أين جئت بهذه الخرافات؟

فقال الدار بصوت متهرج وهو يسر في أذن صاحب النزل:

– كان بودي أن أشرح لك كل شيء بالترتيب يا صديقي. لكني سأقول لك ما سمعته من أناس موثوق بهم: لقد أرسل الخان فصيلا من السفاحين للقبض عليك وارسالك اليه ليقضي عليك. والمصيبة اصبحت قريبة منك. أنظر الى السهوب!

ونظر الرجل الى حيث أشار الدار فكاد يفقد وعيه: فنحو النزل ركض فرسان وقد توهجت دروعهم كالنار تحت أشعة الشمس الغاربة. وتناهت أصوات رهيبة ووقع حوافر الخيول وصهيلها المجلجل.

وأصبح خدا الرجل المتهدلان بلون الحليب وأشد بياضاً. وأمسك باسمال الدار باصابع مرتعشة:

– لا تتركني أهلك بلا جريرة يا منقذي. ارحم بحالي. واذا كنت قد أخبرتني بأمر المصيبة، فلتشر لي الى طريق النجاة. أطلب ما تريد على أن تنقذني.

وقطب الدار حاجبيه ولزم الصمت كأنما يفكر في شيء ما. فهزه صاحب النزل بشدة:

– تكلم، تكلم، لا تصمت!

فضرب الدار جبينه بيده وصاح:

– وجدتها. اعطني رداءك اغطي به أسمالي، أما أنت فاركض باسرع ماتستطيع الى أعواد الغاب، ابق هناك يوماً أو يومين... فليكن ما يكون. سأجازف بحياتي وأقابل رسل الخان بدلا منك. سأقول لهم: «لقد تأخرتم يا سادة، فقد مات من تبحثون عنه... دفناه منذ ثلاثة أيام. أكل حتى التخمة، ومات من الاسهال وهو يثني على الخان...» فماذا تريد من ميت؟ سيرجع هوءلاء الأشقياء بأيد خاوية...

فدمدم صاحب النزل:

– فليحفظك الله! فليحفظك الله.

وطار الى أعواد الغاب في ثيابه الداخلية.

ولوح له الدار بيده:

«تمرغ يا عزيزي في الوحل كالخنزير، ولينهشك البعوض. أمثالك لا يستحقون العطف!...».

أما هو فقد ارتدى بسرعة رداء صاحب النزل ولفّ رأسه بخرقة وجدها تحت قدميه، وأمسك خده بيده وهو يتأوه، وتقدم وهو يعرج نحو الفصيل.

– تفضلوا أيها الضيوف الأعزاء الى نزلي، أهلا وسهلا!

وأوقف الوزير حصانه أمام أنف الرجل تماماً.

– اسمع أيها الفزاعة، ماهذه العمامة التي تضعها على رأسك الاحمق؟ الاحرى بك أن تكون فزاعةتطرد الذئاب عن الحملان لا أن تكون صاحب نزل. ولكن مادمت تقول انك صاحب النزل فلتجب: الا يختبىء عندك الشخص الذي نطارده؟ انه مجرم خطير وعدو لدود للخان. انه أجرد، هزيل ... أم تراه مر من هنا؟

وبدلا من الرد تأوه الدار وصرخ شاكياً:

– أيها الملاعين! أيها السفاحون، أيها القتلة!الناس لا يأتيها منكم سوى المصائب ... فلتحرقكم النار جميعاً أيها الملاعين! فلتخطفكم الشياطين.

فاحمرت عينا الوزير من الغضب وصاح به:

– اخرس ياوغد! تجرؤ على اهانة خدم الخان؟ ألا ترى من أمامك؟ أم تراك متآمراً مع الدار كوسى؟

فتأوه الدار:

– عفواً يا مولاي، سامحني.. عقلي طار من الألم... عن اى الدار كوسى تتحدث؟ أنا لا أعرف شخصاً كهذا.. آه أسناني! أسناني عذبتني. أنهكتني تماماً، عليها اللعنة. يبدو أنني لن أعيش حتى الصباح...

– لن تعيش حتى الليل اذا لم تكف عن العويل وعن التسويف في الاجابة! – ولوح الوزير بسيفه – أسألك لآخر مرة: ألم تر شخصاً أجرد؟

– رأيت، رأيت يا مولاي.. لمذا تغضب؟ الغضب قد يصيب الكبد بالجفاف... الأجرد، آه، طبعا، طبعاً.. كان هنا منذ فترة قريبة. ولكني لم أسمع له بالمبيت. انه ليس هنا، ولو قلبتم كل شيء بحثاً عنه.

فدفع الوزير الدار بصدر الحصان:

– فأين هو اذن؟ قل بسرعة!

– في أعواد الغاب ... اندفع الى المستنقع، هذا الأحمق! (آه ياأسناني!) ولكن المكان كله وحل هناك، لا يمكن عبوره ... لاتحاولوا أن تبحثوا عنه في الظلام. أعوذ بالله، ستهلكون! وستغرقون الخيل... اقضوا الليلة عندي. لن آخذ منكم مبلغاً كبيراً .. درهماً لكل شخص (آه ياقتلة!) ابقوا حتى الفجر ... الرجال سيرتاحون، والخيول سترتاح ... وعند الفجر

سأوقظكم... وفي الصباح تقبضون على الهارب بلامجهود.. فالى اين سيهرب منكم؟ ستمسكون به كفرخ وليد، (آه، أيها الأشقياء العديمي الضمير!). وأمسك الدار كوسى بخده ثانية.

فأمر الوزير رجاله:

– ترجلوا. يبدو ان هذا الأحمق على حق. فقد يقول الأحمق احياناً رأياً سديداً. سنرتاح هنا. وليقض الدار كوسى الداهية ليلته في الوحل الرطب.. ففي الفجر سنجففه بسياطنا. انصرفوا للنوم!

والقى «لصاحب النزل» بكيس نقود أجراً للمبيت.

فالتقط الدار الكيس كما يقبض النسر على الطير، وأسرع يفرش لهم الأبسطة.

– ليلة سعيدة أيها الضيوف الأعزاء. نوماً عميقاً!

وحل الجنود سروج الخيول، وربطوا الخيول، ووضعوا أمامها العلف، وارتموا على الأبسطة، فتعالى الشخير من خمسين أنفاً. وكان آخرهم الوزير الذي أخذ يتقلب وقتاً طويلا على فراشه الخاص. ثم قال وهو ينعس:

– ايقظنا عند الفجر يارجل. لو أفلت منا الدار كوسى فسيطير رأسك.

وارتفع شخيره هو أيضاً.

وبينما كان النزلاء يستعدون للنوم، جلس الدار مقعياً غيربعيد، وهو يتأوه ويسب سباباً لا يفهم أن كان المقصود منه أسنانه أم رجال الخان. وأخيراً هجع الجميع. فقال الدار لنفسه:

«النوم في البداية يكون عميقاً. هذا أنسب وقت للعمل...».

وعلى الفور تغير شكله. وقبل كل شيء بحث في النزل بهدوء عن مقص لقص الخراف. وتحسسه باصبعه ليعرف هل هو حاد أم لا، فوجده حاداً كالموسى. وراح ينتقل بلا صوت كالظل من نائم لآخر والمقص في يده. وعلى الفور يصبح وجه من يقترب منه أجرد ناعماً. في البداية طارت لحية الوزير الكثة ..ثم تبعتها لحى الآخرين. لقد حلق لحى كل أعدائه. ويالها من لحى! منها الطويلة والقصيرة، والكثة والناعمة، والغزيرة والخفيفة، والسوداء والبيضاء... وقام الداربهذا العمل مهارة، حتى ان أحداً من النائمين يشعر بشيء.

وبعد أن انتهى الدار من اللحى شرع يعمل موساه في السروج والعدد والاعنة، فمزقها بالموسى اربا اربا. وأبقى عدة واحدة، كانت أغلاها. وسرج بها أفضل جواد، ووضع قدمه في الركاب... وكأنما ذاب في غبش الفجر.

وفي الفجر أحس الوزير بالبرد فاستيقظ. ونظر حوله فاذا الضوء قد انتشر. فصاح بقلق:

– يا صاحب النزل! لماذا لم توقظنا؟ يا صاحب النزل! أين أنت أيها الشقي؟

فلم يسمع جواباً.

وأحس الوزير بقشعريرة.

ومض في رأسه خاطر: «أتكون هذه الحشرة قد خدعتنا؟ يجب انهاض الفصيل فوراً!»

ولكن الجنود كانوا يغطون في سبات عميق، لا يوقظهم منه حتى ضرب العصى. وبعد جهد جهيد تمكن الوزير من ايقاظ أحدهم.

ونهض الجندي واقفاً وحملق في الوزير مبهوتاً.

وحدق فيه الوزير وفكر: «ما هذه السحنة الجرداء؟ انه الدار كوسي! لقد تنكر الشرير في زي جندي»...

أما الجندي فقد فرك عينيه بقبضته مرة وأخرى، وحملق في الوزير ثانية.

«أحقاً مازلت نائماً؟ كلا، انه الدار كوسى! تنكر الخبيث في زي الوزير...».

وأمسك كل منهما بتلابيب الآخر.

وصاحا بصوت واحد:

– النجدة! الدار كوسى تسلل الى معسكرنا! لقد أمسكت بالدار كوسى!

كانا يصيحان بصوت يوقظ الموتى من قبورهم. ومن ثم قفز الجنود واقفين:

– من الذي صاح؟ أين الدار كوسى؟

وما أن نظروا كل منهم الى صاحبه حتى دب الهرج والمرج. فقد رأى كل منهم أمامه شخصاً أجرد.

– ها هو الدار كوسى!

– بل أنت الدار كوسى!

– امسكوه! اضربوه!

– آه أنت تضرب! خذ اذن!

واختلط الحابل بالنابل، وتساقطوا على الأرض، وكل منهم يضرب صاحبه بما تقع عليه يداه. وانتشرت الضجة في السهوب وكأنها أصوات

معركة. وماكان أحد ليعرف كيف ستنتهي هذه المعركة لولا ان ظهرت الشمس من وراء الجبال البعيدة.

وفي ضوء الشمس أفاق الجنود وادركوا أنهم وقعوا ضحية خداع لم يتوصل الشيطان نفسه الى مثله سوءاً وعاراً.

– ابحثوا عن صاحب النزل!

وبحثوا عنه في كل مكان فلم يجدوه.

– احصوا الخيول!

وأحصوها فوجدوها ناقصة حصاناً واحداً، هو حصان الوزير.

فصاح الوزير المضروب:

– طاردوه. ان الرجل الذي ادعى أنه صاحب النزل هو ألدار – كوسى! انه هو الكافر المتمرد الذي جلب علينا العار، ادركوه!

وأسرع الجنود الى مكان السروج والعدد فوجدوا بدلا منها مزقاً وقطعاً صغيرة. فأي مطاردة!

وركب الجنود المصابون بالكدمات والرضوض على ظهور خيولهم العارية، وتشبثوا بأعراف الخيل، وعادوا أدراجهم الى الخان. ومن خلفهم سار الوزير على قدميه وبدون لحية. ولم يتنازل له أي من الجنود عن حصانه، اذ لم يعد أحد يخشاه، فقد حلت نهاية الوزير الرهيب.

أما الدار كوسى فكان قد أصبح بعيداً، وراح يبتعد أكثر فأكثر ... وأي حكيم يستطيع ان يقول اين شق دربه، وأين أوقف حصانه. فالدار مثل العشب المتدحرج الذي يتدحرج في السوب من طرف الى طرف. فالى اين يتدحرج؟ فلتسأل الريح. وأين يتوقف؟ الريح نفسها لا تعرف.

محتويات

البستان البديع ٣
آيسلو الحسناء ٩
الملك سليمان وطائر السبد ١٥
الحلم المشترى ١٩
ست الحسن ميرجان وملك البحار ٣٢
حظ عبد القادر ٣٦
جيرنشي وقره شاش ٤٢
حصان الخان جاني بيك ٤٨
الحداد وزوجته الوفية ٥٠
اسم عجيب ٥٨
الاخوة الجوالة ٦٤
ابنة الحطاب ٧٣
ابناء نورجان ٧٩
أدك ٨٤
اربعون حكاية كاذبة ٩٠
الماكران ٩٨
الحمار الشجاع ١٠٣
الاصدقاء الثلاثة ١٠٧
الحمار المغني ١١١
لماذا أصبح ذيل السنونوة مقصوصا . . . ١١٦
أبو فراس ١١٨

الخير والشر ١٢٣
الغني والفقير ١٢٨
حكاية عن الكسول ١٣٨
تيبين كوك ١٤٠

الملاعيب المضحكة للساخر الاجرد الدار كوسى

كيف بدا الدار كوسى طريقه ١٤٧
كيف طرد الدار كوسى الجني ١٤٩
كيف خدع الدار كوسى الشيطان . . . ١٥٥
كيف أطعم الدار كوسى عمال البيك . . . ١٦٢
كيف تعرف البيك على الدار كوسى . . . ١٦٥
كيف عاقب الدار كوسى الشيخ البشع . . ١٦٨
كيف انقذ الدار كوسى الأرملة ١٧١
كيف نزل الدار كوسى ضيفاً على شيجاي بيك . ١٧٤
كيف باع الدار كوسى للبيك أرنباً مدربا . . ١٨١
كيف عالج الدار كوسى البيك ١٨٧
كيف زوج الدار كوسى شابا فقيرا . . . ١٩٢
كيف بادل الدار كوسى رداً باليابمعطف فراً . ١٩٥
كيف انتصر الدار كوسى على ثلاثة عمالقة . . ١٩٨
كيف علم الدار كوسى البيك زرع الحمير . . ٢٠٣
كيف سلى الدار بيكين صيادين ٢٠٨
لماذا أصبح الدار كوسى أجرد ٢١٢
كيف جاء الدار كوسى الى البيك يطلب النصح . ٢١٣
كيف أذل الدار كوسى البيك الطاعية . . . ٢١٦
كيف تصدى الدار كوسى لنصرة الغناً . . ٢١٩
كيف فضح الدار كوسى ابن السلطان المتكبر . ٢٢٢
كيف اصبح الدار كوسى مو حاشية الخان . . ٢٢٤
كيف انتصر الدار كوسى على الاشار خان . . ٢٢٩
كيف نجا الدار كوسى من الموت . . . ٢٣٢
كيف افلت الدار كوسى من المطاردة . . . ٢٣٥

الى القراء

ان دار التقدم – فرع طشقند – تكون شاكرة لكم اذا تفضلتم وابديتم لها ملاحظاتكم حول ترجمة الكتاب وشكل عرضه وطباعته وأعربتم لها عن رغباتكم.

العنوان: شارع نوائي، ٣٠
طشقند – الاتحاد السوفييتي

15—1700